يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

المسبحة

THE ROSARY

(قربان الحب)

أعظم ما كتبت
الروائية الإنجليزية
"فلورنس باركلي"



الجزء الثاني والأخير

فلورنس باركلى

المسبحة



THE ROSARY
BY
FLORENCE BARCLAY

٢٣٠ صفحة - ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالميه)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتاباً ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسلمن امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فىالخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ، قصص من الصين ، نزالى بلزاك ، الالياذة ، قصص منروما ، المسيحة . وثمنالنسخة عشرةقروش فيماعدا الاعداد : ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة عشرون قرشا ، والاعداد : ١٢ ، ٢٨ - ٣٢ اثنى عشر قرشا ، و ٣ و ٥ و ٦ ثمانية قروش ، ويضاف الى هذا السعر قرشان مقابل أجر البريد المسجل .

مطبوعات

كتابي

التـرجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الـكتاب الاربعـون

المسبحة

(قربان الحب)

الجزء الثانى

ترجمة : نجيب ميخائيل بشارة

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

يبـدأ ترقيم صفحات هذا الجزء من صفحة ۱۹۳ ، حتى تكون الارقام متسلسلة ، بعد نزع الورقة الاخيرة من الجزء الاول ، والورقات الثلاثة التى فى أول هـذا الجزء ، اذا أريد تجليد الجزءين فى مجلد واحد

المسبحة

(قربان الحبّ)

للروائيّة الانجليزية "فلورنس باركلى"



ملخص ماجاء بالجزء الاول

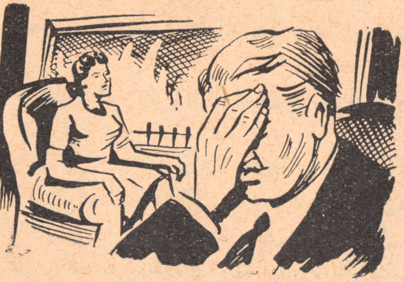
• **كانت** النبيلة « جين شامبيون » قبلة شباب المجتمع اللندنى الراقى ، لا لحسبها ولانها أخ دوقة ميلدرم ، ولا لجمالها ، فانها كانت ذات ملامح عادية ، خالية من أى جمال صارخ ، وان كانت ممشوقة القوام ، ملتفة الجيد .. وانما كان الشباب يعجب برقة أخلاقها ، ولطف سجاياها ، ومرح روحها ، وذكائها الفائق .. وكانت الفتاة تدرك هذا الواقع — الذى كان جديرا بأن يحزن نفس أية فتاةأخرى — وترتضيه. لذلك كانت دهشتها بالغة ، عندما عرض عليها « جارث دالمين » — الفنان ، الذى أوتى ثروة ومواهب وجمالا — الزواج. **فقد سمعها « جارث » وهى تغنى أغنية « المسبحة » ، فاذا به ينفذ خلال مظهرها الخارجى الى أعماق نفسها وروحها ، ويدرك أنها جوهرة لامثيل لها ، ويلمس فيها كل ماكان ينشده**

وتفكر « جين » طويلا ، فلا تملك الا ان تعترف بأن « جارث » كان يصغرها سنا ، وكان باهر الجمال ، ذائع الصيت ، واسع الثراء ، تتهافت عليه أجمل حسان المجتمع الراقى .. وكان فوق ذلك مشغوفا بالجمال ، يسعى دائما الى أن يحيط نفسه بكل جميل . فتخال أن زواجا يجمعهما لن يكون موفقا قط ، وأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عينى « جارث » على دمامتها .. لذلك ترفض يده ، ولا تجد علة تبديها له ، سوى صغر سنه ، وانه فى نظرها .. **«مجرد غلام»** !

وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب ، فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم .. وفى مصر ، ترى النيل يجرى بين الصحراء والخصب ، **فترى أن من الممكن أن تعيش مع «جارث» على هذا النسق .. افتقار الى الجمال — فى التركيب البدنى — يقابله غنى عاطفى ، وعقلى ، وروحى ..** وتقرر ان تكتب له ، ولكنها تفاجأ بنبأ فقدانه الابصار نهائيا ، فتسرع الى لندن ..

والآن ، تابع أحداث هذه القصة المشوقة ..

الجزء الثانى



فاسترد الدكتور حديثه – فى الحال – وانحنى الى الامام ، وأخذ يديها المعقودتين فى يديه ، وقال : « سامحينى ، اذا كنت قد أخذت الامر بشىء من الهزل والخفة .. ان كل ما لدى من فكر واهتمام طوع أمرك . ولكن دعينى الآن أوجه اليك بعض الاسئلة : كيف قدر لك أن توفقى الى اقناع « دالمين » بأن أمرا كهذا كان عقبة كؤودا أمام زواجكما ؟ »

– **اننى لم أبد هذا كسبب يبرر رفضى**

– اذن فما هو السبب الذى بنيت عليه رفضك الزواج منه ؟

– **سألته عن عمره !**

– جين ! .. وأنت واقفة بجواره أمام الهيكل ، حيث جاء ليتلقى الرد منك ؟

– **نعم . لقد تجلت بشاعة ذلك ، عندما قلبت الامر على وجوهه بعد ذلك . ولكنه أجدى !**

– لست أشك فى أنه قد أجدى .. وبعد ؟

– **أخبرنى أن عمره سبعة وعشرون عاما .. فقلت له اننى**

فى الثلاثين من عمرى ، وأظهر كما لو كنت فى الخامسة والثلاثين، وأحس فى نفسى بأننى فى الاربعين .. كما قلت له بأنه قد يكون فى السابعة والعشرين ، ولكنه يظهر كما لو كان فى التاسعة عشرة ، كما أعتقد أنه كثيرا ما يشعر بأنه فى التاسعة من عمره !

– وبعد ؟

– عند ذلك قلت له اننى لا أستطيع أن أتزوج مجرد غلام !

– وهل انصاع وقبل هذا ؟

– لقد لاح – فى بادىء الامر – انه صعق .. ثم قال ان من الطبيعى أن لا أستطيع الزواج منه ما دمت أراه بهذا الوصف .. وقال انها المرة الاولى التى فكر فيها فى شخصه بالنسبة لهذا الامر .. ثم أضاف انه يحنى رأسه أمام قرارى . وسار مغادرا الكنيسة ، فلم نلتق بعد ذلك !

فأجابها الطبيب : « يدهشنى أنه لم يكتشف ما انطوى عليه قرارك يا جين .. فأنت لم تتعودى الكذب حتى يتوقع منك أن تكذبى – وأنت على عتبة الهيكل – على الرجل الذى أحببته بكل قواك ! » . وهنا كسا وجه جين احمرار قاتم ، وقالت : « أواه يا دريك .. لم يكن ما ذكرت كذبا بمعنى الكلمة .. بل انها كانت اكذوبة بغيضة من النوع الذى « بعضه صدق » ، والذى يصفه تينسون بأنه : مسألة تشق مغالبتها ! » . فأكمل الطبيب الابيات الشعرية :

« الاكذوبة التى هى كذب محض .. يمكن صدها ومغالبتها مباشرة

« أما الاكذوبة التى بعضها صدق ، فمسألة تشق مغالبتها ! »

وقالت جين : « نعم .. ولذلك فانه لم يقو على مغالبتها لان بعضها صدق .. فهو يصغرنى بثلاث سنوات ، وهذا الفارق فى العمر ، يضاعفه الفارق فى الطباع والمزاج .. وكان شبابه المرح النضر ، هو الذى جعلنى أخاف نضوجى ورصانتى

.. كان بعضها صدقا يا دريك ، ولكن الشطر الاكبر كان كذبا .. وزادها كذبا أن دعوته « مجرد غلام » ، وهو الرجل الذى شعرت برجولته الكاملة ، وانه سيد سيطر على ، فى الليلة السابقة .. ولم يقو على مغالبتها كذلك ، لانه أخذ على غرة . فقد كان طيلة الوقت بعيدا عن الشعور بنفسه ، بقدر ما كنت أنا أعانى كمدا من الشعور بنفسى .. كان كل تفكيره قاصرا على ، فى حين كان تفكيرى منصبا عليه وعلى نفسى ! »

فقال الطبيب : « لقد استحققت كل غصة مما عانيت منذ تلك اللحظة ! » . فأحنت جين رأسها ، وقالت : « أعرف ذلك »

— لقد خدعت نفسك ، ولم تكونى صادقة مع حبيبك ، فسلبت كلا منكما الآخر وغششته . أو لا ترين الآن خطأك ؟ .. لو انك اخذت الامر على ابسط احتمالاته ، لتبينت أن دالمين — وهو العابد للجمال — قد اتخم من جمال الوجوه ، حتى تقززت نفسه .. **كان كصبى صانع الحلوى ، الذى يباح له كل ما يشتهى من الكعك والحلوى — عندما يلتحق بالعمل — فيأكل فى الاسبوع الاول كثيرا جدا ، الى حد أنه يشعر بعد ذلك بالتقزز من كل حلو ، ولا يقبل سوى الخبز والزبد .. لقد كنت لدال الخبز والزبد ، وأرجو أن تسامحينى اذا كان هذا التشبيه لا يرضيك !**

فابتسمت جين وقالت : « بل ان التشبيه يعجبنى » . بينما استطرد الطبيب قائلا : « بل انك كنت اكثر من ذلك بكثير يا فتاتى العزيزة .. كنت فى نظره مثلا أعلى للمرأة ، وقد آمن ايمانا عميقا بقوة شخصيتك ، وحنانك ، وكياستك ، وظرفك ، وصدقك .. واذا بك تحطمين هذا المثل الاعلى ، وتهدمين ذلك الايمان .. ان طبيعته الخيالية ، الفنانة ، المتوثبة — بكل ما فيها من امكانيات عاطلة ، ومن ايمان

واخلاص ووله ـ قد وجـــدت فى حبك مرفأ وملاذا أمينا ، فاذا بك ـ فى اثنتى عشرة ساعة ـ تلقين بكل ذلك فى قاع اليم .. **لقد كان ما فعلته جريمة ، يا جين .. وقد تجلى ما للرجل العزيز من قوة رائعة ، فى المسلك الذى سلكه عقب ذلك ، فان نجاحه فى فنه لم يقف عند حد ، بل انه ـ على العكس ـ بلغ حد الاعجاز ، ولم يجرفه اليأس الى زواج جنونى فاشل ، ليهزأ بذلك من آلامه .. ولا الى الزواج من أخرى مجردة من الجمال ، امعانا فى الكيد لك !** .. كان فى مقدوره أن يفعـــل الامرين ـ أقصد أيا منهما ـ وعندما اتمثل الشاب المسكين ـ الذى كنت بجانبه بالامس ـ يصارع دياجير الظلام فى شجاعة نادرة ، ويقلب رأسه على الوسادة ليقول ، وقد أشرق وجهه النحيل بنور الامل : **((وحيث تكون أنت مرشـــدنا فلن يكون ثمة مرض))** .. كلما فكرت فى انه قد تعرض لكل ذلك من جرائك أنت يا جين ، تمنيت لو أنك كنت رجلا لالهب ظهرك بالسياط!))

وبسطت جين كتفيها ، ورفعت رأسها بكثير مما عرف عنها ـ من قبل ـ من شمم ، وقالت : ((بل انك جلدتنى فعلا يا فتاي ، بما لا تقوى سوى الكلمات ـ الصادرة عن حنق صادق ـ أن تأتيه ، وها أنذى أحس براحة من جراء هذا الالم .. والآن ، يحســـن بى ان اخبرك بأننى ـ بينما كنت فوق قمة الهرم الاكبر ـ رأيت المســألة فجأة ، من زاوية أخرى . انك تذكر ـ ولا ريب ـ ذلك المنظر الذى تطل عليه من فوق قمة الهرم ، والخط الحاد الذى يقســـمه ، فمن ناحية النهر : الخضرة والعشب والثمار كأبدع حديقة محدودة .. ومن الناحية الاخرى : بيداء شاسعة لا تدرك العين مداها .. حرية ذهبية طليقة ، ممتدة حتى الافق ، فلا نبات ، ولا أمل فى خضرة ، وانما جدب ، واقفار ، ووحدة ، ووحشة ..

لقد شعرت لدى رؤيتها بأن هذه الحال صورة كاملة لحياتى التى أحياها الآن ، فان حب ((جارث)) - اذ يتدفق فيهـــا كالنهر - يستطيع أن يحيلها ((نعيم)) حقا .. كان كفيلا بأن يحد من حريتى ، ولكنه كان - فى الوقت ذاته - يعنى نهاية وحدتى .. لا سيما وان حرية الفرد فى أن يحيى لنفسه فقط ، تتحول مع الزمن الى عبودية مملة ! .. وتحققت - عند ذلك - بأننى قضيت عليه - هو الآخر - بهـــذه الحياة المجدبة القاسية . وهبطت فاستشرت أبا الهول العجوز . ولاح لى أن تلكما العينين الساجيتين ، الحكيمتين ، المتطلعتين الى عالم الغيب ، تقولان : ((انما يعيش حقا ، أولئك الذين يحبون !)) . وفى تلك الليلة عقدت العزم على الغاء رحلتى الى أعالى النيل ، وعلى العودة فورا الى بلادى ، فأستدعى ((جارث)) وأعترف له بكل شىء ، وأســـأله أن يدعنا نبدأ - نحن الاثنان - من جديد ، من حيث انتهينا منذ ثلاث سنوات مضت - فى ضوء القمر - فى شرفة قصر (شنستون) .. ولم ينقض على هذا التصميم عشر دقائق ، حتى فوجئت بسماع الخبر المفجع ! »

وعند ذلك ظلل الطبيب عينيه بيده ، وقال بصوت منخفض : « ان عجلات الزمن تسير دائما الى الامام ، ولكنها لا تعود مطلقا الى الوراء ! » . فصرخت جين : « أواه يا دريك .. انها تعود فى بعض الحالات ، وأنت وفلاور تعلمان ذلك » . فابتســـم الطبيب بأسى وقال لهـــا فى رقة وحنان : « أعرف أن هناك استثناء واحدا لكل قاعدة ! » .. ثم أضاف مسرعا : **« على أنه مما يساعد على اصلاح الامر - بلا مراء - ما كان من اتجاه تفكيرك ، اذ كنت قد اعترفت بخطئك - قبل أن تعلمى بعمى دالمين - وعقدت العزم على أن تركنى اليه ! »**

فأجابته جين : « لست موقنة تماما من أننى كنت مخطئة ، ولكننى كنت قد اقتنعت تماما بأننى لم أعد أســـتطيع العيش

بدونه دقيقة واحدة ، ولذلك عولت على المجازفة . أما الآن ، فان الحادث الذى جرى لفتاى المسكين ، قد محا كل شك أو حاجة الى تساؤل .. وهذا مما ييسر الامور فيما يختص بتلك الناحية بالذات ! » . فحدق الطبيب فى جين ورفع حاجبيه فجأة ، وسألها : « ييسر الامور ؟ ! »

واذ بدا على « جين » أنها كانت مرتاحة الى ذلك التعبير ، فلم تحاول أن تزيده ايضاحا ، نهض الطبيب عن مقعده وأخذ يحرك نار المدفأة . وظل فى موقفه لحظات ، مستغرقا فى تفكير عميق . حتى اذا عادالى مقعده ،كان صوته هادئا جدا ، وان بدت لهجته متحفزة بدرجة جفلت لها « جين » ، فشعرت بأن حديثهما قد بلغ مرحلة حاسمة .. وقال لها الطبيب : « والآن يا عزيزتى جانيت ، لعلك تنبئيننى بما انتويت عمله » . فأجابته جين : « عمله ؟ ! .. وهل هذا موضوع تساؤل ؟ .. سأذهب توا الى جارث ، وانما اريدك على أن تبصرنى بخير الوسائل لانبائه بحضورى ، وبما اذا كان من المأمون أن يتعرض للانفعال الذى يثيره وصولى ! .. ثم اننى لا اريد أن أتعرض لان يحجزنى الاطباء والممرضات عنه ، فان مكانى الى جواره ، ولست ابتغى فى الحياة خيرا من ان أكون بجانبه دائما ، ولكن الموكلين بغرف المرضى يكونون — عادة — ذوى عقول جامدة ، ولن تكون المضايقة محتملة فى مثل هذه الظروف .. ان برقية منك كافية لتمهيد الموقف »

وقال الطبيب فى تأن : « أجل .. حقا ، ان برقية منى تفتح لك طريقا الى فراش جارث دالمين ، ولا شك . **ولكن ، ماذا يكون بعد وصولك الى هنالك ؟ »** . فارتسمت على شفتى « جين » ابتسامة رقيقة ، حنون ، لمحها الطبيب فأشاح برأسه توا . فما كان له — ولا لاى رجل — ان يرى هذه الابتسامة

.. وكانت العينان اللتان يحق لهما رؤيتها قد فقدتا الابصار الى الابد !

ـ ماذا بعد ذلك يا دريك ؟ .. ان الحب خير من يعرف ماذا يكون بعد ذلك . فسوف تنهار كل الحواجز ، وسأبقى وجارث معاً !

ولدى سماع ذلك ، التقت أطراف أصابع الطبيب بعضها ببعض ، وسكت لحظة .. وحينما تكلم ، كانت لهجته معتدلة ، مترفقة . فقال : « آه يا جين ، هذه هى وجهة نظر المرأة ، وهى بلا ريب أبسط وجهات النظر ، وقد تكون أفضلها .. ولكنك ستواجهين عند فراش جارث وجهة نظر الرجل ، ولن أكون أهلا للثقة التى تضعينها فى شخصى اذا لم أصارحك بهذه الحقيقة الآن .. فان تصرفك المخطىء منذ ثلاث سنوات ، يضعك الآن ـ من وجهة نظر الرجل ـ فى مركز يكاد يكون متعذر العلاج .. **فاذا أنت ذهبت الآن الى جارث تهبينه حبك ـ وهو الكنز الثمين الذى سألك اياه منذ ثلاث سنوات ، وفشل فى الظفر به ـ فمن الطبيعى أنه سيأخذ هذا الحب على أنه فى جوهره عطف ، وليس جارث دالمين بالرجل الذى يتقبل العطف والشفقة حيث أراد أن يظفر بالحب ففشل !..** كما أنه لن يسمح لاية امرأة ـ لا سيما تلك التى كانت مثله الاعلى فى المرأة ـ ان تربط نفسها الى عماه ، ما لم يستوثق من ان هذا الارتباط مبعث سعادة عميقة .. فكيف تنتظرين أن يقبل هذا الاعتقاد ، امام الواقع الذى يتمثل فى أنك رفضته وأقصيته ، عندما كان أسمى ما يشتهى قلب المرأة ؟ ! .. أما اذا شرحت له سبب الرفض ـ وهو ما لا شك فى أنك تنتوين عمله ـ فسيكون رده الوحيد : « انك لم تثقى فى اخلاصى عندما كنت متمتعا ببصرى .. وها أنتذى تأتين وأنا أعمى ، ولم أعد أملك أن أثبت لك وفائى .. **ما من خير فى وضع تمليه الحاجة والضرورة ، ولن أشعر بأننى حائز لثقتك ، لانك لم**

تأت الا حين أعجزني حادث عن القدرة عـلى آتيـان ما كنت تخشين وقوعه ، أو عن اثبات انني فوق مستوى ارتيابك !..

هذا هو الموقف ـ يا بنيتى العزيزة ـ من وجهة نظر الرجل.. من وجهة نظر جارث ـ ولا ريب ـ أكثر مما هى من وجهـة نظرى أو نظر أى شخص آخـر ، فاننى أوقن ان « جارث » أشد منى اعتزازا برجولته . ولو اننى كنت مكانه فى الكنيسـة ـ يوم رفضت قبوله ـ وكنت أرغب فيك بقدر ما كان هـو راغبا ، لركعت عند قدميك مستعطفا ، واعدا بأن أكون أكبـر سنا مما تعتقدين.. أما جارث دالمين فقد أوتى ارادة حديدية مكنته من ان يستدير وينصرف ـ دون أى احتجاج ـ حين رأى المرأة التى كانت طوع بنانه فى الليلة السابقة ، ترفضـه ـ فى الصباح التالى ـ متعللة بعدم لياقته .. اننى اخشى ان لا يكون ثمة نزاع فى وجهة النظـر التى سيتخذها فى الموقف الحالى ! »

وتفتت قلب الطبيب لمـا رآه من امتقاع وجه جين ، وهى تقول : « ولكن يا دريك .. انه يحب .. »

ـ ولمجرد أنه « يحب » ـ يا بنيتى العزيزة ـ فانه لن يقبل ، فيما يتعلق بك ، الا الحد الاقصى !

ـ أواه يا فتاى ! .. ساعدنى ! .. افتـح لى منفذا ! .. نبئنى بما أستطيع أن أفعل !

وتجلى القنوط فى عينيها ، فمكث الطبيب يفكر ـ فى صمت ـ طويلا ، ثم قال أخيرا : « لست أرى سوى مخرج واحـد من هذا المأزق .. اذا أمكن اقناع جارث بطريقة ما ، بأن وجهـة نظرك فى ذلك الوقت كانت مستساغة ـ دون أن يعرف انهـا كانت السبب الفعلى لرفضك ـ وتسنى له أن يعبر عما يخالج ضميره فى وضوح ـ لى مثلا ـ بحيث يصـل حـديثه الى مسمعيك ـ دون ان يكون مقصودا ان يصل الى مسمعيك ـ فقد

يجعلك هذا فى موقف أفضل من ناحيته . ولكن هذا عسير التنفيذ .. لو انك استطعت أن تكونى على اتصال مباشر بعقله ، وان تكونى بجانبه دائما دون ان يراك – آه ، ياصديقى المسكين ، فان هذا ميسور الآن ! – انما أقصد ان تكونى بجانبه دون ان يفطن الى شخصك .. **فاذا أمكن مثلا أن تتخذى شخصية الممرضة المرافقة التى سأبعث بها اليه ، وتنفذى الى عقله وتفكيره بهذا الصدد ، وبذلك يحس – عندما يحين الوقت لتكشفى له عن نفسك وتعترفى له – بأنه قد شرح موقفه امامك ، ويكون بذلك قد اخترق دياجير الظلمة التى اكتنفته بهذا الصدد ! »**

وقفزت جين عن مقعدها قائلة : « لقد وجدتها يا دريك .. ابعث بى فى مكان الممرضة المرافقة التى اخترتها له ، ولن تخطر له شخصيتى ، ولو فى المنام . فلقد انقضت ثلاث سنوات منذ سمع صوتى لآخر مرة ، كما أنه يعتقد اننى لا أزال فى مصر ، اذ جاء فى عمود الاجتماعيات – فى كل الصحف – من اسابيع مضت ، أننى سأقضى الشتاء بين مصر وسوريا ، واننى سأبقى خارج الديار حتى شهر مايو ، وليس هناك من يعرف اننى قد عدت .. ثم انك خير من يحكم على ما تلقيت من مران وتجارب فى التمريض ، وقد كان عملنا – أثناء الحرب – يتناول العقل والروح ، بقدر ما تناول الجراحة . وعلى أية حال ، فالامر لا يتطلب كل هذا ! .. أواه يا ديكى ، ان بوسعك أن ترشحنى دون ما خوف ، ولا أزال أحتفظ بزى الممرضات لوقت الحاجة ، وأستطيع أن اتأهب فى أربع وعشرين ساعة .. وسأذهب اليه على أننى الممرضة « فلانة » .. ولو أدى بى الامر الى تناول طعامى فى المطبخ ! »

فأجابها الطبيب فى هدوء : « ولكن يا بنيتى العزيزة ، ليس بوسعك أن تذهبى باسم الممرضة « فلانة » ، مع الاسف . ولن تستطيعى أن تذهبى الا على أنك الممرضة « روزمارى جراى » ،

اذ اننى اتفقت معها فى هذا الصباح ، وارسلت بالبريد تقريرا مفصلا واضحا عنها للدكتور ماكينزى ، الذى سيتلو خطابى لمريضنا العزيز .. وانا لم أعتد أن أسحب حالة من ممرضة لاعطيها الى اخرى ، الا اذا ثبت عجزها او أخطأت فى اعمالها . وأيسر على الممرضة « روزمارى جراى » أن تطير فى الجو ، من أن تتهم بتقصير او خطأ . ثم انها لن تضطر الىان تتناول طعامها فى المطبخ ، اذ أنها من أصل طيب ، وسوف تعامل على هذا المستوى . وكم يسعدنى حقا او تيسر لك أن تحلى محلها ، لولا أن شكا يساورنى فى امكانك القيام بهذا الدور والاستمرار فيه . كما ان لدى أمرا أريد أن احدثك به .. **لقد سألنى «دالمين» — قبل ان اتركه — عن اخبارك ، وقد تعمد ان يورد اسمك بين الدوقة وفلاور ، ولكنه لم يقو على كبح الحمرة التى كست وجنتيه النحيلتين ، وشد قبضته على غطاء فراشه حتى يتمكن من السيطرة على صوته لينطلق عاديا ثابتا . وقد استفسر عن مكان وجودك ، فأجبته بأننى أعتقد أنك فى مصر ، فى حين أننى كنت أتوقع عودتك الى الوطن . وذكرت له اننى سمعت بأنك تعتزمين العودة الى القدس لقضاء عيد الفصح ، وافترضت على هذا الاساس أن تعودى الى الوطن فى نهاية شهر أبريل ، او أوائل مايو** .. ثم استفسر عن صحتك ، فأجبته بأنك لست من المولعات بتحرير الخطابات ، ولكننى فهمت من البرقيات والبطاقات التى أرسلتها — من وقت لآخر — بأنك فى خير حال ، وانك تقضين وقتا طيبا . ثم تطوعت بذكر اننى أنا الذى دفعتك للسفر الى الخارج ، لانك كنت على شفا الانهيار التام ، فبدرت من يده حركة سريعة ، وكأنما اراد أن يصفعنى مقابل هذا التعبير . ثم قال : « على شفا الانهيار التام ؟ .. هى ! » فى لهجة طافحة بالازدراء لى ولآرائى ، ثم سارع الى توجيه أسئلة دقيقة عن « فلاور » ، وكان قد

استفسر عن الدوقة بكل الاسئلة التى كان يقصد توجيهها عنك . وبعد أن استوثق من ان « فلاور » مقيمة فى دارنا بلندن ، وانها فى صحة جيدة ، وابلغته ما حملتنى من ود وعطف ، رجانى أن ألقى نظرة على الخطابات المكدسة — والتى ظلت مقفلة فى انتظار ابلاله ليقوى على الانصات لفحواها — وأن أخبره اذا عثرت بينها على خطاب بخط شخص أعرفه . يا للمسكين ، كأنما كان العالم بأسره قد كتب مبديا عطفه . وذكرت له حوالى اثنى عشر اسما عرفتها ، بينها خط فرد من الاسرة المالكة . وهنا سألنى عما اذا كانت ثمة خطابات من الخارج ، فاذا هناك خطابان او ثلاثة ، عرفت أصحابها فأخبرته بأسمائهم . ولكنه لم يطق استماع أى منها .. حتى الخطاب الملكى ظل مغلقا ، وان طلب أن يمسكه بيده ، وراح يتحسس التاج القرمزى الصغير . ثم سألنى عما اذا كان هناك أى خطاب من الدوقة . وكان ثمة خطاب منها ، فرغب فى أن يسمعه ، ومن ثم فضضته وتلوته عليه .. وكان مثالا لما هو معروف عن الدوقة ، مليئا بالعطف الكريم ، النابغ من القلب ، وان صيغ فى لباقة . وفى منتصف الخطاب جاء ما يأتى : « **لسوف تستاء جين . وسأكتب لاخبرها ، بمجرد أن ترسل لى عنوانها ، فلست أدرى فى أى قطر من المعمورة توجد ابنة اخى العزيزة ، فى الوقت الحاضر** . وقد كانت تبدو — فى آخر رسالة تلقيتها منها — أنها تسير قدما نحو الزواج من يابانى صغير الحجم ، والاستقرار فى اليابان . وهى فكرة لا بأس بها ، أليست كذلك يا عزيزى دال ؟ .. وان كنت لا أدرى كيف يتسنى العثور فى بلاد الاقزام هذه على بيت ، أو زوج ، أو ذلك الشىء الذى يركبونه ، أو أى شىء من المتانة بحيث يحتمل عزيزتنا جين ، اذا كانت اليابان كلها على نسق جدرانها الورقية المعروفة ! » ..

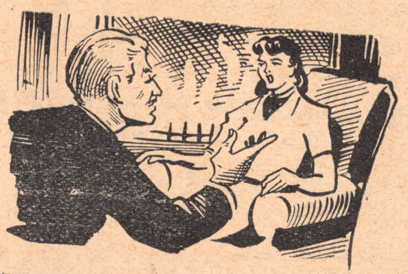
ولقد سارعت بالتجاوز عن تلاوة كل هذه الفقرات الخاصة

زواجك من اليابانى ، حتى اذا اتممت قراءة خطاب الدوقة ، سألنى جارث فى صراحة عما اذا كان هناك خطاب منك ، فأجبته بالنفى ، وبأن من غير المحتمل ان الخبر قد بلغك والا لسارعت — بمجرد وصوله اليك . ومن ثم فانى آمل أن تكتبى اليه يا عزيزتى .. وسوف تصــدر التعليمات الى الممرضــة « روزمارى جراى » بأن تقرأ عليه الخطابات جميعا ! »

فأجابته جين بصوت متهدج : « أواه يا دريك ، لست أحتمل الانتظار .. يجب ان اذهب اليه ! » . وهنا انبعث جرس « التليفون » فوق مكتب الطبيب ، محدثا رنينا حادا طويلا ، فأسرع الطبيب وتناول المسماع : « آلو .. نعم أنا الدكتور براند ، من المتكلم ؟ .. أهذه أنت يا سيدتى الرئيسة ؟ » .. وهنا بدا على « جين » الاسف لان الرئيسة لم تلمح الابتسامة الساحرة التى ارتسمت على وجه الطبيب ، بينما استطرد يقول : « نعم ؟ .. أى اسم تذكرين ؟ .. بلا شــك . هذا الصباح نهائيا .. حالة هامة جدا . يجب أن تأتى وتقابلنى الليلة .. ماذا ؟ خطأ فى السجل ؟ .. آه ، فهمت .. الى أين ذهبت ؟ .. لست أسمع ، أذكريها حرفا حرفا .. استراليا أوه ، هذا مكان لا سبيل الى استقدامها منه .. آه ، لقد سمعت بأنها تلقت أمرا بالذهاب الى هناك .. لا بأس يا ســيدتى الرئيسة ، لا سبيل الى لومك انت .. شكرا ، لا اظن ذلك .. لدى مرشحة اخرى .. نعم . نعم . لا شك فى امكانها القيام بذلك .. وسأخطرك اذا كنت فى حاجة اليها .. أستودعك الله ، وأشكرك كثيرا ! »

وترك الطبيب مسماع التليفون ، والتفت الى جين — وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بطيئة ، يشوبها شىء من الشك — وقال : « جانيت ، اننى لا أؤمن بالحظ .. غير اننى أؤمن بتدبيرات السماء ، التى تتمم خططنا أو تفسدها .. ستذهبين الى جارث ! »

الفصل السادس عشر



• **ما أن** تمالكت جين عواطفها ، حتى قال لها الطبيب : « والآن ، لنبحث الطرق والوسائل .. عليك أن تسافرى بقطار البريد الليلى من (ايستون) بعد باكر ، فهل تستطعين التأهب فى هذا الميعاد ؟ » . فهتفت قائلة : « اننى على تمام الاهبة ، منذ الآن ! » .

ـ يجب أن تذهبى على أنك الممرضة « روزمارى جراى » !

وقالت جين : « أنا لا أحب ذلك ، بل أفضل اسما مستعارا .. فهب أن « روزمارى جراى » الحقيقية ظهرت ، أو ظهر من يعرفها » .. فرد الطبيب قائلا : « انها الآن فى منتصف طريقها الى استراليا ـ يا فتاتى العزيزة ـ ولن تلتقى انت هناك بأحد سوى خدام الدار ، والطبيب . على ان اى زائر يفد على هناك قد يعرفك ، ولابد لنا من أن نتأهب لمثل هذه الاخطار . **ومع ذلك فعند قيام بعض الصعاب ، تستطيعين أن تقدمى رسالة ـ سأزودك بها ـ لايضاح الموقف ، وتبيان أنك راغبة فى سد الثغرة التى تركها رحيل الممرضة « روزمارى جراى » ، وقد قبلت رجائى بأن تنتحلى اسم الممرضة ، لتفادى أية ايضاحات للمريض ، قد يترتب عليها ضرر فى هذه المرحلة**

بالذات . وبوسعى أن أقرر هذا صادقا ، فهذه هى الحقيقة . ومن ثم فعليك أن تتحلى هذه الشخصية يا جين ، وان تبذلى أقصى الجهد فى أداء دورك ما استطعت . واسمحى لى بأن أذكرك بأننى قد وصفتك فى خطابى للدكتور ماكنزى : جميلة ، رقيقة، دقيقة الحجم، ظريفة، مهذبة، واكثرمقدرة مما تبدين!»

— ولكن يا ديكى .. لسوف يتحقق — لاول وهلة — من أننى لست الممرضة التى وصفتها له فى خطابك ..

— ليس الامر بالدرجة التى تتصورين يا عزيزتى .. تذكرى اننا نعمل مع رجل اسكتلندى ، وقد جبل الاسكتلندى على أن لا يدرك الامور « لاول وهلة » ، فان عقول « الكلت » — أهل الشمال — بطيئة وان كانت تسير بخطى وثيقة .. لسوف يوقن — عندما يتأملك برهة — من اننى قليل الدراية بوصف النساء ، وبأن الممرضة جراى امرأة أبدع مما ذكرت فى خطابى .. ولكنه سيكون قد رسم لدالمين صورة لك مستوحاة مما جاء فى رسالتى ، وهذا هو المهم فى الامر . وعلينا أن نلقى اعتمادنا على العناية الالهية فى أن لا يسارع « روبى الكهل » — أقصد الدكتور ماكينزى — الى محاولة تعديل الصورة التى رسمها لمريضه . فحاولى ان تصديه عن مثل هذا الحديث .. واذا لاح ان الطبيب فى ريب من امرك ، فانتحى به جانبا واطلعيه على رسالتى ، واخبريه بالحقيقة كاملة ، ولو اننى أشك فى أن الامر سيصل الى هذا الحد . اما مع المريض ، فعليك ان تتذكرى ما للاعمى من سمع مرهف للغاية .. فلتكن خطواتك ناعمة خفيفة ، ولا تتيحى له فرصة ليحدس مبلغ طولك . وتذكرى دائما ان مايعرفه عن طولك يجعل من المتعذر عليك الوصول الى رف الكتب — فى خزانة طولها حوالى ثمانى أقدام — دون الاستعانة بسلم أو مقعد . وعندما يبدأ المريض فى النهوض والسـير ، حاولى ان لا تمكنيه من ان يفطن الى أن ممرضته أطول منه بقليل . ولن يكون ذلك بالامر العسير ،

ڤان من الافكار الراسخة فى رأسه ، أن أية امرأة لن تمسه فى عماه . كما أن خادمه الخاص هو الذى سيقوده دائما .. **ولست أتصور يا جين أن أى شخص وضع يده فى يدك ، مرة يخطىء فى التعرف عليها بعد ذلك ، ولهذا أنصحك - من البداية - بأن تتجنبى مصافحته . على أن هذه الاحتياطات تهون ازاء العقبة الكبرى .. صوتك . فهل تظنين لحظة أنه لن يتعرف عليه ؟ »**

فأجابته جين : « سأقبض على الثور من قرنيه ، فى هذه الحال .. وعليك أن تساعدنى . فاشرح الامر لى منذ الآن ، كما لو انك كنت تخاطب المرضة « روزمارى جراى » حقا ، وكما لو انها كانت قد أوتيت صوتا يشبه صوتى ! » . وابتسم الطبيب قائلا : « يا عزيزتى المرضة روزمارى .. لا يدهشك البتة أن يلاحظ مريضنا شبها كبيرا بين صوتك وصوت صديقة لى وله ، فقد لمست بنفسى هذا التشابه الشديد ! » . وقالت جين تمثل دورها : « أحقا يا سيدى ؟ .. وهل لى أن أعرف الشخص الذى يشابه صوته صوتى الى هذا الحد ؟ »

وأجاب الطبيب بالابتسامة العذبة التى اعتاد أن يتحدث بها الى ممرضاته : « انها النبيلة جين شامبيون .. هل تعرفينها ؟ » . فأجابته جين : « قليلا ، وكم آمل أن ازداد معرفة بها على مر السنين ! » .. وضحكا معا ، ثم قالت جين : « أشكرك يا ديكى . اننى أعلم الآن كيف أحدث مريضى .. آه ، **ولكن أى شقاء هذا ! .. كيف اقوى على ان اخدع جارث بهذه الصورة ؟ .. جارث صاحب البصيرة الحادة الثاقبة ، التى تلمح كل شىء !** .. هل سأجد من الشجاعة ما يمكننى من الاستمرار فى ذلك ؟ » . فرد الطبيب قائلا : « اذا كنت تقدرين قيمة السعادة الدائمة لك وله ، فما من شك فى أنك فاعلة ، يا عزيزتى . أما الآن فسآمر بالعربة لتقلك سريعا

الى ميدان (بور تلاند) ، والا تأخرت عن موعد العشاء ، وهو أمر تستطيع الدوقة ان تغتفره ـ كما هو معروف ـ ولو بالنسبة لمسافر عاد توا من سـياحة طويلة حول العالم . واذا أخذت بنصيحتى ، فعليك ألا تطلعى عمتك الكريمة ، العاقلة ، على جلية الامر ـ على أن تحذفى من القصة البيانات المتعلقة بضوء القمر ـ واسـتشيريها فى خطتنا هذه . فان رأيها الاريب ، أثمن من أن يقدر ، وستسرين ـ فيما بعد ـ بمعونتها ! »

* * *

• **ونهضا** ، فوقفا متواجهين على بساط المدفأة ، ثم قالت جين ، وقد جاشت عواطفها : « بديع جدا .. لقد كنت كريما وصادق الود ، يا فتاى ، وسأظل لك شاكرة ، مهما يحدث ! » . فأجابها الطبيب : « صه ! .. لا داعى الى الشكر ، فاننى قد سـددت دينا طال أجله . ولن أجد غدا دقيقة واحدة من الفراغ ، وأخشى أن يكون الامر كذلك بعد باكر .. ولكن يمكننا ان نتناول طعام العشاء معا بمحطة (أيستون) فى الساعة السابعة مساء ، ثم اودعك عند سفرك ، فان قطارك يتحرك فى الساعة الثامنة ، ويصل الى محطة (ابردين) بعد الساعة السابعة من الصباح التالى . ومن هنا ستقلك العربة توا الى جلينيش ، فتبلغينه فى موعد الفطور . ولسـوف تسرين بالوصول فى ضياء الصباح الباكر ، فيعانقك هواء البحيرات ، ويبعث فيك شعورا بديعا .

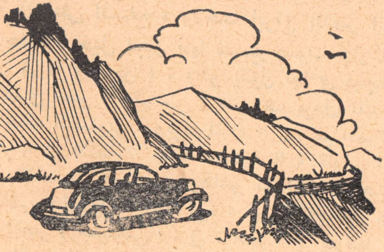
« أشكرك يا ستوارت ، دع العربة تنتظر ، فان الآنسـة شامبيون متأهبة ! .. أهلا يا فلاور ! .. أنظرى الى فوق يا جين ، ان فلاور وديكى وبلوسوم يطلون من فوق حاجز السلم ، ويبعثون اليك بفيض من القبلات .. أجل ، ان النهر الذى ذكرته يخلق « جنة » حقيقية ، فلينعم الله عليك بمثلها .

تذكرت ، آه .. وجهك على النقاب واسدلى اجلسى ، والآن انك لا تضعين نقابا ، فيالك من عاقلة ! .. لو اقتدت بك كل النساء لحط الفقرعلى أطباء العيون .. لماذا ؟ .. لانك تركزين بصرك على الاهداف .. ولكن ، اضطجعى فى مقعدك اذ يجب أن لا يراك أحد ، اذا شئت ان يعتقد الناس انك ما زلت فى القاهرة ، ترتقبين استئناف رحلتك الى أعالى النيل .. » ثم ادخل الطبيب رأسه خلال نافذة العربة ، وقال لها : « تذكرى ان لا تأخذى سوى متاع خفيف ، من النوع البسيط الذى تسميه الممرضات : « صندوقى » ، وضـــعى عليه حرفى « ر . ج » بوضوح ! »

فهمست جين قائلة : « أشكرك يا صديقى ، فأنت تفكر فى كل شىء » .. فأجابهـــا الطبيب : « أننى أفكر فيك » ..

وقدر لجين أن تحس براحة فائقة ــ فى خلال الايام العصيبة التى تلت ذلك ــ كلما ذكرت هذه الكلمات الاخيرة ، الهادئة !

الفصل السابع عشر



◆ وصلت الممرضة « روزمارى جراى » الى قصر جلينيش فما أن هبطت و « صندوقها » على رصيف المحطة الفرعية الصغيرة ، حتى شعرت كما لو أنها قد هبطت من الســحاب ، مخلفة عالمهـا وشخصيتها ، فى أحـد الكواكب الممعنة فى البعد !.. ووجدت سيارة فى انتظارها ــ خارج المحطة ــ فخالجها الخوف لحظة من ان تلقي من السائق تحية تنم عن انه عرفها . ولكنه

ظل جامدا صارما كأنه قطعة من قطع السيارة ، فلم يعرها من الاهتمام أكثر مما أعار متاعها . فقدكانت هى ((المرضة)) ، وكان متاعها ((الصندوق)) .. اسمان من الاسماء العامة .. ومسميان عليه أن ينقلهما الى (جلينيش) طبقا للاوامر التى صدرت اليه .. وعلى هذا ظل يحدق الى الامام ، وقد بدا المنظر الجانبى لوجهه - تحت حافة قلنسوته - أشبه بأبى الهول ، بينما كان الحمال الواجم يساعد ((جين)) ومتاعها على الاستقرار فى السيارة . وعندما منحت الحمال ثلاثة بنسات - حرصا على الظهور بما يلائم متاعها - حرك السائق قدمه ويده فى دقة صامتة ، وكأنه آلة من الآلات ، فاندفعت بهما السيارة الى خارج البلدة ، وانطلقت فى الطريق المؤدى الى التلال .

وأخذت السيارة تتسلق الصخور الرمادية والأعشاب البرية العبقة ، وقطعت أميالا من أرض لم تكن ترى فيها سوى البرك ، والسماء ، والعزلة ، مما زاد من شعور ((جين)) بأنها قد هبطت من عالم الى آخر .. كما أن أتفه المصادفات كاختفاء التحية الحافلة بالاحترام ، المألوفة من خادم كسائق السيارة - بعثت فى نفسها اطمئنانا الى النجاح والامان فى دورها الجديد .. وكانت قد سمعت الكثير عن قصر ((جارث)) القديم فى اسكتلندا ، وهو ميراث انحدر اليه من أسرة أمه .. غير انها لم تتوقع يوما مثل هذه المناظر الطبيعية الرائعة ، والفخامة التى اتسمت بها قواصر القصر وأقواسه ومدخله وعندما انحرفت السيارة فى أعلى السفح ، ولاحت أبراج القصر الرمادية ، وغابات الصنوبر الممتدة خلفه ، خيل لجين أنها تسمع صوت جارث الفتى حين كانا تحت شجرة الارز فى (أوفردين) ، وهو يقول لها فى لهجة مرحة طروب : ((كم أود أن تشاهدى قصر (جلينيش) فلسوف يروق لك المنظر الذى تطل عليه الشرفة ، وغابات الصنوبر ، وبرك المياه)) .. ثم لقد أعلن - بعد ذلك - ضاحكا عن رغبته فى اقامة ((حفلة ممتازة)) ، تتولى الدوقة رعايتها ، وقد وعدته جين بالاشتراك فيها .. وهاهو ذا الان صاحب القصر البديع طريح الفراش ، اعمى ، لاحول له ولا قوة ، بينما تلج هى خلال الابواب الخارجية الفخمة لقصر (جلينيش) ، فى شخصية لا يعرفها هو ، ولا يتعرف عليها أحد ، منتحلة صفة ممرضة وسكرتيرة ..

كانت جين قد قالت له فى (اوفردين) : ((أجل ، ادعنا وسترى مايحدث !)). وهذا هو ماحدث الان ، فما الذى سيحدث بعد ذلك ؟

وأمام عتبة القصر كان ((سمسون)) - مندوب جارث - فى انتظارها ، فاحست بأنها - للمرة الثانية - قد اجتازت بسلام خطرا كانت تخشاه ،

اذ ان سمسون كان قد التحق بخدمة ((جارث)) فى خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، ومن ثم فانه لم يعرف حقيقة شخصيتها حين رآها .. وأخذت ((جين)) تجيل نظرها فى البهو القديم ، فى ذلك التراخى المألوف ممن اعتادت أن تنزل للمرة الاولى ضيفة على دور اصدقائها فى الريف ، ملاحظة المدفأة الكبيرة العجيبة ، وقرون الوعل المعلقة وظلالها ممتدة الى أعلى الجدران . ثم عادت الى نفسها ، وفطنت الى أن ((سمسون)) ـ الذى كان قد صعد نصف درجات السلم العريض المصنوع من خشب البلوط ـ وقف فى انتظار ان تسرع المرضة وراءه ، ففعلت ، واذا بها تجد فى انتظارها ـ فى أعلى السلم ـ العجوز مارجرى ..

وعرفتها جين لاول وهلة ، وما كانت فى حاجة الى أن ترى المنديل ، والمرولة الحريرية السوداء ، واشرطة الخزامى ، حتى تدرك أنها مربية ((جارث)) الاسكتلندية العجوز ، ومديرة داره وصديقته .. اذ كانت نظرة واحدة على الوجه الوردى الحنون ، الرصين ، المغضن ـ وهى مجموعة جميلة من الظاهر التى تنم عن الصحة وتقدم العمر ـ كافية لكى تعرفها جين . وما كانت لتخطىء العينين الحادتين اللتين تخترقان المحجب وتنفذان الى الاعماق .. وقادت العجوز جين الى الحجرة التى اعدت لها ، وهى تتكلم طيلة الوقت ، فى محاولة رقيقة لتسرية الارتباك عنها ، وللتعبير عن ترحيبها الحار بمقدمها ، فى وقار لطيف ، دون ان تنسى سحابة الكمد التى كانت تخيم على القصر ، والتى أوجبت حضور ((جين)) . وكانت تناديها بالمرضة ((جراى)) فى آخر كل عبارة من حديثها ، بلكنة اسكتلندية تلوك وتدير حرف ((الراء)) ، مما فتن جين ، فتاقت الى أن تقول . ((ياللك من عجوز عزيزة !. كم أنا سعيدة وسأشعر بمتعة الاقامة فى هذه الدار معك !)) . ولكنهاتذكرت ان أية اشارة تدل على رفع الكلفة ، قد تقبل من النبيلة «جين شامبيون» ولكنها تعد من المرضة ((روزمارى)) نقصا فى الذوق وعدم مراعاة للاصول . ولذا تبعتها ـ فى انصياع ـ الى الحجرة البديعة التى أعدت لها . وأعجبت بالستائر الملونة ، وأجابت عن الاسئلة التى وجهت اليها عن رحلتها الليلية ، وأقرت بأنها تسر اذا استطاعت تناول افطارها ، وتسر أكثر لو استطاعت ان تحظى بحمام ممتع !.. حتى اذا اتمت الحمام والفطور ، وقفت بجانب نافذة حجرتها تتملى بدائع الطبيعة ، فى انتظار وصول طبيب القرية ، ليدعوها الى حجرة جارث ...

* * *

* وكانت قد ارتدت أحسن مالديها من ملابس المرضات : ثوبا أزرق ، وياقة وكمين من التيل ، ومرولة بيضاء بها ذات شريطين فوق الكتفين

وجبين واسعين .. كما وضعت فوق رأسها قلنسوة مناسبة ، كانت قد حصلت عليها من أحد المعاهد التى تدربت فيها . ولم تكن تعتزم أن تستمر فى ارتدائها فيما بعد ، ولكنها ـ فى ذلك الصباح بالذات ـ لم تغفل صغيرة ولا كبيرة مما يبعث أثرا طيبا فى نفس الدكتور ماكينزى عن مظهرها المهنى الكامل . واستشعرت وأجفة بأن ملبسها ـ المتناهى فى البساطة ـ انما كان يساعد على اظهار طولها ، بالرغم عن حذائيها ذوى الكعبين القصيرين والنعلين المطاطين اللذين لا يسمع لهما وقع .

ولم يسعها سوى أن تأمل ان يصح رأى دريك فيما سيكون من مسلك الدكتور ماكينزى معها !

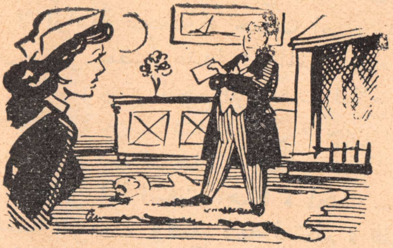
ولاحت لها عن بعد كبير ـ وعلى شريط الطريق الابيض الذى كان يصعد متعرجا من الوادى ـ مركبة خفيفة مرتفعة ((دوكار)) ، تخب مسرعة . وكان بها رجل جلس خلفه سائس ، فأيقنت من ان الساعة قد أزفت .. وجثت على ركبتيها ـ أمام النافذة ـ وراحت تدعو الله ان يهبها القوة والحكمة والشجاعة . ولم تعد تتبين شيئا البتة ، فقد أجهدت عقلها فى التفكير الطويل المضنى المستمر ، حتى تحولت كل الرؤى العقلية الى مناظر مهتزة مطموسة .. وخبت فى مخيلتها كل المعالم ، حتى وجه جارث المحبوب ، مع مابذلت من جهد جنونى لتستحضره على لوحة عقلها .. ولم يبق جليا واضحا أمامها سوى الواقع الذى كان أمامها ، وهو انها لن تلبث ـ بعد دقائق معدودة ـ ان تقاد الى الحجرة التى يرقد فيها فتاها ، فترى الوجه الذى لم تره منذ آن كانا واقفين على عتبة الهيكل .. ذلك الوجه الذى غاضت منه ـ رويدا ـ الثقة المغتبطة ، ليحل محلها جزع ، وقنوط باردا .. وتذكرت اذذاك الدعاء الحبيب: ((وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة وأنرها بعظمة مجدك)) ! ..

انها لن تلبث أن ترى ذلك الوجه العزيز .. أما هو فلن يرى وجهها ـ اذ فقد بصره ـ وانما سيسهل التغرير به فيعتقد بأنها شخص آخر !

ودارت المركبة مع آخر انحناء فى الطريق ، ثم اختفى عن بصرها فى طريقه الى مدخل القصر .. واذ ذاك نهضت ((جين)) ، ووقفت فى الانتظار وقد ذكرت فجأة جملتين من حديثها مع دريك اذ قالت له : ((هل سيكون لدى الشجاعة الكافية للقيام بذلك ؟)) . فأجابها دريك فى لهفة : ((اذا كنت تقدرين جيدا سعادته وسعادتك ، فيجب ان تتذرعى بالشجاعة !))

وسمعت طرقة على الباب ، فتقدمت اليه وفتحته ، واذا بسمسون واقفا عند المدخل ليقول : ((ان الدكتور ماكينزى فى المكتبة أيتها الممرضة ، ويود أن يراك)) . فأجابته الممرضة روزمارى جراى : ((اذن ، فتكرم وارشدنى الى المكتبة ياسيد سمسون !)) .

الفصل الثامن عشر



• **فوق** سجادة من جلد الدب ، وقف الدكتور روبرت ماكينزى وظهره متجه الى نار المدفأة ، وكان يعرف بين أصدقائه باسم الدكتور « روب » أو « روبى الكهل » ، تبعا لدرجة الود والالفة . وكان أول ما انطبع فى ذهن « جين » من صورته شكل رجل قصير القامة ، ضخم الجسم ، يرتدى صدرية من جلد كلب البحر – أكل الزمان عليها وشرب – ومعطفا خفيفا فضفاضا .. رجل له حركات نابوليونية ، وساقان نحيلتان طويلتان منفرجتان ، وذراعان معقودتان على صدره ، وكتفان معقوفتان الى أعلى ، تفيضان بالناظر الى أن يتوقع أن يصعد بصره الى وجه عاجى اللون ، وانف رومانى ، وفك ينم عن جلد ، وشفتين رقيقتين مضمومتين فى حزم وقوة . ولكن عينى « جين » شهدتا – بدلا من كل ذلك – وجها أحمر قد زركشه النمش ، وانفا أقنى معقوفا الى أعلى ، وذقنا أحمر مكتنزا ، وشاربين بلون الرمال ، متدليين الى أسفل . ولم يكن بين قسمات وجهه ما يجذب النظر سوى عينين حادتين زرقاوين ، اذا حدقتا متفرستين فى شخص ، أوشكتا أن تختفيا تحت ادغال حاجبين من شعر أحمر ، فلا

يبقى منهما سوى نقطتين صغيرتين من نور فيروزى .

ولم يمض على جين فى محضره الا دقيقتـان ، حتى أيقنت بأنه لا يعود يشعر بجسمه اذا ما شغل عقله ، مما يدفع بالجسم الى حركات لا ارادية عجيبة ، جعلت أصـدقاءه يتندرون قائلين : « ان روبى يمضغ عددا كبيرا من أقلام الكتابة ، بينما يفكر الدكتور ماكينزى فى أنجع الوصفات لعلاج مرضاه ! » ..

وكانت عيناه منصرفتين ــ عند دخول « جين » ــ الى خطاب منشور امامه ــ أدركت لتوها انه خطاب دريك ــ فلم ينظر اليها فورا .. **حتى اذا التفت أخيرا ، لمحت ــ بما لا يقبـل الشك ــ دهشة هزته . وفتح فمه ليتكلم ، فلم تتمالك جين أن تذكرت شكل احدى أسماك الزينة فى (أوفردين) ، عندما كانت تصعد الى سطح الماء كلمـا ألقت اليها الدوقة بفتات الخبز ! .. ثم أطبق فمه ثانية ، وعاد الى تلاوة خطاب دريك ، واذ ذاك شعرت « جين » كما لو أنها كانت لقمة ــ بل جملا ــ يعانى الطبيب الامرين لازدراده !**

وانتظرت فى صمت واحترام ، بينما كانت كلمـات دريك تمر بذهنها الموجس الحائر ، فتهدىء من ثائرته : « ان العقل الاسكتلندى يعمل وئيدا ، ولكن خطواته أكيدة . ولسوف يوقن الدكتور ماكينزى من اننى لا أجيد وصف النساء » .. واخيرا ، التفت اليها الرجل القصير ، وهو واقف على بساط المدفأة ، وعاد يحدق فى « جين » . وواسفاه ! .. لكم كان مضطرا الى أن يرفع عينيه عاليا ، لطولها ! .. ثم قال : « الممرضة .. ؟ » .

وبدا متسائلا ، بينما خطر لجين أن عينيه الغامضـتين كانتا أشبه بشظايا من الخزف الازرق المهشم ، على كوم من الدريس .. وبادرت قائلة فى استخذاء واحترام : « روزمارى جراى » ..

وخيل اليها أن الدوقة كانت خليقة بأن تطرق الارض بعصاها ــ لو أنهما كانا يقومان بتجربة تمثيلية للهواة فى (أوفردين) ــ وان تستحثهما على ان يسرعا فى الكلام ، ويدعا الابطاء !

وقال الدكتور روبرت ماكينزى : « آه ، فهمت ! » .. ثم حدق فى جانب من البساط ، فى ركن قصى من الحجرة .. وما لبث أن سار الى ذلك الركن ، والتقط قشة من مكنسة ، وجاء بها الى موقفه أمام المدفأة ، فأخذ يفحصها بدقة وعناية ، ثم وضع جزءا منها بين أسنانه ، وراح يقضمها .. وساءلت جين نفسها عما ينبغى أن تفعله أزاء اجتماع كهذا ، وأزاء طبيب لا يجلس ولا يدعو الممرضة الى أن تجلس .. وتمنت لو أنها كانت قد اهتدت برأى دريك فى ذلك الامر ، ولـكنه ما كان يملك أن يشير عليها برأى ، لانه اعتاد ان يكون اول ما يفعـل مع أية ممرضة ، هو أن يقول : « يا عزيزتى الممرضة فلانة .. تفضلى بالجلوس ، فان من كان عملهم يستلزم منهم الوقوف ، يجب أن ينتهزوا كل الفرص للجلوس والراحة ! »

غير أن الرجل البدين القصير – الواقف على بساط المدفأة – لم يكن دريك ، ولذا ظلت « جين » واقفة بانتباه ، ونظرها متجه الى القشة وهى تهتز وتتكسر وينقص طولها بوصـة فبوصة ، حتى اذا تلاشت ، عاد الطبيب الى الحديث ، قائلا : « اذن فقد جئت ، أيتها الممرضة جراى ؟ ! » . فقالت جين لنفسها : « أن عقل الاسكتلندى يعمل وئيدا ، حقا ! » .. ولكن سرها أن اشتمت من لهجته انه رضى عنها .. لقــد صدق دريك ! .. قد ارتاحت « جين » لانها لن تضطر الى مكاشفة هذا الرجل الصامت بأمر الخدعة التى ستمارس مع جارث .. ثم أجابته : « نعم يا سيدى ، لقد وصلت » . واعقب ذلك صمت آخر ، ظهرت خلاله قطعة أخرى من قش المكنسة ثم اختفت ، قبل أن يعود الدكتور ماكينزى الى الـكلام قائلا : « انى مسرور لوصولك يا ممرضة جراى ! » . فأجابته جين برصانة : « وانا مسرورة لاننى قد وصلت يا سـيدى » .. وخيل لها بأنها ستسمع صوت الدوقة وهى تصيح مازحة :

« ها .. ها ! » من جانب المسرح ، لان التمثيلية الهزلية كانت تسير بنجاح !

* * *

• **وفجأة** ، فطنت الى أن عقل الدكتور ماكينزى قد انصرف — فى الدقائق الأخيرة — الى شىء آخر ، وكأنها لم تكن كافية لان تملأ تفكيره .. وفى اللحظة التالية ، تحول اليها ، فاذا بحدقتين من الفيروز تومضان تحت حاجبين كثيفين ، وتستعرضانها بسرعة وتألق الانوار الكاشفة .. ثم بدأ الدكتور ماكينزى يتكلم بسرعة مدهشة ، وهو يلوك حرف الراء ويديره على لسانه : « افهم يا آنسة جراى أنك قادمة لتعالجى عقل المريض قبل جسمه ، ولست بحاجة الى أى ايضاح ، فقد تلقيت الايضاح من السيد « دريك براند » ، الذى أوحى بممرضة لملازمة المريض ، وتعاقد معك .. ولقد وافقت تمام الموافقة على توصيته ، واسمحى لى بأن اقول بأننى شديد الاعجاب بجوهرها ! »

وأومأت جين برأسها ، وهى تصور لنفسها ما كان خليقا بأن ينتاب الدوقة من قهقهة .. ياله من شخص لايطاق !.. لقد وجدت جين فرصة كى تفكر فى ذلك ، بينما سار الطبيب الى غطاء المائدة وانحنى فوقه فاحصا بقعة قديمة من الحبر . وجد بجوارها بقعة من شحم الشمع ، ازالها بأظافر ابهامه ، وحملها بعناية الى المدفأة ، فألقى بها فوق الفحم المحترق .. وأخذ يلاحظها باهتمام بالغ ، وهى تذوب ، ثم تشتعل وتتوهج . وعلى حين غرة ، قفز الى حيث وقفت جين ، وفاجأها وهى ترقبه مغيظة ، واختتم حديثه قائلا بهدوء : **« ومن ثم فاعتقد انه لم يبق لى مايقال عن العلاج سوى القليل ، يا آنسة جراى . فلا بد انك تلقيت تعليمات دقيقة من السير دريك شخصيا . ان أهم ماعلينا الآن هو أن نساعد المريض على أن يهتم بما حوله من دنيا ، فان أعظم اغراء يخشى منه على من يفقدون**

البصر فجأة ، هو أن يعتادوا أن يعيشوا بكل كيانهم فى عالم خاص .. عالم من الذكريات ، والتكهنات ، والتصورات الوهمية .. العالم الوحيد الذى يستطيعون ان يروه ، فى الواقع ! »

فبدرت من جين حركة تقدير واهتمام ، اذ وجدت أخيرا مايمكنها أن تتعلمه وتفيده من هذا الاسكتلندى القصير ، العجيب الاطوار .. بدلا من أن يوجه اهتمامه الى جمع الفضلات عن البساط ، ومحو بقع الشحم عن مفرش المائدة . فقالت : نعم .. أرجوأن تزيدنى معرفة ! » . فاستطرد الدكتور ماكينزى قائلا : هذه هى مشكلتنا الحالية مع السيد دالمين ، اذ لايبدو أن ثمة احتمالا أن نثير اهتمامه بالعالم المحيط به . فهو يرفض مقابلة الزائرين ، ولا يريد أن تتلى عليه خطاباته ، ان الساعات لتمضى دون أن ينبس بكلمة واحدة .. ومالم تسمعيه يقول شيئا لى أو لتابعه ، فلابد أن تحسبى أنك رزئت بمريض فقد القدرة على النطق ، كما فقد نعمة البصر .. فاذا أبدى رغبة فى أن يكلمنى على انفراد ، عندما نكون معه ، فلا تبارحى الحجرة بل انتقلى الى جوار المدفأة ، وابقى هناك ، لاننى أريد أن تسمعى الحديث ، حتى اذا أراد أن ينهض ويبذل أى جهد ، كانت لديه القدرة التامة على ذلك . فان أهم ناحية من واجبك يا ممرضة جراى ، هى معاونته يوما بعد يوم على استئناف الحياة .. صحيح أنها حياة رجل فقد بصره ، ولكن ثمة مايدعو الى أن تكون حياة بلا حركة . والآن وقد انتهى كل خطر من حدوث التهابات فى الجروح ، فله أن ينهض من فراشه ، وأن يتحرك ، وأن يتعلم كيف يهتدى الى طريقه بالصوت واللمس .. لقد كان فنانا فى مهنته ، ولن يرسم بعد الآن قط ، ولكن هناك مواهب أخرى قد تخلق لفطرته الفنانة منافذ معقولة ! »

ثم توقف فجأة ، وقد لمح بقعة أخرى من الشحم ، فسار الى المائدة ، **ولكنه قفز ملتفتا الى جين — فى اللحظة التالية — بسرعة البرق ، وتساءل : « أفكان يجيد العزف ؟ » . ولكن**

جين كانت قد أخذت حذرها من أية مباغتة ، ولو كانت عارضة ، فقالت : « ان السير دريك لم يذكر لى يا دكتور ماكينزى ما اذا كان السيد دالمين مولعا بالموسيقى او لم يكن». فاستأنف الطبيب الضئيل الجسم حركاته النابوليونية ، وقد وقف فى منتصف سجادة المدفأة ، وقال : « حسنا ، فلتكن مهمتك أن تتبينى ذلك .. وبهذه المناسبة ايتها الممرضة ، هل تجيدين العزف ؟ » . فقالت جين : « قليلا » . فقال الدكتور روب : « آه ، وهل نستطيع أن نقول بأنك تغنين قليلا ؟ » . فأومأت ايجابا .

ــ فى هذه الحال يا سيدتى العزيزة ، اترك لك اوامر صريحة بأن لا تغنى قليلا ، ولا تعزفى قليلا للسيد دالمين .. فاننا نحن المبصرين لا نكاد نطيق مايعرضه علينا « الذين يجيدون العزف قليلا » من عزفهم . وما يعيننا على الاحتمال الا اننا نستطيع أن نتلفت حولنا ، وان نفكر فى امور اخرى .. اما الاعمى الذى يملك روحا فنية مرهفة ، فان هذه التجربة قد تنتهى به الى الجنون . فيجب أن لا نجازف .. وانى لشديد الاسف لظهورى بهذا المظهر الجاف ، غير أن صالح المريض يجب أن يكون مقدما على كل اعتبار آخر .

وابتسمت جين ، وقد بدأت تشعر بميل الى الدكتور روب ، وقالت : « سأكون شديدة الحرص على تنفيذ ذلك ، فلن أعزف ولن أغنى للسيد دالمين ! » . فقال الدكتور ماكينزى : « والآن ، لابين لك ما يحق لك بالتأكيد ان تفعليه تدريجا .. قوديه الى البيانو ، واجلسيه هناك على مقعد يشعر فيه بأمان وطمأنينة ، وليس من مقاعد المعازف الصغيرة المتأرجحة . وضعى علامة على المفاتيح التى يستطيع أن يوقع بها طبقة « دو » الوسطى ، ثم دعيه يفرج عن روحه الحبيسة ، ويرسم صورا بالصوت . ولسوف ترين أن هذا سرعان ما سيسعده لساعات طويلة .. واذا كان موسيقيا بارعا ، كما يتبين من هذا

البيانو الكبير ، فانه سيبدأ هذه الهواية لفوره ، قبل أن يضطر الى ان يحمل هم تعلم طريقة « برايل » أو غيرها من اساليب تعليم العميان .. ولكن عليك ان تستنبطي طريقة سهلة لارشاده .. حفرة صغيرة فى الاطار الخشبى الذى يقع تحت المفاتيح ، يتمكن بها من العزف مباشرة — دون تردد أو مضايقة — على طبقة « دو » الوسطى .. ولا داعى — بعد ذلك — لباقى النغمات ، فهذا غاية ما سيتطلبه من ابصار ، اذا ما جلس الى البيانو ! .. ها ، ها ! هذا درس لا بأس به من اسكتلندى .. أليس كذلك يا ممرضة جراى ؟ »

لم تقو جين على الضحك ، وان خيل اليها — على هامش ذهنها — انها تسمع ضحكات وتصفيقا من « الدوقة » .. فما كان الامر دعابة بالنسبة لجين ، اذ تصورت « جارث » الحبيب الاعمى ، جالسا الى البيانو ، ورأسه الغالى الجميل منحن على مفاتيح البيانو ، وأصابعه تتحسس باحثة عن تلك الحفرة الصغيرة التى ستحدثها له تحت « دو » الوسطى .. واشمأزت من ذلك الفرد الذى يتفكه بعمى جارث .. ورن على هامش ذهنها صوت « تومى » — الببغاء — وهو يلاحق الدوقة مصفقا بجناحيه ، متراقصا فوق أرجوحته ، صارخا : « أركله بعيدا ! اقفل فمه ! »

وعلى غرة ، قال لها الدكتور ماكينزى : « أما ماينلو ذلك أهمية — يا ممرضة جراى — فهو ان أقدمك الى المريض ! » . وعند ذلك احست « جين » بالدم ينضب تدريجا من وجهها ، ليتجمع فى قلبها محدثا وجيبا عنيفا . ولكنها تمالكت جأشها ، وانتظرت فى صمت . بينما دق الدكتور ماكينزى الجرس ، حتى اذا حضر « سمسون » ، قال له : « احضر قنينة من « الشيرى » ، وقدحا ، وقطعتين من البسكويت ! » . فأسرع سمسون ليلبى طلبه ، بينما قالت جين فى نفسها : « يا له من

حيوان صغير ! .. ألم تتذكر هذا الا فى الساعة الحادية عشرة ؟ »

ووقف الدكتور « روب » فى انتظار عودة سمسون ، وهو يشد شاربيه الاحمرين ويقضمهما – فى غيظ – وهو يسدد النظر خلال النافذة ، الى الخارج . وما لبث أن عاد سمسون فوضع صحفة على المائدة ، ثم خرج فى هدوء ، وأغلق الباب خلفه . فملأ الدكتور « روب » القدح بالشيرى ، وسحب مقعدا الى جوار المنضدة ، قائلا : « والآن أيتها الممرضة ، اجلسى واشربى هذه الكأس ، وتناولى معها قطعة من البسكويت ! » . فقالت جين معتذرة : « ولكننى – فى الواقع – يا دكتور .. » فأجابها الدكتور روب : « لا شك عندى انك .. لا سيما فى الساعة الحادية عشرة صباحا . ولكنك ستفعلين ذلك اليوم ، فلا تضيعى الوقت فى الجدل .. لقد قضيت فى السفر ليلة طويلة ، وستصعدين الآن الى الطابق الاعلى لتشهدى منظرا من أقسى المناظر على الاعصاب والحواس .

وقد قضيت معى وقتا طويلا فى حديث مرهق ، تحمدين السماء لانتهائه . ولكنك ستحمدينها فى حرارة أشد ، حين تشربين قدح الشيرى ، فقد مضى عليك ثلاث وعشرون دقيقة ونصف الدقيقة وانت واقفة امامى ، اذ ان من عادتى أن أتكلم واقفا ، وافضل دائما أن يظل السامعون وقوفا ، ولا أستطيع أن احدث الناس وهم يضطجعون حولى . على أنك ستصعدين فى خطى أكثر ثباتا – أيتها الممرضة روزمارى جراى – اذا جلست الى هذه المنضدة خمس دقائق ! »

وأطاعت جين ، متأثرة ، وهى فى خجل من نفسها ، فقد اكتشفت أخيرا ان تحت هذه الصدرية العتيقة – المصنوعة من جلد كلب البحر – قلبا رقيقا مدركا للأمور ، وذكاء وتفهما للناس ، رغم المظهر المثير للاعصاب ، الداعى للاستجهان .

وبينما كانت تشرب « الشيرى » وتأكل البسكويت ، عكف

الدكتور « روب » على عملية جديدة ـ فى الناحية الاخرى من الحجرة ـ هى تلميع زجاج النافذة بمنديله الحريرى ، وهو يغمغم طول الوقت بصوت غريب يشبه طنين النحلة فوق الزجاج . وبدا كما لو كان قد نسى وجودها . ولكنها لم تكد تضع القدح على المنضدة ، حتى استدار لها ، واجتاز الحجرة حتى وصل اليها ، ووضع يده فوق كتفها قائلا : « والآن أيتها الممرضة ، اتبعينى الى فوق .. واحرصى ـ فى البداية ـ على أن تكونى قليلة الكلام قدر المستطاع . **واذكرى ان كل صوت جديد يتسلل الى الاعماق الساكنة فى ذلك الظلام الدامس ، يسبب المريض عذابا من جراء الحيرة والتأثير ..** تكلمى قليلا ، واخفضى صوتك .. والله القدير يهبك حصافة وحكمة!»

وقد بدا على الرجل ـ ذى القوام الضئيل العجيب ـ اعتزاز بمعرفته وقوته ، وهو يتقدم « جين » صاعدا درجات السلم . وبينما كانت تتبعه ، أيقنت تماما من أن روحها تستند الى روحه ، واحست بقوة ترفعها وتعينها . **ومع ان الجملة التى اختتم بها حديثه كانت من التعبيرات القديمة ، ألا أنها ـ كدعاء ـ أنعشت نفسها .. « والله القدير يهبك حصافة وحكمة ! » .. هكذا قال ، وهو لا يدرك مدى حاجتها الشديدة الى هذه الكلمات ! .. ورن فى مسمعها ـ فى تلك اللحظة ـ صوت آخر ، تردد بين سراديب الذاكرة مع نغم الارغن ، فخفف عنها اضطرابها : « وحيث تكون مرشدنا .. فلن يكون ثمة مرض »!..**
وبخطى ثابتة ـ ولكنها غير مسموعة الوقع ـ سارت جين خلف الدكتور ماكينزى الى الحجرة التى كان يرقد فيها جارث .. أعمى ، مشوها ، لا حول له ولا قوة !

الفصل التاسع عشر



◆ رأس أسود الشعر ، فوق الوسادة ! ٠٠ هـذا كل ما رأته جين - فى بادىء الأمر - تحت ضوء الشمس الساطع ٠٠ ولسبب ما كانت جين تتوقع أن ترى المريض فى حجرة مظلمة ، مغلقة النوافذ ٠ وفاتها أن الظلمة والضياء كانا سواء لدى المريض المسكين فلم تكن ثمة حاجة الى حجب نور الشمس عن عينيه بما فيه من شفاء ، وتطهير ، وتقوية ٠ وكان قد طلب نقل سريره الى ركن من الحجرة يبعد عن البـاب والمدفأة والنوافذ ٠٠ ويلاصق جانبه الأيسر الجدار ، حتى يسهل عليه أن يتلمس الحائط بيده ، وأن يلوذ به ، ويطمئن الى أنه بمنأى عن الأعين المتطفلة التى لم يكن يراها ! ٠٠ وعلى هذا الوضع كان راقدا ، فلم يلتفت نحو جين والدكتور ماكينزى حين دخلا !

لا شىء سوى الرأس الأسود العزيز ، فوق الوسادة ! ٠٠ هـذا كل ما رأته « جين » ، فى بادىء الأمر ٠٠ ثم تحركت ذراعه اليمنى فى كم ثوب للنوم من الحرير الأرزق ، وامتدت خلفه قليلا وهو راقد على جانبه الأيسر ، واستلقت اليد النحيلة البيضاء فوق غطاء الفراش فى عجز واسترخاء ٠٠ فعقدت جين يديها خلفها ، وقد خالجها حافز قوى كان يدفعها الى أن تسقط على ركبتيها بجوار فراشه وتتناول يده الضعيفة الهزيلة بين يديها ، وتغمرها بالقبلات ٠ آه ، من المؤكد - والمؤكد جـدا - أن يتحرك الرأس الأسـود - اذ ذاك - نحوها ، وبدلا من أن يلوذ الوجه - الذى فقد ابصاره - بالجدار الأصم ، فانه سيختفى فى الحنان الفياض بين ذراعيها ٠ غير أن صوت « دريك » المنذر رن فى أذنيها ، فى رصانة وحزم : « اذا كنت تقـدرين قيمة سعادتك الدائمة وسعادته ٠٠! » ٠ لذلك سارعت الى عقد يديها خلفها ٠

واقترب الدكتور ماكينزى من فراش المريض ، ووضع يده على كتف جارث ،

واخذ يكلمه فى بطء وهدوء لم تكن جين تتصور أن يصدرا عن الرجل الذى هزها بأسئلته وتعليقاته وأوامره ، خلال نصف الساعة الأخير : « سعدت صباحا يا سيد دالمين ، لقد أبلغنى « سمسون » انك نعمت بليلة رائعة ، هى خير لياليك حتى الآن ، وهذا أمر طيب ! ٠٠ لابد أنك ارتحت اذ تخلصت من من « جونسون » مع أنه كان كفءا ، وعدت الى رعاية تابعك الخاص ٠ فان المرضين المحترفين لا يقنعون بعمل ما ، وانما يسعون دائما الى أن يعملوا ما يزيد على الكفاية ٠ وكثيرا ما تكون هذه المغالاة مدعاة لضجر المريض !٠٠ على أننى أتيت لك اليوم بشخص على أتم أهبة للقيام بكل ما تحتاج اليه ، ولن يضايقك اطلاقا بالسعى الى عمل شئ يتجاوز رغبتك٠٠انها الممرضة « روزمارى جراى » التى اختارها لك «السير دريك براند» ، وأعتقد أنها على استعداد لأن تكون مرافقة ، وسكرتيرة ، وقارئة ، وكل ما تحتاج اليه بل انها ستكون ـ فى الواقع ـ عينين جديدتين لك ـ يا سيد دالمين ـ وعقل راجح ، وقلب نسوى رقيق عطوف ، يوجه ذلك العقل ويسيطر عليه ٠ لقد وصلت الممرضة « روزمارى جراى » هذا الصباح ياسيد دالمين ! »

ولم يجب دالمين ، ولكن يده امتدت الى الحائط تتحسسه وتتشبث به ٠ ثم تراخت وسقطت عنه ٠ وشعرت « جين » بأنها لا تقوى على أن تكون الممرضة « روزمارى جراى » ولم تعد تتوق الى شئ اللهم الا تجنب أن يتضايق المريض بالحديث عن هذه المرأة ٠٠ الممرضة ٠ ولاح لها كل شئ ـ فى تلك اللحظة ـ كأنه لا يتعلق بشخصها أو به ! ٠٠ وعاد الدكتور ماكينزى الى الحديث قائلا : « الممرضة روزمارى جراى موجودة فى الحجرة الآن ، يا سيد دالمين » ٠ فاذا شهامة « جارث » الغريزية تصارع الظلام ٠ ولم يحرك رأسه ، غير أن يده اليمنى ارتفعت مشيرة بتحية خفيفة ، وقال بصوت خافت ، كأنما كان ينبعث من بعيد : « كيف حالك ؟ ٠٠ أعتقد بأن مقدمك كان كرما بالغا منك ٠ أرجو أن تكونى قد نعمت برحلة مريحة ! » ٠٠ وتحركت شفتا جين ، ولكن الصوت أبى أن ينبعث ، فسارع الدكتور « روب » بالاجابة ، دون أن ينظر اليها : « لقد نعمت الآنسة جراى برحلة مريحة جدا ، وأنها لتبدو نشيطة منشرحة فى هذا الصباح ، وكأنها قضت الليلة فى فراشها ٠ وها أنذا أراها شابة هادئة ، وديعة ! » ٠ فقال جارث والتعب يثقل صوته : « أرجو ان توفر لها مدبرة الدار كل ما يلزم لراحتها ، فتكرم بأن تأمر بذلك ! »

وأدار ظهره وازداد اقترابا من الحائط ، وكان هذا ايذانا يلزم بانتهاء الحديث ٠ فراح الدكتور « روب » يعض شاربيه ، وهو يحملق صامتا فى الكتف المكسوة بالحرير الأزرق ، ثم استدار الى « جين » وقال : « تعالى معى

الى النافذة أيتها المرضة جراى ٠٠ أريد أن أريك مقعدا خاصا ، حصلنا عليه للسيد دالمين ، وسيحظى فيه براحة تامة ، حين يشعر برغبة فى الجلوس ٠٠ انظرى ، هذا مسند متحرك لاراحة الرأس - عند اللزوم - وهـذه السنادات السنادات العديدة يمكن ادارتها فى أى وضع بمجرد اللمس ٠ اننى أراه بديعا، وقد وافق عليه السير دريك ٠٠ هل رأيت مثله من قبل يا آنسة جراى ؟ » ٠

فأجابته جين : « عندنا مثله فى المستشفى ، ولكنه لم يستكمل كل هذه المعدات » ٠

وفى سكون الحجرة المليئة بأشعة الشمس ، انبعث من الفراش صوت مفاجىء جعلهما يجفلان ٠٠ صوت أشبه بصرخة تائه فى هاوية من الظلام ، ولكنه كان ينطوى على رجاء متلهف : « من هنا فى الحجرة ؟ ٠٠ وكان وجه جارث دالمين لا يزال متجها الى الحائط ، ولكنه رفع جسمه متكئا على مرفقه الأيسر ، فى حركة من يرهف السمع ٠ فأجابه الدكتور ما كينزى : « ما من أحد بالحجرة - يا سيد دالمين - سواى أنا والمرضة جراى » ٠ فأجابه جارث بحدة : « بل ان هناك شخصا آخر فى الحجرة ، فكيف تجرؤ على أن تكذب على ؟ ٠٠ من كان يتكلم ؟ » ٠ واذ ذاك اقتربت « جين » من فراشه مسرعة ، ويداها ترتعشان ، وقالت له بصوت سيطرت عليه تماما : « لقـد كنت أنا المتكلمة يا سيدى ٠٠ أنا المرضة روزمارى جراى ٠٠ وأعتقد أننى أعرف السبب الذى من أجله أدهشك صوتى ، فقد أنذرنى الدكتور براند بذلك ، وقال ان ليس لى أن أدهش اذا أنت شعرت بشىء عجيب بين صوتى وصوت صديق لك وله ٠٠ وقال انه كثيرا ما لاحظ ذلك ! »

وبقى جارث جامدا فى عماه ، يصغى ويفكر ٠ وأخيرا سألها بتؤدة : « أقال لك صوت من ؟ » ٠ فأجابت : « نعم يا سيدى ، لقد سألته فأجابنى بأنه صوت الآنسة شامبيون ! » ٠ وسقط رأس « جارث » على الوسادة - ثم قال - دون أن يدير وجهه ، بصوت كانت جين تدرك أنه بمثابة ابتسامة ارتسمت على الوجه الحبيب المتوارى : « يجب أن تصفحى عنى يا آنسة جراى ، لما انتابنى من دهشة ، ولانفعالى السخيف الذى لا يغتفر ٠٠ ولكنك - ولابد تعلمين - بأن العمى تجربة لا تزال جديدة على ، وكل صوت جديد ينفذ خلال الستار الأسود لهذا الليل الدائم يؤدى الى تأثير يفوق كل ما يتصوره المتكلم ٠ ان الشبه بين صوتك وصوت السيدة التى ذكرها السير دريك شديد جدا ، حتى اننى لا أكاد أصدق أنها ليست بالحجرة ، رغم علمى بأنها - فى هذه اللحظة - فى (مصر) ٠ فضلا عن أن وجودها فى هذه الحجرة ، من أبعد الأمور فى الدنيا احتمالا ٠ ومن ثم فاننى مدين لك وللدكتور ماكينزى باعتذار متواضع لانفعالى وعدم تصديقى ! » ٠٠ ثم مد يده اليمنى الى « جين » وابهامه الى أعلى ٠ فعقدت « جين » يديهـا

المرتعشتين خلفها . وانبعث صوت الدكتور ماكينزى الخشن ، وهو لا يزال فى النافذة : « والآن أيتها الممرضة ، تفضلى فان لدى بعض التفصيلات التى أود أن أشرحها لك هنا ! »

* * *

◆ وأخذا يتحدثان برهة دون أن يجدا مقاطعة من جارث ، واخيرا ، أردف الدكتور « روب » قائلا : « أعتقد أنه قد حان الوقت لذهابى » . فأجابه جارث: « أريد أن أحدثك على انفراد لبضع دقائق ، يادكتور » .. وقالت جين : « سأنتظرك فى الطابق الأسفل يا دكتور ماكينزى » . وتحركت متجهة الى الباب ، واذا بنظرة آمرة من الدكتور « روب » ، فتوقفت ، ثم تحولت - فى صمت - الى المدفأة . ولم تكن لتدرك فى هذه اللحظة دافعا لهذا التحايل ، بل انه أغضبها . ولكن نابليون منطقة المستنقعات ، ذا الجسم الضئيل ، والوجه المكسو بالنمش ، لم يكن بالرجل الذى يسهل عصيانه .. وسار هو نحو الباب وفتحه ، ثم أغلقه ، وعاد الى جانب الفراش فسحب مقعدا ، وجلس وهو يقول : « وبعد ، يا سيد دالمين ؟ » . فاعتدل جارث جالسا فى فراشه ، وواجهه فى لهفة .. واذ ذاك رأت جين وجهه لأول مرة ، بينما شرع يقول : « حدثنى عن هذه الممرضة يا دكتور .. صفها لى ! » .

وكان التوتر فى صوته وحركته بالغا، وقد عقد يديه أمامه ، وكأنه يستجدى الابصار خلال عينى شخص آخر . وظهر وجهه النحيل الأبيض مثقلا بالعذاب ، وعليه أمارات اللهفة والجمود . وقال : « صفها لى - يادكتور - هذه الممرضة روزمارى جراى ، كما تدعوها ! » . فأجابه الدكتور « روب » فى حزم : « ولكنه ليس اسما منتحلا من ابتكارى ياسيدى العزيز .. انه اسم الشابة ، وأنه لاسم بديع .. روزمارى زهرة الذكريات .. أليس هذا من أقوال شكسبير ؟ » . فألح عليه جارث - للمرة الثالثة - قائلا : «صفها لى!»

ونظر الدكتور ماكينزى اليها ، ولكنها كانت قد أدارت ظهرها لتخفى الدموع التى انهمرت على وجنتيها .. أواه ، ياجارث !.. يا جارث الجميل ذا العينين البراقتين !.. وأخرج الدكتور ماكينزى خطاب الدكتور دريك من جيبه وتأمله ، ثم قال فى بطء : « حسنا ، انها حسناء رقيقة ، صغيرة الحجم .. وهى من النساء الرشيقات اللاتى تحب دائما وجودهن بجوارك ، لو قدر لك أن تراها » . فسأله جارث : « أهى قمحية اللون ، أم شقراء ؟ » . فنظر الطبيب الى ما كان بوسع بصره أن يصل اليه من وجنات جين ، والى اليدين السمراوين الممسكتين برف المدفأة ، وقال فى غير تردد : «شقراء !» .

وجفلت « جين » ، ونظرت حولها ، وهى تعجب مما دفع هذا الرجل الصغير الى الكذب ، من تلقاء نفسه !

وهنا عاد الصوت الخافت ، المثقل بالتعب ، سـائلا : « وشعرها ؟ » .

فأجابه الدكتور « روب » فى كذب متعمد : « أما شعرها فهو مندس كله تحت قلنسوتها الصغيرة ، ولولا ذلك لأمكننى أن أجزم فى وصـفه بأنه من ذلك النوع المتهدل الهش الحريرى الملمس ، الذى يكمل آخر معالم الجمال للمرأة الرقيقة الحسناء . فاستلقى جارث على وسادته لاهثا وضغط بيديه على عينيه غير المبصرتين ، ثم قال : « اننى أعلم قدر ما أكبدك اياه من متاعب يادكتور ، ولابد انك ترانى اليوم أحمق .. ولكن ، اذا كنت لا تريد أن أفقد عقلى مع بصرى ، فاصرف هذه الفتاة من هنا .. لا تدعها تلج حجرتى مرة أخرى ! »



واذ ذاك أجابه الدكتور ماكينزى فى تؤدة وصبر : « والآن ياسيد دالمين ، دعنا نفكر فى الأمر ، ولنضع فى اعتبارنا أنك لا تملك أى اعتراض على هذه الشابة ، سوى تشابه عارض بين صوتها وصوت احدى صديقاتك ، التى توجد الآن فى بلاد نائية .. ألم تكن تلك السـيدة شخصا مرغوبا فيـه ؟ » .

فأرسل جارث فجأة ضـحكة مريرة ، كادت أن تكون زفرة منتحبة ، وقال : « أواه .. بل كانت شخصا مرغوبا فيه جدا » . فأعاد الدكتور روب ترديد الشطرة الشعرية : « روزمارى زهرة الذكريات ! » . ثم أردف : « اذن فلماذا لا تقوم الممرضة روزمارى جراى باسترواح الذكريات المنعشـة .. ثم ان صوتها يبدو لى نسويا ، عذبا ، رقيقا . وهو شىء يحمد فى هذه الأيام التى يتكلم فيها كثير من النساء بأصوات ترهب الغربان ، أو كأنها أحجار تطرق اناء من الصفيح ! »

وقال جارث فى اعياء : « ولـكن ، ألا تفهم يادكتـور ان مجرد الذكرى

والتشابه هما اللذان لا أقوى على احتمالهمـــا وأنا أعمى ؟٠٠ ليس لدى أى اعتراض على صـــوتها ، والله أعلم !٠٠ ولكننى أؤكد لك اننى حين سمعت صوتها لأول وهلة ، اعتقدت انها ٠٠ انهـا كانت هى ٠٠ الأخرى ٠٠ وقد جاءت لى ٠٠ هنا ٠٠ و ٠٠ ! » ٠ وسكت فجأة ، فأخذ الدكتـور « روب » يجادله قائلا : « السيدة المرغوبة ؟٠٠ آه ، حسنا ياسيد دالمين ٠٠ ان السير دريك يقول ان خير ما يحدث الآن ، هو أن تبدو منك رغبة الى اســتقبال الزائرين ٠٠ ويخيل الى بأن كثيرا من أصدقائك على استعداد ، بل تتملكهم لهفة بالغة ، للحضور من أقصى جهة كانت ، لكى يمـدوا لك يد المعونة أو يبعثوا فيك الابتهاج ٠ فلم لا تسمح لى باستدعاء تلك السيدة ؟ اننى لا أشك مطلقا فى أنهــا ستحضر ، حتى اذا جاءت بنفسـها ، وجلست الى جانبك ، وتحدثت اليك ، فلن يعود صـوت الممرضة يزعجك ! » ٠ واسـتوى جارث جالسا ـ من جديد ـ وعلى وجهه أمارات الاعتراض الشديد ٠٠ والتفتت اليه جين ـ من مكانها على بساط المدفأة ـ وراحت ترقبه ٠

وقال جارث : « كلا يادكتور ٠٠ يا الهى ، كلا !٠٠ انها آخر شخص ـ فى العالم بأسره ـ أقبل دخوله الى هذه الحجرة ! » ٠ فانحنى الدكتور ماكينزى ليفحص بعناية بقعة دقيقة على غطاء الفراش ، ثم ســأل بصوت منخفض : « ولماذا ؟ » ٠ فأجابه جارث : « لأن تلك السيدة المرغوبة ـ كما تدعوها بحق ـ لها قلب نبيل ، كريم ، قد يفيض اشفاقا لعماى ، ولست أقبل الاشــفاق منها ، لأنه سيكون آخر قشة فوق صليبى الثقيل ٠ فى استطاعتى يادكتور أن أحمل صليبى ، وآمل أن أستطيع ـ على مر الزمن ـ أن أحمله فى رجولة، حتى يأمرنى خالقى بأن أنزله عن كاهلى ٠٠ أما هــذه القشة الأخيرة ـ أعنى اشفاقها ـ فانها كفيلة بأن تقصم ظهرى ، فأتردى فى الظلام ، ولا تقوم لى ـ بعد ذلك ـ قائمة ! » ٠٠ فقال الدكتور روب بلطف : « آه ، فهمت يافتاى المسكين !٠٠ اذن فتلك السيدة المرغوبة يجب أن لا تحضر الى هنا ؟ » ٠ ولاذ بالصمت بضع دقائق ، ثم دفع مقعده الى الوراء ، ووقف قائلا : « وعلى كل حال ، فسوف أركن اليك ـ ياسيد دالمين ـ فى أن تكون لين العريكة مــع الممرضة « روزمارى جراى » ، ولا تجعل مهمتها شاقة جدا ٠ فلست أجرؤ على اعادتها من حيث أتت ، اذ اختارها لك الدكتور براند ٠٠ ثم ، تصور الضربة القاسية التى تصيبها فى مهنتها ٠٠ فكر فى ذلك أيها الرجل !٠٠ كيف تطرد باشارة عابرة ، ولما تقض أكثر من خمس دقائق فى حجرة مريضها ، لأن ٠٠ يا لله !٠٠ لأن صوتها أثار جنونه !٠٠ يا للطفلة المسكينة !٠٠ ياله من سبب يثبت فى التقرير الذى نرفعه عنها !٠٠ تصور موقفهــا أمام رئيستها !٠٠

أليس فى مقدورك أن تكون كريمـــا ، وان تتخلى عن الأنانية ، بحيث تواجه أية تجربة قد تلقاها من جراء هذه المصادفة التافهة ؟ »

وتردد جارث ، ثم قال أخيرا : « هل تقسم يادكتور ماكينزى بأن الوصف الذى ذكرته لى ، لهذه الشابة ، كان دقيقا فى جميع تفصيلاته ؟ » ٠ فرد الدكتور « روب » بأن ردد آية من الـكتاب المقدس : « لا تحلف باسم الرب الهك ! » ٠ وأردف قائلا : « لقد كانت لى أم نقية يافتاى ٠ ثم ان بوسعى أن أتصرف خيرا من ذلك ، فأطلعك على سر ٠٠ لقد كنت أقرأ عليك الوصف من خطاب السير دريك براند ، فأنا لست خبيرا بالنساء ، اذ اعتقدت أن أعتبر الكلاب والخيل أقل خداعا وأوفى معاشرة من النساء ٠وعلى ذلك ، فأنا لا أطمئن كثيرا الى نظرى الشخصى ، ولذا فضلت أن أعطيك وصف السير دريك بنصه٠٠ ولسوف تجده خير من يحكم على النساء !٠٠ أرأيت الليدى براند ؟ » ٠ فقال « جارث » فى حنين ، وقد علت وجنتيه النحيلتين حمرة خفيفة : « أجل رأيتها ٠٠ بل اننى رسمت صورتها ٠٠ يالها من صـــورة !٠٠ كانت تقف بجوار منضدة ، وأشعة الشمس تكسو شعرها ، وهى تنسق النرجس الذهبى فى اناء فينيسى أثرى ٠٠ أرأيت تلك اللوحة يادكتور ، فى المعرض الحديث ، منذ عامين ؟ » ٠فأجابه الدكتور « روب » :« كلا ، فما وجدت نفسى مرة بين المتفرجين فى المعارض قديمها أو حديثها ، غير انى (ثم ألقى نظرة استفسار على جين ، فأومأت اليه بالموافقة) قد علمت من المرضة جراى انها رأت الصورة ! »

وهتف « جارث » مغتبطا : « أحقا ؟! ٠٠ ان المرء لا يفكر فى وجود علاقة بين الممرضات ومعارض الصور ، عادة ! » ٠ فأجابه الدكتور روب : « لست أدرى لذلك سـببا ، اذ لابد لهن من ارتياد أى مكان للترفيه عن أنفسهن ٠٠ انهن لا يستطعن أن يلصقن آنوفهن بنوافذ الحوانيت طوال فصول السنة ، فلماذا لا يذهبن الى معارض الصور لالقاء نظرة على صورك ؟٠٠ ثم ان الآنسة روزمارى شابة ، ومن طراز ممتاز ، ويؤكد لى السير دريك انها سيدة راقية — من حيث الأصل — واسعة الاطلاع ، ذكية ٠٠ وعليه يابنى ، فماذا تراك صانعا ؟ » ٠ فصمت جارث مفكرا ، بينما أشاحت « جين » بوجهها ، وقبضت بيديها على رف المدفأة ، وقد وجدت نفسها معلقة فى ميزان القدر ، فى تلك الدقيقة الصامتة !

* * *

◆ وأخيرا ، تكلم جارث فى تؤدة وتردد : « ليتنى أقوى على أن أفصل بين الصوت والـ ٠٠٠ والشخصية الأخرى ٠ولو أننى استطعت أن أتأكد تماما من انها — رغم التشابه غير العادى فى الصوت — ليست ٠٠٠ » وتوقف قليلا ،

فوجف قلب جين .. ترى هل سيعقب ذلك بوصف لها ؟.. ولـكنه أردف قائلا : « لا تشبه فى شىء الوجه والقوام المنطبعين فى ذاكرتى مرتبطين بهذا الصوت » . فأجابه الدكتور روب : « أرى أن بوسعنا أن ندبر هذا .. فان هؤلاء الممرضات يعلمن أن لابد من ادخال السرور على مرضـاهن . فلندع الشابة الممرضة الى هنا ، ولنأمرها بأن تجثو بجوار فراشك .. باركك الله ! .. انها لن تتردد - من أجلى - فى أن تقوم بأى دور ! ولك أن تمر بيدك على وجهها وشعرها ، وحول خصرها النحيل ، لتتأكد باللمس أية فتاة صغيرة القد ، رشيقة هى .. فى ردائها الأزرق ومريلتها البيضاء ! »



فانفجر جارث ضاحكا ، وقد رن فى صوته نغم لم يصدر عنه من أمد طويل . وقال : « انه أبعد الاقتراحات عن العقل .. يا للسماء ! مالى قد جعلت من نفسى حمارا !.. لقد بدأت أفكر فى اننى قد أسرفت فى الاهتمام بالتشابه ، ولن ألبث أن أنساه بعد يوم أو يومين . والآن ، اسمع يادكتور !.. اذا كانت قد أعجبت حقا بتلك اللوحة .. ولـكن ، الى أين أنت ذاهب ؟ » . فأجابه الدكتور روب : « انما كنت أحرك مقعدا الى جوار المدفأة ، واستبحت لنفسى جرعة ماء . أن سمعك يزداد ارهافا بدرجة غير عادية ،، فى الواقع !. هاأنذا مصغ اليك ، فماذا كنت تقول عن اللوحة ؟ »

- أردت أن أقول ان الممرضة .. اذا كانت تهتم حقا بالصورة التى رسمتها لليدى براند ، فلدى فى المرسم لوحات قد يهمها أن تراها . ولو أنها أحضرتها الى هنا ، ووصفتها لى ، لاستطعت أن أشرح لها كل لوحة .. ولكن يادكتور .. اننى لا أستسيغ أن تروح الشابات الأنيقات ويغـدون الى حجرتى وأنا راقد فى فراشى ، فلمـاذا لا أنهض وأختبر ذلك المقعد الذى أحضرته لى .. اطلب من سمسون أن يعد لى سترة حجرة النوم البنية اللون ، وربطة العنق البرتقالية اللون .. يا للسماء !.. ما أعظمهـا من نعمة أن نحتفظ بذكرى

الألوان وتناسقها !.. تصور حال أولئك الذين ولدوا مكفوفى البصر !.. تكرم فسل الآنسة جراى ان تخرج للتريض فى غابة الصنوبر ، أو برك المياه .. أو أن تستخدم السيارة ، أو أن تخلد الى الراحة ، أو أن تعمل أى شىء يروق لها .. أبلغها بأن تعتبر نفسها فى دارها ، ولكنها يجب أن لا تحضر الى هنا - بأية حال من الأحوال - قبل أن يعلن سمسون اننى متأهب لمقابلتها ! » . فرد الدكتور « روب » ، وقد صار صوته أجش فجأة : « يمكنك أن تطمئن الى أن الممرضة جراى تكتم كل سر . أما عن مبارحتك الفراش يابنى ، فيجب أن لا تتعجل كثيرا فلن تجد كثير قوة ، ولو انه من واجبى أن أبلغك انه لم يعد هناك مايستدعى بقاءك فى الفراش ، اذا كانت لديك رغبة فى النهوض »

واختتم جارث الحديث قائلا ، وهو يتحسس يد الطبيب : « مع السلامة يادكتور ! » . ثم أردف قائلا : « لكم يؤلمنى اننى لن أقوى على أن أتقدم لرسم السيدة ماكينزى ! » . فأجابه الدكتور « روب » بكل رقة : « لو أمكنك ذلك ، لرسمتها بشعر أشعث ، وأربعة مخالب ، وألطف عينين كهرمانيتين فى العالم .. وخلال هاتين العينين يطل أوفى القلوب - التى خلقها الله - وأشدها حبا وأمانة . فهى لم تتخل يوما - طيلة السنين التى عاشر فيها كل منا صاحبه - عن استقبالى بترحاب ، ولم تعارضنى قط ، ولا عملت على أن تكون لها الكلمة الأخيرة ، ولا أزعجتنى بطلب ثمن قبعة !.. يالها من امرأة !.. حسنا ، استودعك الله يابنى ، وليباركك الاله القدير !.. أوصيك بأن تحترس لنفسك جيدا ، ولا يدهشنك أن أعود اليك فى رجوعى من جولتى ، لأستوثق من رأيك عن هذا المقعد ! »

وفتح الدكتور ماكينزى الباب ، فتسللت « جين » الى الخارج قبله ، ثم تبعها وهو يشير لها بأن تسبقه الى الطابق الأسفل . وفى المكتبة تحولت جين ووقفت أمامه ، فأجلسها فى مقعد بكل هدوء ، ووقف أمامها والدمع يترقرق فى عينيه الزرقاوين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، ثم قال لها : « لكم أشعر - ياعزيزتى - بأننى على شىء من الغباء والخبل ، فاغفرى لى . ما كان فى حسبانى أن أضعك فى مثل هذا المأزق . وقد أدركت تماما بأنك كنت تشعرين - أثناء تردده - بأن مستقبلك فى مهنتك معلق فى كفة القدر .. اننى أرى فى عينيك أثر البكاء ، ولكن لا تدعى الألم يتملك من قلبك ، لأن مريضنا قد أثار كل هذا من أجل تشابه صوتك بصوت الآنسة شامبيون .. فسينسى الأمر كله بعد يوم أو يومين ، وستصبحين فى نظره أعظم قيمة من عشر آنسات شامبيون . تأملى ما أحدثته به من تغيير فى هذه الفترة القصيرة ،

فها هو ذا يرغب فى النهوض من فراشه ليشرح لك صوره !٠٠ لا تخشى شيئا ، فلسوف تربحين جولتك ، وسيكون فى مقدورى أن أبعث لسير دريك بتقرير واف أبين فيه النجاح العظيم الذى يتم على يديك ٠٠ أما الآن ، فلابد لى من أن أنفرد بوصيفه لأعطيه كل التعليمات ٠٠ وأنصحك أن تذهبى لتستروحى النسيم عند البركة ، حتى تستردى شهيتك للغداء ، على أن ترتدى ملابس أثقل مما عليك الآن ، فليست لديك الآن أية مهمة من أعمال التمريض ٠٠ أما وقد أشعرتنى بكفاءتك فى النظافة والعناية ، فعليك فى الوقت ذاته أن ترتدى ملابس مريحة دافئة ، لتحميك من لسعات أصقاعنا الشمالية ٠٠ هل أحضرت معك ملابس أثقل من هذه ؟ » ٠ فأجابته جين : « ان قوانين نقابتنا تحتم علينا أن نرتدى هذا الزى ، ولكن معى معطف من الصوف الرمادى »

ـ حسنا ٠٠ ارتدى المعطف الصوفى الرمادى ، وسأعود بعد ساعتين لأرقب ما أحدثه به نهوضه من فراشه ، وما أداه من حركة ٠٠ ولن أستبقيك أكثر مما استبقيتك !

وقالت جين بكل هدوء : « هل لى أن أسألك ـ يادكتور ماكينزى ـ عما دعاك الى أن تصفنى له بأننى شقراء ، كما وصفت شعرى الثقيل المجعد بأنه شعر هش متهدل حريرى الملمس ؟ » ٠ وكان الدكتور « روب » قد هم بدق الجرس ، فلما سمع سؤالها رد يده ، ثم دار نحوها ، والتقت عينا جين الثابتتين بعينيه الفيروزيتين المفعمتين بالذكاء ، ثم قال : « لك كل الحق فى هذا السؤال أيتها الممرضة روزمارى جراى ، وان أدهشنى أن ترى ذلك ضروريا ٠٠ فقد اتضح لى تماما بأن ثمة أسبابا خاصة قد دفعت السير دريك لأن يرسم صورة خيالية عنك للمريض ، وأكبر الظن أنها صورة لمثل أعلى يهم المريض ٠٠ ولما كان الوصف يختلف عن الواقع ، لذلك استنتجت انه لابد ـ لكى تكتمل الصورة ـ من أن تكون النقطتان اللتان قد تركتا كى أرسمهما ـ مع الأسف ـ مغايرتين لما رأيته أمامى ، شأنهما شأن بقية الصورة ٠ والآن ، اذا كنت تسمحين ٠٠ ! » ٠ ثم دق الجرس بشدة ٠ فألحت عليه جين قائلة : « ولكن ، لماذا خاطرت باقتراح أن يتحسس وجهى ؟ » ٠ فصاح الدكتور روب غاضبا : « لأننى أعلم أنه رجل ذو أخلاق عالية ٠٠ أواه ! تعال ياسمسون !٠٠ أدخل ياصاح ، واغلق الباب ٠ واحمد الله معى لأنه قد جعل منك ومنى رجالا ولسنا نساء ! »

★ ★ ★

◆ وبعد ربع ساعة ، شاهدته « جين » وهو يسرع بعربته الخفيفة

(الدوكار) ، فقالت لنفسها : « لقد كان دريك على صواب ، ولكن .. ياله من مزيج عجيب من الذكاء والجمود ، وما أعجب أثر هذا المزيج فى تدعيم خطتنا ! »

وبينما كانت ترقب العربة الخفيفة ، وهى تنطلق عبر المستنقع بأقصى سرعة ، لم يتسن لها أن تسمع ما كان الدكتور « روب » يدمدم به لنفسه – وهو يشد العنان ويهلل لمهره انقوى – والا لتولاها العجب .. فقد كان من خصاله أن يحدث نفسه ويناقش ما مر به من أحداث ، بصوت نصف مسموع، وهو يسرع – فى عربته – متنقلا بين مريض وآخر .. كان جانبا طبيعته المزدوجة يتطارحان ماجرى ، فيما بينهما . وقد بدأ حديثهما – فى هذه المرة – كما يلى : قال الدكتور « روب » مخاطبا الدكتور ماكينزى : « والآن ، ما الذى أتى بالنبيلة جين الى هنا ؟ » . فأجابه الدكتور ماكينزى : «ليسحقنى الله اذا كنت أدرى ! » . ورد الدكتور روب : « يجب أن لا تحلف أو تلعن يابنى .. فلقد كانت أمك امرأة تقية ! »

الفصل العشرون



خطاب من النبيلة جين شامبيون الى السير دريك براند .

« قصر جلينيش – شمال بريطانيا ..

« **عزيزى دريك** : ان برقياتى وبطاقاتى لم تكن لتنبئك بأكثر من وصولى .. وأرى – بعد انقضاء أسبوعين هنا – ان الوقت قد حان لان ارفع اليك تقريرا . على أنك جدير بأن تتذكر

اننى كاتبة ضعيفة . فقد اعتدت - منذ الطفولة - ان اجد من العسير ان أكتب شيئا بعد العبارة المألوفة : « آمل أن تكون فى أحسن صحة » . وها أنذى أحاول كتابة خطاب تقريرى ، بجهد جبار ، ومع كل ، فكم اتمنى لو تسنى لى ان استعير - ولو لمرة واحدة - قلم كاتب مدرب ، لاننى لا املك سوى ان ادرك اننى اجتاز تجارب ليست مما يكثر حدوثها لكثير من النساء !

« ان الممرضة « روزمارى جراى » تسير فى عملها بنجاح باهر ، وقد اوشكت ان تجعل مريضها غير قادر على ان يستغنى عنها ، فهو يتجه اليها بثقة كاملة ، تملأ قلبها بزهو مهنى ! .. **أما « جين » المسكينة فلم تعمل اكثر من ان سمعت بأذنيها من شفتيه ، انها آخر مخلوق - فى الدنيا بأسرها - يرجو ان يقترب منه وهو اعمى ..** وحينما قيل له ان من المحتمل ان تأتى لزيارته ، فأجاب صائحا : « أواه ، يا الهى .. كلا ! » . وتحول وجهه الى صورة للاحتجاج المشوب بالجزع الجامح . ومن ثم فان جين تتلقى - يا فتاى - نصيبها من ضرب السياط .. وكما يحدث حين يصدر قاض حريص مفكر حكمه بالجلد ثلاثين جلدة على ثلاث مرات ، فى كل مرة عشر لسعات ، اصبحت جين تتلقى عقابها على دفعات ، لا تتجاوز كل منها ما تقوى هى على احتماله ، وان كان هذا كافيا لان يغمر قلبها بأقسى الآلام ، ويبقى روحها فى رعب مستمر . وقد ثبت انك - يا طبيبى العزيز الماهر - كنت على صواب فى تشخيصك كنه الحالة واحاسيس المريض .. فهو يقول ان اشفاقها هو القشة الاخيرة فوق صليبه الثقيل . **وهذا تعبير صحيح ، لان اشفاقها عليه من قش فعلا .. انما اشفاقها الوحيد هو الاشفاق على نفسها وقد وقعت فى حبائل هفوتها هى .. ولكن كيف السبيل الى اقناعه بأن يتبين هذا ؟ .. هذه هى المعضلة !**

« هل تذكر كيف كان بنو اسرائيل محصورين بين المجدل والبحر الاحمر ؟ .. لقد كنت اعلم ان (المجدل) تعنى « الابراج » ، ولكننى لم أفقه الفقرة قط ، حتى وقفت بنفسى عند ذلك الاسفين الضيق من الصحراء .. البحر الاحمر امامى والى يسارى ، وسلسلة «جبل عتاقة » الصخرية الى يسارى ، تتعالى نحو السماء ، كأنها طبقات حصن منيع .. واذا المخرج والمدخل الوحيد – خلفها – هو الطريق الذى سلكه بنو اسرائيل من مصر ، والذى كانت عربات وفرسان فرعون تجلجل فوقه ، وهى تتبعهم فى مطاردة حامية . هكذا – يا فتاى – لا تزال جين المسكينة تطأ بقدميها رقعة الصحراء التى تضيق يوميا عن استيعاب يأسها .. أما المجدل ، فهو اليقين الثابت فى ذهنه ، بأن حبها لن يكون سوى اشفاق ! .. وأما البحر الاحمر فهو الاعتراف الذى يتحتم عليها ان تخوضه ، حتى تتجنب تسلق المجدل .. وقد يغرق حبه فى المياه الباردة ، وهى تجره خلفها ، **لان امواج الشك وعدم الاطمئنان تندفع فوق هامته .. امواج الشك الذى فقد المقدرة على ازاحته عنه .. وعدم الاطمئنان الذى لا يؤمل يوما فى ان يتأكد من انه كان خطأ وزيفا .. وفى أعقاب كل ذلك تندفع جحافل فرعون فى سرعة فائقة .. انها الاقدار تجرى مسرعة على عجلات الظروف !** وبين آية لحظة واخرى ، قد يقع حدث يسفر عن كشف والهام . واذ ذاك ، سيصعد هو متسلقا صخور المجدل ، بيدين ممزقتين ، وقدمين داميتين . أما هى – جين المسكينة – فستبقى تتخبط فى اعماق البحر الاحمر .. أواه ، من لها بموسى مبعوث برسالة من السماء ، فيمد لها عصاه السحرية .. عصا المحب الذى يستشف بواطن الامور ، ويشق طريقا وسط الاهوال ، حتى يقدر لهما ان يبلغا معا أرض الميعاد ! فيا صديقى العزيز الحكيم ، هل تجرؤ على القيام بدور موسى ؟

« ولكن ، كأنى بنفسى اكتب صفحة من دليل « بيدكر » (١) ، غير مستطيعة ان اسجل الحقائق الواقعية !
« ان لك أن تتصور جين وقد أصبحت نحيلة شاحبة بالرغم عما تقدمه لها العجوز مارجرى من أطباق الثريد ، التى تعد يوميا ـ بعد الغداء لتقدم مع فطور الصباح التالى ـ وعلى كل من يمر بالاناء أن يحرك مابه قليلا .. أفكنت تعلم ـ قبل ذلك ـ بأن هذه هى الطريقة الصحيحة لطهى الثريد يادريك ؟.. لقد كنت أظن دائما بأنه طبق يتم اعداده فى خمس دقائق ، حسب الطلب . واذا صح ما تقوله « مارجرى » ، فان الثريد الذى كنت أعرفه ليس سوى نوع انجليزى يحمل هذا الاسم تجاوزا !.

ولكن أى حديث اصطنعه تهربا من الواقع ؟!.. ياالهى ان الجرح الذى فى قلبى عميق الغور ، ومتقرح ، حتى أننى أخشى الكشف عنه ، ولو بيدك الرقيقة !.. ترى أين بلغت فى حديثى ؟ .. لقد أتاح «الثريد» مهربا !.. لا بأس ، لقد كنت أقول ان جين تزداد ضعفا ونحولا ، بالرغم من أطباق الثريد التى تقدمها لها مارجرى العجوز . أما الممرضة « روزمارى جراى » ، فانها تزداد ازدهارا وبهاء ، وهى دائما الفتاة الصغيرة ، الجميلة ، الرقيقة ، التى يزيدها فتنة شعر أشقر خفيف متهدل حريرى الملمس .. هذه هى اللمسة التى أضفاها الدكتور « روب » على الصورة الساحرة !.. وما كنت ـ بهذه المناسبة ـ لاتوقع أن أجده كما هو .. اننى اتعلم كثيرا من الدكتور ماكينزى ، فى حين أننى مشغوفة بالدكتور « روب » ، اللهم الا فى تلك الحالات التى أتوق فيها الى أن ارفعه من ياقة معطفه ، والقى به من النافذة !.. أما عن شكل المرضة روزمارى ، فقد رأيت من الافضل أن اصارح الخدم بجلية الامر تماما ، فليس

---

(١) بيدكر : مؤرخ بريطاني ، وحجة بين علماء الآثار والمنقبين عنها

فى وسعك أن تتصور كم من مأزق خطير تعرضنا له .. فقد حدث عندما وفد « جارث » على حجرة المكتبة ـ لاول مرة ـ ان أمر « سمسون » بأن يحضر سلما للآنسة جراى .. وهم « سمسون » بأن يفتح فمه ليذكر أن الممرضة جراى تستطيع بلوغ الرف الاعلى ، على أطراف أصابعها بسهولة تامة ، وأنه رآها تفعل ذلك من قبل . ولكن الانجليز ، انقذت الموقف ، فلم التربية الكاملة التى ينشأ عليها الخدم الانجليز ،انقذت الموقف، فلم يقل سمسون سوى : « سمعا ، يا سيد ! .. أجل ياسيدى !.. » ثم التفت نحوى وهو صامت بجانبى ، كمن ملأه السرور لانه كاد يسبب لى ارتباكا لاموجب له .. ولو كان الامر مع العجوز مارجرى العزيزة ، ولسانها الاسكتلندى الذى يبدأ متباطئا ، ثم تزداد سرعته باطراد كلما تحرك حتى يصعب ايقافه ما لم يسكب المختزن من أفكارها ، فلكم كنت أتوق ـ فى مثل هذه الحالات ـ الى أن احملها بين ذراعى النحيلتين ، وألقى بها خارج الحجرة !.. لهذه الاسباب استدعيت « سمسون » و « مارجرى » الى قاعة الطعام ، فى احدى الامسيات ، بعد أن بات السيد بعيدا عن سماع حديثنا ، وأبلغتهما أن أسبابا لا يسعنى ايضاحها ، استدعت ازجاء أوصاف لا تطابق مظهرى . فهو يعتقدانى قصيرة ،نحيلة ،شقراء، جميلة جدا .. وانه من الاهمية يمكن ان نرتضى هذا الغش ، لكى نتفادى ايضاحات طويلة ، قد تحدث له اضطرابات ذهنية !.. ولم يتغير مظهر سمسون المطبوع على الادب والانتباه ، وأجاب بقوله : « طبعا ياآنسة .. تماما ! » . أما من الجهة الاخرى ، فقد كست وجه العجوز مارجرى ـ أثناء حديثى ـ سحب خفيفة تنم عن آرائها ، ولكن هذه الآراء تبلورت عند نهاية الحديث ، الى بسمة قبول وموافقة .. بل انها أضافت الى ذلك تعليقا خاصا ، بقولها : « انه لامر حسن جدا ، كما أعتقد .. فان السيد جارث ـ ويا للفتى

المسكين ! — كان يحرص دائما على أن يحيط نفسه بالجمال .. وكثيرا ما كنت أقول له ، حين يدعو أصدقاءه لزيارته .. فاذا به يتجه بكل تفكيره عند بحث شئون المأدبة ، الى العناية بنظافة ولمعان الادوات الفضية واعداد الكؤوس البللورية المصنوعة فى البندقية والاوانى الصينية الفاخرة ! — : « ياسيد جارثى » هذا ما كنت أقول له ، ثم أردف ، اذا شعر بأن المناسبة تدعو الى الاقتباس من التورة : « ان اهتمامك يبدو لى متجها بكليته الى ماهو خارج الكأس والاطباق ، فلست تهتم بما فى الداخل ! .. ولذلك فمن الصواب أن نبقيه مخدوعا ياآنسة جراى ! » .. ثم أضافت ، اذ سعل سمسون — بما طبع عليه من ادب وكياسة — ووكزها برفقه — « ذلك لانه بالرغم من أن الوجه البسيط قديجد من جمال التعبيرات المرتسمة عليه مايعوضه عن جمال القسمات ، الا انه من المتعذر علينا أن نصف التعبيرات الرقيقة للاعمى ! » . وهكذا ترى يادريك أن هذه العجوز الذكية — التى عرفت حقيقة جارث منذ مولده — قد اتفقت معى — تمام الاتفاق — فى قرارى الذى اتخذته منذ ثلاث سنوات مضت !..

« والآن لاكمل تقريرى .. لقد سبب لنا الصوت بعض المتاعب ، كما بدا الامر لك . وكانت خطتنا كلها معلقة فى ميزان القدر لبضع لحظات رهيبة . ذلك لانه وأن تقبل بسهولة التفسير الذى دبرناه ، الا انه ارسلنى الى خارج الحجرة ، ليخبر الدكتور ماكينزى بأن صوتى فى الحجرة كفيل بأن يثير جنونه . وكان الدكتور « روبى » سيد الموقف فى ذلك اليوم ، وقد كسب الجولة . اذ أن جارث لم يكد يتقبل تفسيره ، حتى كف عن العودة الى ذكر الموضوع .. غير اننى اراه — أحيانا — يصيخ السمع . وكأنه يستحث ذاكرته ! .. على أن الممرضة « روزمارى جراى » تنعم بساعات سعيدة ، فى حين أن جين المسكينة تظل مبعدة . ذلك لأن مريضها يتجه اليها ويعتمد

عليها ويتحدث اليها ويبذل الجهد ليصل الى عقلها وليكشف لها عقله .. وانه لشخص رائع لمن يقيم معه ويعرفه جيد المعرفة .. **كل ذلك وجين تتمشى فى الخارج ، فى البرد القارص، منصتة اليهما وهما يتحدثان بينما تتلوى هى عذابا ، فقد تحققت من ضآلة تقديرها للنعمة الجميلة التى طرحت يوما تحت قدميها ، واستوثقت من طبيعة وعقل الرجل الذى صدته عنها بحجة انه مجرد علام وعقله !** .. ان الممرضة « روزمارى جراى » تجلس بجواره ، ساعات طويلة من الايناس العذب ، فاستطاعت أن تعرف كل هذا . بينما تضرب جين فى طريقها الصحراوى الضيق — صعودا وهبوطا — وهى تعانى ريح الجنوب المحملة باليأس !

« والآن ، انتقل الى أهم نقطة فى هذا الخطاب . ومع اننى امرأة ، فلن أعمد الى الايجاز . أليس فى وسعك يادريك أن تحضر قريبا لزيارته ، ولنتحدث فى الامر ؟.. لقد طفح الكيل ، ولم أعد احتمل أكثر من ذلك دون معونة . أما هو فسوف يغتبط بحضورك ، ليطلعك على ماوصل اليه من تحسين ، وليريك كل الاشياء التى تعلم أن يعملها .. كما أنك قد تستطيع أن تذكر له كلمة عن « جين » ، أو أن تهيىء عقله لهذا الموضوع ، على الاقل !.. أواه يافتاى ! ليتك تستطيع أن تنزل عن ثمان وأربعين ساعة ، وستنعشك نسمات البرك والحقول .. ثم ان لدى خطة صغيرة خاصة ، يتوقف تنفيذها على حضورك .. أواه يا فتاى .. الا احضر ! **صديقتك المحتاجة اليك « جانيت »**

* * *

من السير دريك براند الى الممرضة روزمارى جراى بقصر جلينيش شمال انجلترا شارع ويمبول

« **عزيزتى جانيت** : سأحضر دون ريب ، وسأبرح محطة (ايستون) فى مساء الجمعة ، وبذلك أقضى معكم فى جلينيش ،

طوال يوم السبت ، وجزءا كبيرا من يوم الاحد ، على أن أعود الى عملى صباح الاثنين . ولسوف ابذل كل ما املك من جهد . ولكننى — مع الاسف — لست موسى، ولا امتلك عصاه السحرية . فضلا عن ان الابحاث الحديثة دلت على أن بنى اسرائيل ماكانوا ليستطيعوا أن يتجاوزوا المكان الذى تذكرينه ، وانما كان عبورهم خلال البحيرات المرة . انه مجرد تفصيل ، لايمس بأى حال صحة ايضاحاتك ، وانما هو اضافة لها ، لاننى أخشى يابنيتى العزيزة أن تكون فى طريقك مياه مرة ! ومع ذلك فانى آمل .. كلا ، بل اننى أكثر من آمل ، اننى ملىء بالثقة . فكثيرا ما اتجه ذهنى — وانا افكر فيك ، فى الفترة الاخيرة — الى الوعد الالهى بأن كل الامور تعمل معا للخير .. **فكل امرىء يستطيع أن يجعل الامور الطيبة تتفاعل معا فى سبيل الخير .. ولكن « ابانا الذى فى السماء » هو وحده الذى يستطيع أن يصنع من الشر خيرا ، وأن يأخذ كل اخطائنا وهفواتنا وجهالتنا ، فيوجهها بحيث تعمل جميعا لتحقيق الخير العميم لحياتنا** .. وكلما ازدادت معضلة كياننا البشرى تعقدا وارتباكا ، ازدادت حاجتنا الى التمسك فى الحياة بالحكمة الجليلة الواضحة: « اعتمد على الله بكل قلبك ، ولا تعتمد على فهمك .. وفى كل طرقك اعتمد عليه ، فهو الذى يقوم سبلك » .. انها أوامر قديمة وبسيطة للسير ، ولكنها صادقة ، ومن ثم فهى أزلية !

« سرنى أن أثبتت الممرضة روزمارى كفاءة ممتازة ، غير أننى آمل أن لانواجه — بعد الآن — اضطرابات جديدة فى معضلتنا .. **هبى أن مريضنا وقع فى غرام الممرضة الرقيقة الصغيرة « روزمارى » . فماذا يكون مصير جين ؟** .. أخشى فى هذه الحالة ان تفتح الصحراء فمها — اذ ذاك — وتبتلعها . فعلينا أن نتحاشى مثل هذه النكبة ! اليس فى الوسع اغراء « روزمارى » على أن تفلت حرف « هـ » — من نطقها — أو أن تبين انها قد مالت الى سمسون ؟ .. أواه يابنيتى العزيزة

المسكينة !.. ماكان لى أن أداعبك ، لو لم أكن قادما ـ عما قريب ـ لمعاونتك . يالها من محنة تبعث الجنون !.. ويالك من غالية ، ولكن معظم الرجال حمقى أو عميان ، بل ان رجلا منهم جمع بين الامرين !.. ثقى من أننى سأثبت له ذلك ، ارضاء لنفسى وله .. اذا واتتنى الفرصة !

المخلص لك دائما : دريك براند »

من السير دريك براند الى الدكتور روبرت ماكينزى

« **عزيزى ماكينزى** : هل ترى من الصواب أن أحضر قريبا لزيارة مريضنا فى جلينيش ، ولادلى برأى فى تقدمه . أرى أن من الممكن أن أحضر فى عطلة آخر الاسبوع .

أرجو أن تكون راضيا عن الممرضة التى ارسلتها

صديقك المخلص جدا : دريك براند »

* * *

من الدكتور روبرت ماكينزى الى السير دريك براند

« **عزيزى السير دريك** : ان السيدة القديرة التى أرسلتها لتكون ممرضة لمريضنا تؤدى كل حاجة تعن له ، حتى لم تعد بالمريض حاجة الى ، ولا اليك أنت .. **غير اننى أرى من الخير العظيم أن تحضر قريبا لزيارة الممرضة نفسها ، اذ انها تفقد من لحمها وشحمها أكثر مما تحتمل أية سيدة فى مثل عودها .**

ان هما خفيا ، يعمل الى جانب القلق الطبيعى ـ الناجم عن مسئولياتها فى هذه الحالة ـ على النيل من صحتها . وقد تفضى اليك بدخيلة نفسها . فى حين لاتقوى على أن تضع ثقتها فى شخص

خادمك المطيع : روبرت ماكينزى »

الفصل الواحد والعشرون



◆ جلست الممرضـة « روزماری » مع مريضها فى حجرة المكتبة بقصر جلينيش ، وبينهما منضدة صغيرة حملت أكداسا من الخطابات ، وافاه بهـا بريد الصباح .. وكان عليها أن تفضها ، وتقرأ عليه فحواها ، وتقدم له ما يرغب فى تلمسه أو فى الاحتفاظ به فى جيبه .. وكانا يجلسان بجوار النافذة الفرنسية المؤدية الى الشرفة ، تهب عليهما نسمات معطرة بعبير زهور الربيع ، وقد نفـذت أشعة شمس الصباح داخـل حجرة المكتبة .. وكان « جارث » فى ملابس من « الفانيلا » البيضـاء ، وربطة عنق خضراء ، وفى عروة سترته بعض زهور الربيع .. وقد جلس مضطجعا فى رضى ، مستمتعا بحواسه التى كانت تسرع فى استرداد انتعاشها ، وبعبير الزهور ، وبلمسات أشعة الشمس .

وفرغت الممرضة « روزماری » من تلاوة خطاب خاص بها ، فطوته ووضعته فى جيبها بشعور كله ارتياح وشـكر . فقد كان دريك قادما ، ولم يخيب ظنها !.. وسألها جارث على غرة منها : « أهو خطاب رجل يا آنسة جراى ؟ » فأجابته الممرضة روزماری : « تمـاما .. وكيف عرفت ذلك ؟ » . وكان جوابه : « لأنه محرر على ورقة واحدة .. ذلك لأن خطاب المرأة - اذا كان لأمر هام - يستغرق ورقتين أو ثلاثا - وهذا الخطاب كان لأمر هام ! » . فهتفت الممرضة روزماری : « لقد صح استنتاجك للمرة الثـانية .. وللمرة الثانية أسألك : كيف عرفت ذلك ؟ » . فقال : « لأنك تنهدت فى ارتياح تام، عندما أكملت السطر الأول ، وتنهدت - للمرة الثانية - عندما طويت الخطاب وأعدته الى غلافه ! »

وضحكت الممرضة روزماري وقالت : « انك تتقدم بسرعة ياسـيد دالمين ،

ويخيل لى اننا لن نستطيع - بعد قليل - أن نحتفظ بأى سر لنا .. لقد كان خطابى من .. » . ولكنه صاح مقاطعا بسرعة ، وقد مد يده محتجا : «لا ، لا تخبرينى !.. فليس بى ميل أو فضول نحو مراسلاتك الخاصة يا آنسة جراى .. ولكن من أكبر دواعى سرورى أن أبين لك التقدم الذى بلغته فى التعرف على الأشياء دون الاسترشاد بأحد ! » . فقالت المرضة : « انما أردت أن أبلغك ان الخطاب من السير دريك ، وقد جاء ضمن ما حوى انه قادم الى هنا ليراك فى يوم السبت القادم » . فقال جارث : « جميل جدا.. ما أعظم التحسن الذى سيلمسه فى حالتى .. وسيسعدنى أن أقدم له تقريرا عن الممرضة ، كاتمة السر ، وقارئة خطاباتى ، والمرشدة الصبور فى غير ثرثرة .. بل الرفيقة الملازمة التى انتقاها لى ! »

ثم أردف فى جزع ولهفة : « أرجو أن لا يكون حضوره لكى يأخذك من هنا .. أصدقينى ! » . فأجابته الممرضة روزمارى : « كلا ، فان الوقت لم يحن بعد لذلك .. ولكننى أردت - ياسيد دالمين - أن أسألك أن تسمح لى بالتغيب عنك لما لا يتجاوز ثمانى وأربعين ساعة ، وستكون زيارة الدكتور براند فرصة مناسبة لهذا الغياب ، لعلمى بأنك تأنس اليه . فاذا سمحت لى بعطلة نهاية الأسبوع ، فسأرحل فى مساء الجمعة ، وأعود فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ، فى موعد مناسب لفض بريد الصباح .. وسيقرأ عليك الدكتور براند خطابات السبت والأحد .. آه ، نسيت أن لا بريد هناك فى يوم الأحد ، فكأننى لن أفوت غير بريد يوم واحد .. كما أن الدكتور براند سيكون أكفأ منى فى مهام أخرى ! » . فأجابها جارث وهو يناضل لاخفاء ما ألم به من استياء : « حسنا .. لقد كنت أود كثيرا لو بقينا ثلاثتنا لنتحدث معا ، ولكن لا غرابة فى أن تكونى بحاجة الى اجازة صغيرة .. فهل تقصدين جهة بعيدة ؟ »

- كلا ، فان لى أصدقاء فى جهة قريبة من هنا .. والآن هل تريد أن نتفرغ للبريد ؟

فمد جارث يده قائلا : « نعم .. انتظرى دقيقة واحدة .. هناك صحيفة بين الرسائل ، فانى أشم رائحة مداد المطبعة .. لا أريدها ، فتكرمى باعطائى بقية الرسائل ! » . فأبعدت الممرضة « روزمارى » الصحيفة ، ودفعت اليه بالرسائل حتى لمست يديه . واذ تناولها ، ارتسمت على شفتيه بسمة سرور بما هو مرتقب ، وقال : « يالها من كمية كبيرة ! وعلى ذكر ذلك - يا آنسة جراى - لو انك كنت تتقاضين أجرا يتناسب مع ما تقومين به من تلاوة هذه الرسائل الكثيرة المحررة بأساليب سهلة وغير سهلة ، لاستطعت أن تقومى

بمشروع شامل تسمينه : « الكاتب القارىء » ٠٠ اتذكرين مواساة السيدة باركر بانجس ؟٠٠ أعتقد انها كانت أول مرة ضحكنا فيها معا ٠ يالهـا من عجوز كريمة ! ٠٠ ولكنه لم يكن جديرا بهـا أن تذكر قصة « برثيماوس الأعمى » ، الذى غطس سبع مرات فى بركة (سلوام) ٠٠ فمن الخير دائمـا تجنب التشبيهات العتيقة ، لا سيما اذا كانت من الكتب المقدسـة ، الا اذا كان المرء يعيها بدقة ٠٠ والآن ٠٠ » ٠ ثم صمت جارث ٠٠ وكان فى تلك الأثناء يتحسس الرسائل واحدة فواحدة ، وهو يفحصها بأصابعه بعنـاية ، قبل أن يضعها على المنضدة بجواره ، حتى وصل الى رسـالة كانت على ورق أجنبى ، ومختومة بالشمع ٠ فقطع الحديث فى حدة ٠٠ وأمسك بالرسـالة دقيقة وهو صامت ، ثم مر بأصابعه على الختم ٠

★ ★ ★

◆ وكانت الممرضة روزمارى تراقبه فى لهفة ، فلم تصدر عنه أية اشارة، غير أنه لم يلبث أن وضع الرسالة على المنضدة ، وأخذ ما بعدها ٠٠ حتى اذا ما أعاد الى الممرضة الرسائل ، جعل الرسـالة المختومة فى آخرها ، حتى تقرأها عليه بعد فراغها من جميع الرسائل ٠٠ ثم بدأت الاجراءات المعتادة ، فأشعل جارث سيجارته ـ وهو أول عمل أجاده بنفسه ـ وأخذ يدخنها متلذذا، وقد استوثق من موقع منفضة الرماد ، وراض يده على القاء الرماد داخلها بكل دقة ٠ بينما تناولت الممرضة « روزمارى » الرسـالة الأولى ، فقرأت خاتم الجهة التى وردت منهـا ، وقدمت اليه وصـفا كاملا للخط الذى كتب به الغلاف ، فاستطاع « جارث » أن يتعرف على اسم صاحب الرسالة ٠ وكان يسر غاية السرور حين يتبين بعد فض الغلاف صحة تخمينه ، فى كل مرة ٠٠ وكانت الرسائل ـ فى هذا اليوم ـ تسعا ، من جهات مختلفـة ، فبعضها من أصدقائه من الرجال ، ورسالة أو اثنتان من حسناوين سجلتا استعدادهمـا للحضور لرؤيته ، حالما يبدى رغبته فى قبول الزائرين ٠٠ ورسالة من ملجأ للعميان يطلب مساعدة مالية ٠٠ وبطاقة صغيرة من الدكتور براند يعلن فيها اعتزامه الحضور ٠٠ ثم قائمة حسـاب ـ بثمن ربطات للعنق ـ من محل تجارى بشارع (بوند) بلندن ٠٠ وارتعشت أصابع الممرضة « روزمارى » وهى تعيد الخطاب الثامن الى غلافه ـ ولم يبق على المنضدة سوى الرسـالة الأخيرة ـ فلما التقطتها بيدها ، بادر جارث بالقاء لفافة التبغ من النافذة ، فى حركة عصبية . ثم استلقى فى مقعده وقد غطى وجهه بيـديه ٠ وقال : « هل أجدت القاء اللفافة أيتها الممرضة ؟ »



ومالت الى الأمام ، فشاهدت دخان اللفافة متصاعدا من فوق الحصى . فقالت له : « تماما ياسيد دالمين .. هذه الرسالة تحمل طابعا مصريا ، وعليها خاتم بريد القاهرة كما أنها مختومة بالشمع الأحمر ، بخاتم يحمل شعارا به خوذة عليها ريشة وقناع محكم » . فسألها جارث فى هدوء تام : « والخط الذى كتبت به ؟ » . وأجابت : « ان الخط الذى كتبت به يتسم بالجرأة والوضوح الكامل ، وليس به دوران ولا تنميق ، وقد كتب بريشة عريضة »

- هل لك أن تتفضلى أيتها الممرضة بفض الغلاف ، وقراءة التوقيع قبل تلاوة ما بالرسالة ..

وعند ذلك أخذت الممرضة « روزمارى » تسعل لتجلو حنجرتها التى أوشكت أن تسد فتخنق صوتها .. ثم فضت الرسالة ، ونظرت الى صفحتها الأخيرة ، وقرأت التوقيع..وقالت له :« ان التوقيع ياسيددالمين هو.. جين شامبيون». فقال لها جارث فى هدوء : « أرجو أن تقرئى لى الرسالة » . وشرعت الممرضة روزمارى فى تلاوتها :

« عزيزى دال .. ماعساى أن أكتب لك ؟!.. لو اننى كنت بجوارك لتدفق منى حديث طويل ، أما الكتابة فمن الصعوبة والاستحالة بمكان .. اننى أعلم أن الأمر أشق عليك مما لو كان على أى فرد منا .. ولكنك ستكون أكثر منا جميعا شجاعة فى التغلب عليه . ولسوف تخرج من المحنة على أحسن حال ، وتستمر على ايمانك بجمال الحياة ، واظهارها كذلك للآخرين .. اننى ما كنت لأتصورها كذلك ، حتى كان ذلك الصيف الذى ضمنا فى (أوفردين) و (شينستون) ، فعلمتنى كيف استجلى الجمال .. ومنذ ذلك اليوم وأنا أذكرك فى غروب شمس كل يوم ، وفى شروقها .. على صفحة المحيط الأطلسى اللازوردية ، وفوق قمم الجبال الأرجوانية ، وفى رشاش شلالات نياجرا ، وفى زهور الربيع فى اليابان ، وفى صحراء مصر الذهبية .. فلقد

استوعبت كل هذه وأدركت جمالها بفضلك ٠٠ أواه يادال ، لكم أتمنى الحضور لأنبئك بكل شيء ، حتى يتسنى لك أن تراها خلال عينى ٠ واذ ذاك فانك ستزيد فهمى اياها اتساعا ، وتبصرنى بها فى مزيد من الجمال ٠٠ ولكننى علمت بأنك لا تقبل زائرين ٠٠ أفلا ترتضى اســتثناء واحـدا ، فتسمح لى بالحضور اليك ؟

« لقد كنت عند الهرم الأكبر عنـدما بلغنى الخبر ٠٠ كنت مستلقية فى استرخاء ، فى شرفة الفندق ـ بعد العشاء ـ وقد أثار نور القمر أشجانى ، وأهاج ذكرياتى ٠٠ وكنت قد صممت ساعتئذ على أن أعدل عن السياحة فى حوض النيل ، لأعود الى الوطن ، واعتزمت أن أكتب اليك لتحضر للقائى ٠٠ وفى تلك اللحظة ، وصل الجنرال « لورين » ومعه صحيفة وخطاب من «ميرا» ٠٠ وبذلك علمت بالفاجعة !٠٠ ترى أكنت تقبـــل دعوتى وتحضر لمقـابلتى ياجارث ؟ ٠٠ والآن ياصديقى ـ وأنت لا تقوى على الحضور الى ـ أيمكننى أن أحضر اليك ؟٠٠ كلمة واحدة تصدر من فمك : « احضرى ! » كافية لأن أطير اليك من أبعد بقعة فى الارض أكون فيها لدى تسلمى رسالتك ٠٠ لا تعبأ بالعنوان الذى فى خطابى هذا فى مصر ، فلن أكون هنا لدى اطلاعك عليه ، وانما أكتب لى بعنوان عمتى فى دارها بالمدينة ، فكل رسائلى ترسل الى هناك ثم تحول الى ـ مغلقة ـ حيث أكون ٠

« دعنى أحضر ، وثق اننى أقدر مدى قسوة الأمر عليك ٠ ولكن الله خير معين !٠٠ وتأكد دائما اننى :

الوفية فوق ما يقوى القلم على وصفه : جين شامبيون »

★ ★ ★

❖ ورفع جارث يده التى كانت تغطى وجهه ، وقال : « اذا لم تكونى متعبة يا آنسة جراى ، بعد تلاوة كل هذه الرسائل ، فانى مشوق الى أن أملى عليك ردى على هذا الخطاب فورا ، وهو لا يزال حاضرا فى ذهنى ٠٠ هـــل لديك أدوات الكتابة ٠٠ شكرا لك ، هل نبدأ ؟ » ٠٠ وشرع يملى :

« عزيزتى الآنسة شامبيون : لقد تأثرت أعمق التأثر لخطابك الرقيق الذى يفيض عطفا ، فكان له فى نفسى وقع حسن ٠ وانه لجميل منك أن تكتبى لى من البلاد النائية ، ومن بين أشياء كانت خليقة بأن تشغل بالك عن أصدقائك فى الوطن ٠٠ »

ثم سادهما صمت طويل ٠٠ وانتظرت الممرضـــة « روزمارى » والقلم فى يدها ، مؤملة أن يقتصر تردد ضربات قلبها على أذنيها وحـدها ، فلا يترامى

عبر المنضدة .. ثم استأنف جارث املاء خطابه : « سرنى انك لم تعدلى عن رحلتك فى النيل ، ولكن ... »

وعند ذلك سمع طنين نحلة جاءت من شجرة الخزامى ، وحطت على زجاج النافذة . وفيما عدا ذلك ، عم السكون الحجرة . ثم استطرد جارث : « ولكن .. لو انك كتبت الى ، لكنت قد جئت طبعا .. »

وراحت النحلة تناضل ضد النافذة فى حنق ، صاعدة وهابطة ، مرة تلو أخرى ، لعدة دقائق ، ثم اهتدت الى مصراع زجاجى مفتوح ، فانطلقت منه فرحة الى أشعة الشمس . ثم ساد الحجرة صمت تام .. اخترقه صوت جارث - بعد حين - وهو يملى فى هدوء : « وأكرم من ذلك أن تقترحى رغبتك فى الحضور لرؤيتى ولكن ... »

وهنا أسقطت الممرضة روزمارى القلم من يدها ، وقالت له : « أواه ياسيد دالمين .. دعها تحضر ! » . فاتجه اليها جارث بوجه كله دهشة بالغة ، وقال لها فى لهجة حاسمة : « لا أريد ذلك » . ولكنها عادت تقول : « ولكن تصور مدى القسوة على أى امرىء يود كثيرا أن يكون قريبا .. أن يكون صديقا فى المحنة ، ثم يرفض سؤله ! » . فقال : « ما دفعها الى اقتراح المجىء سوى ما لها من قلب مفعم بالرحمة ، يا آنسة جراى .. فهى صديقة وزميلة منذ أمد بعيد ، ولهذا فسوف تحزن كل الحزن اذا رأتنى فى هذه الحالة ! »

ولكن الممرضة عادت ترجو ملحفة : « هذا لا يبين من خطابها .. ألا يمكنك أن تقرأ بين السطور ؟.. أم أن قلب المرأة وحده هو الذى يفهم قلب المرأة ؟ .. أم ترانى لم أحسن قراءته لك ؟.. هل لى أن أعيد قراءته ؟ » . فانعقدت على وجه جارث أمارات غيظ حقيقى ، ثم تكلم بحزم ورصانة ، وقد قطب حاجبيه الأسودين المستقيمين : « بل انك قد أجدت قراءته أتم اجادة ، ولكن ليس من المستساغ أن تناقشينى .. وأود أن أكون حرا فى املاء رسائلى الى كاتمة سرى ، دون أن أطالب بتفسير ! » .. فأجابته الممرضة « روزمارى » فى ذلة : « أرجو منك الصفح ياسيدى .. لقد أخطأت ! »

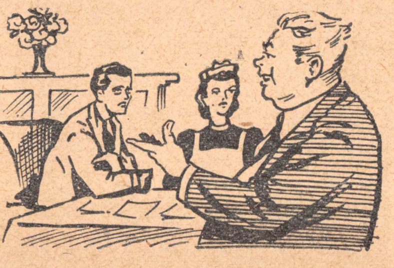
وبسط جارث يده عبر المنضدة ، وتركها لحظة ، وان لم يجد يدا تستجيب وتقابلها . ثم قال لها بابتسامته الخلابة : « لا بأس يامرشدتى ودليلى الصغيرة الرحيمة .. لك أن توجهينى فى أكثر شئونى ، ولكن ليس فى هذا .. والآن دعينا نختم الرسالة .. الى أى كلمة انتهينا ؟.. آه ! .. « رغبتك فى الحضور لرؤيتى ، ولكن » ... هل أضفت لذلك انه لطيف منك .. أو انه أكثر من اللطف ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى بصوت متهدج : « وأكرم من ذلك » . فقال : « لا بأس .. انه - فى الواقع - أكثر من الكرم . وليس

سواها وسواى من يستطيع أن يدرك مدى هذا .. والآن دعينا نكمل ..
« غير انى لا أستقبل زائرين ، ولا رغبة لى فى استقبال أحد ، الى أن أقوى على السيطرة الكاملة على الظروف التى تتعلق بعجزى ، فلا تكون أليمة أوملحوظة لدى الغير . ولسوف أتعلم - خلال الصيف - كيف أعيش فى هذه الحياة الجديدة ، خطوة فخطوة ، فى عزلة تامة فى جلينيش . وأنا أشعر بيقين من أن أصدقائى سيحترمون رغبتى فى ذلك . ومعى الآن شخص يقوم بمساعدتى على أتم سبيل وفى طول أناة .. ولكن انتظرى ! » .. قال جارث فى صيحة مفاجئة ، ثم أردف : « لا أريد أن أذكر ذلك ، فقد تساورها بعض الشكوك ، وقد تسىء الفهم .. هل بدأت كتابة تلك الجملة ؟ كلا ؟.. ماذا كانت آخر كلمة ؟.. « ذلك » ؟ .. آه ، نعم ، هذا صحيح .. ضعى نقطة بعد كلمة « ذلك » .. والآن دعينى أفكر ! » . وأخفى وجهه فى راحتيه ، وجلس طويلا مستغرقا فى التفكير .

وانتظرت الممرضة « روزمارى » ، وقد أبقت يدها اليمنى - الممسكة بالقلم - على الورق . أما يدها اليسرى فظلت ضاغطة على صدرها ، وقد ثبتت بصرها على ذلك الرأس الأسود المنحنى ، فى نظرة كلها حنين وحنان مشبوب !..

ورفع جارث رأسه - أخيرا - واختتم الاملاء ، قائلا : « صديقك المخلص : جارث دالمين » . وفى صمت تام ، كتبت الممرضة روزمارى العبارة .

الفصل الثانى والعشرون



• فى ذلك الصمت الممض ، الذى اعقب الاملاء واغلاق الرسالة ، انبعث صوت الدكتور روب .. الباعث على الابتهاج : « ترى من مريض اليوم ؟ .. أهى السيدة أم السيد ؟ .. أرى انه

لا هذا ولا تلك ، فكلاكما يشع ببريق الصحة الكاملة ، مما يجعل الطبيب يخجل .. انه ربيع فى الظاهر ولكنه صيف فى الداخل ! » . واقبل عليهما الدكتور روب وهو فى دهشة مما بدأ على وجهيهما من شحوب وامتقاع ، ولما خيل اليه انه يستنشق فى الهواء من دخان قلوب تحترق .. عاد يقول : « كأنى بالملابس البيضاء تغرى بالنزهة فى القارب وتناول الوجبات فى الخلاء .. وانى لاراك - ايتها الممرضة جراى - قد طرحت عنك المعطف الصوفى ، وعدت الى الثياب الزرقاء الجميلة .. انها تناسبك جدا ولا ريب ، ولكن حذار من البرد ، واحرصى على التغذية الطيبة ، لان مثل هذا الجو يستلزم الاكثار من الغذاء ، لا سيما بعد أن فقدت أخيرا جزءا ملحوظا من وزنك .. فنحن لا نريد ممرضات قصيرات ، نحيفات ! »

وهنا سأله جارث بلهجة يسودها الكدر : « **لماذا تعير الآنسة جراى دائما بأنها ضئيلة الجسم يا دكتور روب ؟ أنا موقن من ان قصر قامتها لا يعيبها ولا يلحق بها ضررا ما !** » . فقال الطبيب : « سأعيرها بأنها طويلة ، اذا راق لك ذلك » . ونظر اليها ، ثم غمز بعينه فى خبث ، بينما كانت واقفة لدى النافذة بقوامها الممشوق ، وقد وجهت اليه نظرة امتعاض .

فقال جارث فى شىء من الصراحة : « بل افضل ان لا اسمع تعليقا ما عن مظهرها الشخصى ! » . ثم اردف بلهجة اخف وقعا : « انك تدرك انها مجرد صوت بالنسبة لى .. صوت رقيق يقودنى ويهدينى .. لقد شغل بالى فى أول الامر ان أتمثل لها صورة ذهنية غامضة غير واضحة .. اما الآن ، فانى افضل ان اقيس كل شىء اعلمه عنها ، بمقياس ما تقدمه لى من عون ، واترك ما لا اعلمه دون ما تصور .. هل خطر لك مرة انها الشخص الوحيد - واسقط من الحساب ذلك الفتى جونسون ، لانه يذكرنى بعهد الكوابيس الذى اعمل على نسيانه بسرعة فائقة ! - **أريد أن أقول انها الشخص الوحيد**

الذى يلازمنى وانا فاقد البصر ، دون ان اكون قد رأيته ؟ .. وان صوتها هو الصوت الوحيد الذى اسمعه ولا اقوى على ان أتمثل له جسما ووجها .. ومع الوقت طبعا ، سيكون حولى كثيرون .. اما الآن فانها الوحيدة التى تلازمنى ! »

ودارت عينا الدكتور روب الثاقبتان ترمقان كل شيء ، وتنقبان فى كل ركن – اثناء حديث جارث – عسى ان تهتديا الى شيء تنصرفان الى فحصه . وفجأة ، وقعت عيناه على الرسالة – التى وصلت من الخارج – بجوار جارث على المنضدة . فقال : « عجبا ، الاهرام ؟ ! .. طابع البريد المصرى ؟ .. انه طريف . هل لك اصدقاء هناك ؟ » . فأجابه جارث : « لقد وصل هذا الخطاب من القاهرة ، ولكننى اعتقد ان الآنسة شامبيون قد ذهبت الى سوريا » .

وراح الدكتور « روب » يعبث بشاربيه ، وهو يحملق مفكرا .. « شامبيون » ؟ .. ثم اردف : « شامبيون ؟ انه اسم غير شائع .. ترى ، أتكون كاتبة هذا الخطاب ، هى النبيلة جين ؟ » . فأجاب « جارث » فى دهشة وقد ارتجفت نبرات صوته : « هذا الخطاب منها حقا .. هل تعرفها ؟ » . فأجابه الدكتور « روب » فى تفكير وروية : **« أجل .. اعرف وجهها ، واعرف صوتها ، واعرف تكوينها ، واعرف الكثير عن شخصيتها .. أعرفها فى داخل الديار ، وأعرفها فى الغربة .. لقد رأيتها تحت نيران لا يحتملها أكثر معارفها من الرجال .. ولكن شيئا واحدا لم أعرفه حتى اليوم ، وهو خطها .. فهل لى أن ألقى نظرة على الغلاف ؟ »** . ثم دار نحو النافذة .. لقد اراد الطبيب الاسكتلندى الشهم ان يستشف رأى الممرضة « روزمارى جراى » ، ولكنه لم يجد امامه سوى ظهر عريض فى ثوب أزرق .. فان الممرضة روزمارى كانت مستغرقة فى تأمل الطبيعة ، خلال النافذة . وارتد الطبيب الى جارث الذى أومأ بالموافقة على ان يتناول الرسالة ، وعلى

وجهه رغبة مشوقة الى سماع المزيد ، واعراض طاغ عن أن يطلب ذلك . فأخذ الدكتور ماكينزى الغلاف ، فأنعم النظر فيه ، وقال أخيرا :

ـ نعم ، انه صورة منها .. واضح ثابت ، غير متذبذب ، وكأنها تعلم جيدا ما تريد ايضاحه ، فهى تفضى به ، وتسدد الكلمات الى معانيها فتبلغها .. أجل يا بنى ، انها امرأة عظيمة .. ولو انك ظفرت بصداقة النبيلة حين لاستغنيت عن كثير من الاشياء ..

وتضرجت وجنتا « جارث » الناحلتان وتبدى عليه الشــوق . فلقد كان ـ فى الظلمة التى أحاطت به ـ يعانى جوعا شديدا ، لفرط حاجته الى سماع كل ما يقال عنها من العالم المضىء الذى تعيش وتتحرك فيه .. اذ كان اليأس قد داخله من سماع صوتها .. وما درى ـ طيلة هذه الاثناء ـ أن « روبى » الكهل كان يستطيع أن يحدثه عنها .. وكان كل ما يسعه هو الاستفسار عنها من الدكتور براند فى حيطة شديدة ، حتى لا يكشف سره وسرها .. اما مع الدكتور « روب » والممرضة « جراى » ، فلم تكن به حاجة الى هــذه الحيطة ، بل كان بوسعه الاحتفاظ بسره ، والاصغاء الى حديثهما ، والتحدث اليهما . لذلك لم يلبث ان تساءل قائلا : « أين .. ومتى ؟ » .. فأجابه الدكتور روب : « سأخبرك متى .. اذا كنت تميل الى سماع قصة من قصص الحرب ، فى صباح مزدهر بمباهج الربيع »

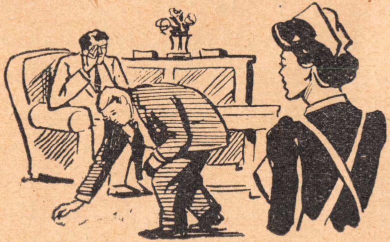
واشتد أوار الشوق بجارث ، فقال : « اجلس يا دكتور ، وعسى ان تكون الآنسة جراى جالسة ! » . فأجابه الدكتور روب : « لا أريد مقعدا يا سيدى ، لاننى حين اعتزم الاستغراق فى الاستمتاع بفصاحتى ، أؤثر أن أظل واقفا .. أما الممرضة جراى فليســت بها حاجة الى مقعد لانها تقف فى النافذة سابحة فى جمال الطبيعة ـ ومن الواضح أنها كفت عن الاهتمام

بك او بى ـ ونادرا ما تجد امرأة تبدى اهتماما بما يروى عن امرأة اخرى .. اما انت يا بنى ، فلك ان تضطجع فى مقعدك ، وتشعل لفافة ، وتدخن . اذ يحلو لى ان اراك تفعل ذلك ، فهو خير من ان تدق الحائط بيديك .. آه ! .. انه تقدم نعترف بأننا مدينان به الى السيدة التى تغض الطرف عنا ، وتفضل علينا جمال الطبيعة . ويعلم الله اننى لست بالذى تلذ رؤيته ، فى حين انك امامها ، فهى تراك طوال اليوم .. يا له من صنف فاخر هذا الذى تدخنه ! أى نوع هو ؟ .. « زينيت » ؟ .. آه ، صنع ماركو فيتش ؟ .. انه نوع لا يفضله اى نوع للتدخين فى حجرات الاستقبال وفى الحدائق ، حيث يختلط عبير اللفافة بالزهور . استلق فى مقعدك ، وتلذذ بتدخينها ، اما انا فدعنى استنشق دخان البارود .. واصغ الى فسأقص عليك أين رأيت النبيلة جين لاول مرة .. فى جنوب افريقيا ، فى خضم معارك البوير ، وكنت قد تطوعت لاكتسب مرانا فى الجراحة . أما هى ، فكانت تعمل فى التمريض . واذا قلت التمريض ، فثق بأننى أعنى المعنى الصحيح لذلك العمل .. لم يكن به شىء من اغراق المناديل الحريرية الرقيقة بماء الكولونيا ، وغسل الوجوه بها ، بعد أن يكون الخدم قد غسلوها من قبل .. والتلطف فى الحديث الى الناقهين ، والفرار فى هلع من الموتى أو من المحتضرين .. ثق أنه لم يكن هناك شىء من هذا ، وما كانت لتسمح به فى مستشفاها ، اذ أن الآنسة شامبيون كانت صاحبة الامر هناك ، وأؤكد لك أن الممرضات كن يوقرنها أى توقير . وكانت تقوم بعمل عشرة أشخاص ، وتريد من سواها أن يحذو حذوها . وكان الاطباء والمرضون يعبدونها .. وكانت تنادى دائما باسم « النبيلة جين » .. وكذلك الجنود الجرحى ! كم من فتى هناك ، كان نائيا عن الديار والاصدقاء ، حتى اذا واتاه الموت ، مات وعلى شفتيه ابتسامة ، وشعور بأن أمه وداره قريبتان ، لان ذراع

« النبيلة جين » كانت تحوطه ، ولان رأسه المحتضر كان ملقى على صدرها الحنون .. ويا لصوتها وهى تحدثهم ! .. كلا ، اننى لن أنساه أبدا ! .. **لقد كانت تكلم النساء بصوت حاد ، وتصدر أوامرها الى الرجال ، ثم تتحول لتتكلم الى جندى مريض وكأنها أمه أو حبيبته ، فكأن هذا التغير السريع درسا لا أزال أفيد منه حتى الآن !** .. أما قلبها الكبير المحب ، فلابد أن الالم كان يعتصره كثيرا ، ولكنها كانت دائما متجلدة ، ومشرقة ، فلم يخنها جلدها سوى مرة واحدة . وكان ذلك من أجل فتى .. شاب حدث ، حاولت جهدها ان تنقذه ، ووقفت بجواره أثناء العملية الجراحية التى كانت الامل الاخير لنجاته ، فلما تبين عدم جدواها ، واستلقى الفتى على صدرها فاقد الصواب ، تداعت متهالكة وهى تقول : « اواه يا دكتور .. انه مجرد غلام .. كيف يتعذب الى هذا الحد ، ثم يموت هكذا ؟ ! » .. وضمته بين ذراعيها ، وراحت تبكيه كما لو كانت أما ثكلى . لقد ذكر لى الجراح ذلك بنفسه ، وقال ان أقسى قلب — فى الخيمة — تأثر ولان . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى خارت فيها قوى النبيلة جين ! »

★ ★ ★

• **وضع** جارث يده على وجهه ، وقد أفلتت السيجارة من يده نصف محترقة ، فسقطت على الارض ، بينما شدت يده — التى كانت بها السيجارة — على ركبته فى انفعال عصبى . فالتقط الدكتور « روب » اللفافة ومسح بكل عناية البقعة التى أحدثتها فى السجادة ، ثم التفت الى النافذة ، حيث كانت المرضة « روزمارى » قد اتجهت اليهما ، وهى مستندة الى حافة النافذة . غير أن نظرها لم يتجه الى الدكتور «روب» ، انما استقر على « جارث » فى تطلع ملهوف . واستأنف الدكتور روب حديثه قائلا : « لقد التقيت بها عدة مرات ، فى



مراكز أخرى ، ولو اننا لم نكن فى قسم واحد . وتحدثت الى مرة واحدة ، وكنت قد سارعت من مركز الاسعاف المؤقت — الذى كان مكتظا بالوافدين ، وكنا نعالج فيه أسوأ الحالات الوافدة من الميدان — الى المستشفى الرئيسى فى المدينة ، لاحضر كمية جديدة من « الكلوروفورم » .. وبينما كانوا يعدون لى طلبى ، مررت بقاعة المرضى ، واذا بالآنسة شامبيون جاثية — فى ركن من أركانها — بجوار رجل حانت ساعته الاخيرة ، وهى تكلمه فى هدوء ، وتعمل — فى ذات الوقت — على تخفيف آلامه ..

وفجأة انبعث دوى يصم الآذان ، وتلاه دوى آخر ، واذا بالنبيلة جين ومريضها قد غطتهما الانقاض والاتربة ، اذ سقطت قنبلة من البوير فوق النقطة التى كانا تحتها تماما من السقف . فانتصب المريض جالسا وهو يصرخ فزعا . وما كان المسكين ليلام وهو فى النزع الاخير ، نصف مخدر الحواس . اما النبيلة جين ، فلم تتحرك شعرة من جسدها ، بل قالت له : « أرقد يا رجل ! » . فأجابها باكيا : « ليس هنا » . فأجابته النبيلة جين : « حسنا ، سننقلك من هنا حالا ! » .. ثم أدارت وجهها ورأتنى ، وكنت مرتديا ثيابا رثة من « الخاكى » ، التقطتها دون وعى من الخيمة عند حضورى للمهمة . كما كنت مغبرا من جراء رحلتى المتعجلة . وقالت لى : « اسمع ايها الجاويش .. ساعدنى على نقل هذا المسكين ، فلست ارتضى له الازعاج فى

هذه الفترة بالذات ! » .. كان هذا كل ما صدر من جين عقب سقوط قنبلة على بضع ياردات من رأسها ، فهل يدهشك أن يعبدها الرجال ؟ وبعد ذلك وضعت يديها تحت كتفيه ، ثم أشارت لى بأن أرفعه من تحت ركبتيه ، وحملناه فيما بيننا عبر ردهة قصيرة فى نهايتها ستار يؤدى الى حجرة هادئة صغيرة ، لم أكن أتوقع أن أراها ، وبها فراش مريح ، وبعض الصور والكتب المنسقة على منضدة الزينة . ثم قالت لى : « لنضعه هنا أيها الجاويش ، اذا سمحت ! » .. فوضعناه فوق الفراش . **وسألتها عن صاحب الحجرة ، فأبدت دهشتها من سؤالى ، حتى اذا رأت اننى غريب عن منطقتها ، أجابت بأدب : « انها حجرتى ! » .. ثم التفتت اليه ، ووجدت انه قد دخل فى دور الغيبوبة ، فأضافت قائلة : « وستنتهى حاجة المسكين الى الفراش ، قبل أن احتاج اليه ! »** .. فتأمل هذه الاعصاب العجيبة ! .. هذه هى المرة الوحيدة التى تحدثت فيها الى النبيلة جين .. وما لبثت مدة تطوعى ان انتهت ، وعدت الى الوطن »

ورفع جارث رأسه وسأله : « ألم ترها بعد ذلك فى بلادنا؟ » . فأجابه الدكتور روب : « نعم رأيتها ، غير أنها لم تذكرنى ، ولم تبد عليها بادرة معرفة . وكيف كان يمكننى أن أنتظر ذلك منها ؟ .. لقد كنت — يوم رأتنى فى الميدان — ذا لحية ، اذ لم تكن ازالة اللحية ميسورة هناك ، لضيق الوقت .. وكانت سترتى حينذاك تدل على أننى جاويش ، ولست جراحا . فلا لوم عليها اذا لم يخطر ببالها أن تلقى فى حى بيكاديللى زميلا فى الحرب ! » .. وبتر روب حديثه ، ثم قال : « اما الآن وقد اتممت ما نسجته من حديث طويل ، فعلى أن أسارع الى كوخ البستانى فى غابتك ، لاعود زوجته الطيبة ، التى تعانى مايسميه هو « مضاعفة » ، وعندى أن « نقص » هو التعبير الذى يتمشى مع حجم كوخه ! .. على أننى اريد — قبل ذلك — ان اتحدث

الى السيدة مارجرى فى حجرة الطعام .. فهى قلقة لانها لاتقوى على أكل لحم الخنزير ، زاعمة انه يطير بين كتفيها .. وهو شذوذ عجيب – من لحم الخنزير – عن الطريق الطبيعى ، ويحتاج الى فحص دقيق .. فاذا سمحت لى استدعيت السيدة الطيبة ! » ..

وهنا ترامى اليه صوت هادىء من ناحية النافذة : **« لم يحن الوقت بعد يا دكتور ، فانى أريد ان اخلو اليك فى حجرة المائدة ، وسأتبعك الى هناك حالا .. وبعد ان أحدثك ، سأنتهز فرصة فحصك « مارجرى » لارتدى قبعتى واسير معك فى الغابة . هذا اذا لم يمانع السيد دالين فى البقاء وحيدا لمدة ساعة ! »**

وعندما وصلت « جين » الى حجرة المائدة ، كان الدكتور روبرت ماكينزى واقفا على سجادة المدفأة ، وقفة نابوليونية .. تماما كما استقبلها يوم وصولها . وعند دخولها ، القى عليها نظرة متشككة ، ثم قال : « حسنا .. هل أدفع الاجر للزمار ؟ » . فدنت منه جين ويداها مبسوطتان ، وهى تقول : « أواه أيها الجاويش .. أيها الجاويش الكهل العزيز الوفى .. ارايت ما يترتب على ارتداء ثياب شخص آخر ؟ ان مشكلتى قد نجمت عن انتحال اسم امرأة أخرى .. واذن فقد عرفتنى طوال هذه المدة ، منذ اول لحظة خطوت فيها الى حجرة المكتبة ؟ » فأجابها الدكتور روب : « منذ أول لحظة خطوت فيها الى الحجرة ! » . فسألته جين : **« ولم لم تبين لى ذلك ؟ »**

– لقد استخلصت من انتحالك اسم الممرضة روزمارى جراى ، ان لديك أسبابا قوية تستلزم ذلك ، ولم يكن من اختصاصى ان استعلم عن حقيقة شخصيتك ..

– واها لك أيها العزيز ! .. هل وجد يوما مثل هذا الذكاء ، ومثل هذه الحكمة ، ومثل هذا النظر البعيد الذى يذهل العقل ، مستقرة على ساقين فوق سجادة المدفأة ؟ ! وعندما

أذكر كيف قابلتنى بقولك : ((اذن فقد وصلت يا ممرضة جراى)) ، اتصور انك كنت تردد فى نفسك : ((كيف حالك يا آنسة شامبيون ؟ .. ما الذى أتى بك الى هنا منتحلة اسم شخص آخر ؟))

فأجابها الدكتور روب وهو ساهم : ((لقد كان ذلك محتملا جدا ، ولكننى لم أنطق بشىء من ذلك ، والحمد لله !)) . فسألته جين : ((ولكن بربك نبئنى ، ما الذى دعاك لان تبوح بالامر الآن ؟)) . فوضع الدكتور روب يده على ذراعها ، وقال : ((اننى رجل عركته السنون يا عزيزتى ، وكان ديدنى طيلة حياتى أن اتفهم الاشياء قبل أن تقال لى ! .. لقد مرت بك ايام مضنية انهكت قواك .. قضيت وقتا طويلا فى ارهاق ، يشتد حينا ويهون حينا ، دون راحة او ترفيه .. ارهاق لا تطيقه سوى قلة نادرة من النساء . لا بسببه هو وحده ، وانما لانك كنت مضطرة الى التزام الحذر معنا جميعا .. ولقد أدركت منذ اللحظة الاولى ، انه لابد لك — اذا أردت الاستمرار — من شخص تفضين اليه بهذا السر .. شخص يمكنك ان تكشفى له جلية نفسك من آن الى آخر .. ولما اكتشفت انك كتبت له هنا ، وأرسلت الخطاب ليلقى فى بريد القاهرة — وهو اجراء لا تقوى عليه سوى المرأة التى تناضل بعوضة بعد ان ابتلعت جملا — وانك لبثت أياما طويلة متوالية تترقبين وصول الخطاب ، حتى اذا وصل اضطررت لان تقرئى عليه رسالتك بنفسك ، وتكتبى الرد الذى املاه عليك ، والذى قرأت سطوره على وجهك عند دخولى الحجرة ، وأدركت انه رفض حضورك اليه .. **عند ذلك أيقنت ان الساعة قد أزفت ، لتجدى بجوارك صديقا يشترك معك فى سرك ، وتبوحى له بمكنون قلبك .. وذلك الصديق الكهل مثل غيره ممن التقــوا بك فى جنوب أفريقيا ، يستشعر اكبر سعادة اذ يمد يده اليمنى الى النبيلة جين !))**

فنظرت اليه جين ، وعيناها تنطقان بعرفان الجميل ، اذ انعقد لسانها . واخيرا قال لها الدكتور روب : « ولكن أخبريني يا عزيزتى ، اذا استطعت .. ما السبب الذى يدفع فتانا المحبوب ، لان يصد عنه — فى عناد وتصميم — ذلك الذى هو خليق بأن يكون عظيم القيمة ، رائع الاثر ، قديرا على ادخال العزاء والخير على نفسه ، اذا كان من حقه أن ينشده ؟ » . فأجابته جين : « أواه يا دكتور .. ان للامر قصة مليئة بعدم الاطمئنان والاخطاء المحزنة .. وواحسرتاه ، لقد كان عدم الاطمئنان والاخطاء من جانبى ! .. والى أن تفحص «مارجرى» أكون قد تهيأت للتريض ، فنسير معا خلال الغابة ، وسأبذل ما بوسعى لاسرد لك الامر تفصيلا ، وأبين لك المشكلة المحزنة التى قامت بينى وبينه ، وفصلت حياتينا بهذا البعد الشاسع .. ولسوف أستمد العون من نصحك الغالى الحكيم ، وسيهدينى فكرك الثاقب ومعلوماتك الثمينة بطبائع الرجال وبالقلوب البشرية ، الى منفذ للخروج .. لاننا ولا ريب محصوران بين المجدل والبحر ! »

* * *

• **وبينما** كانت جين تجتاز البهو ، وتهم بصعود السلم ، ألقت نظرة على باب حجرة المكتبة المغلق .. وتولاها جزع فجائى ، خشية ان يكون الانصات الى قصة الدكتور «روب» قد انهك اعصاب « جارث » . فما كان لسواها ان يدرك الذكريات التى توقظها رواية قصص الجنود الذين كانوا يموتون وقد وسدوا صدرها رؤوسهم ، والمصادفة العجيبة التى جعلت الدكتور روب يذكر فى قصته تلك العبارة : **« انه مجرد غلام كيف يتعذب الى هذا الحد ؟ ! »** .. ورأت انها لا تقوى على الخروج قبل ان تستوثق من سلامته . ولكن خوفا غريزيا جعلها تخشى أن تتطفل عليه ، وهو يعتقد أنه سيمكث وحيدا

لمدة ساعة ! **واذ ألح عليها القلق ، بادرت الى ما لم تأته من قبل ، فتحت الباب الخارجى بكل سكون ، ثم سارت حول الدار الى الشرفة ، فلما دنت من النافذة المطلة على حجرة المكتبة ، خطت فوق الحشائش اللينة حتى بلغت النافذة متكتمة خطاها ما استطاعت!** أبدا لم تتلصص عليه من قبل ، اذ كانت تعلم انه يكره ـ بل يمقت ـ مجرد التفكير فى التطفل المستخفى على وحدته ، ولكن .. لتكن هذه المرة فحسب ! .. وأطلت خلال النافذة

كان جارث جالسا ، موليا النافذة جانبه ، وذراعاه مطويتان على المنضدة المجاورة له ، وقد دفن وجهه فيهما .. وكان يجهش منتحبا ، كما سمعت ـ من قبل ـ بعض الرجال يجهشون عقب العمليات الجراحية المؤلمة .. بكاء صامت يستمر الى أن يفضفضوا أوجاعهم .. **وكانت زفرات جارث الموجعة ، تنطلق بهذه الكلمات : « أواه يا زوجتى .. يا زوجتى .. يا زوجتى ! »**

واسرعت جين بالابتعاد فى حذر ، دون ان تدرى كيف امكنها ذلك . ولكن غريزة فى اعماقها ، بأنها خليقة بأن تفسد كل شىء ، اذا هى كشفت عن نفسها ـ اذ ذاك ـ وفاجأته فى حال لا تليق به ، وقد حركت قصة الدكتور «روب» شجونه وافقدته صلابة الرجولة .. وراح صوت دريك يدوى فى رأسها : « اذا كنت تقدرين قيمة سعادته وسعادتك الدائمة .. ! » . ثم ان الارجاء كان قصير الامد ، ولن يلبث ان يفكر فى هدوء وسكينة ـ بعد هذه العاصفة ـ فيتغلب عليه الشعور بحاجته اليها .. ومن الممكن تنقيح الخطاب ـ الذى لم يرسل بعد الى البريد ـ ليذكر فيه كلمة واحدة : « احضرى » .. فان هى الا دقيقة حتى يكون فى احضانها !

وهكذا ابتعدت عنه ، دون أن تحدث صوتا !

وعادت بعد ساعة من نزهتها مع الدكتور روب ـ وقلبها

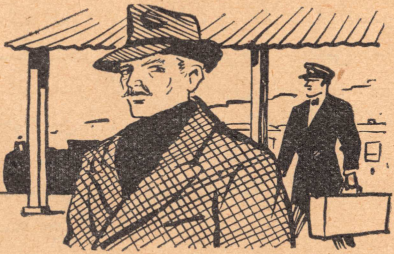
ملىء بالامل والاستبشار ـ فوجدت « جارث » واقفا فى النافذة ، منصتا الى الاصوات العديدة ، ليدرب أذنيه على التمييز بينها ..

وبدا مرهف العود ، طويلا ، فى ملابسه الصوفية البيضاء ، وقد دس يديه داخل جيبى سترته . حتى اذا أصبحت على مقربة منه ، استدار اليها . وخيل اليها ان عينيه البراقتين لا تزالان موجودتين ! .. وسألها : « هل الجو بديع فى الغابات؟ .. سيأخذنى سمسون هناك بعد الغداء . وحتى ذلك الوقت ، هل لديك وقت لكى نتم عمل الصباح ، اذا كنت لا تشعرين بتعب يا آنسة جراى ؟ »

وأملى عليها خمسة خطابات ، كما حررت تحويلا مصرفيا . واستلفت نظر جين عدم وجود الخطاب الذى وجهته اليه ، بين الخطابات الاخرى . أما خطابه الذى أملاه عليها ، فكان فوق المنضدة معدا للبريد . فترددت وقالت : « وماذا تنوى العمل بالخطاب المكتوب للآنسة شامبيون ! .. هل تبغى ارساله كما هو يا سيد دالمين ؟ » . فأجابها : « طبعا .. أما انتهينا منه ؟ »

« ظننت أن .. » . نطقت جين بالكلمتين فى لهجة عصبية ، وهى تشيح بعيدا عن وجهه الصامت ، ثم أضافت : « ظننت أن .. بعد قصة الدكتور روب .. أن .. ! » . فقاطعها جارث قائلا : « ليس لقصة الدكتور روب أن تحدث أى تغيير أو تعديل بصدد قبولى حضورها الى هنا أو عدم قبولى ! » .. نطق جارث بهذه الجملة وهو يضغط على كل كلمة ، ثم أضاف فى لهجة أكثر رقة : « أنها فقط ذكرتنى .. » فسألته جين ويداها تضغطان صدرها : « ذكرتك بماذا ؟ » . فقال « جارث » وهو ينفث نفسا طـويلا من الدخان ، فى هواء الصيف : **« بمدى عظمة هذه المرأة وجلالها ! »**

الفصل الثالث والعشرون



◆ عندما هبط الدكتور دريك براند على رصيف المحطة الشمالية الصغيرة ، ألقى بنظرة على الرصيف المرصوف بالحصى ، وهو شبه موقن بأنه سيرى جين ‥ وكانت الساعة مبكرة ، ولكنها اعتادت أن تقول عن أى مشروع يستدعى اليقظة : « هذا أفضل كثيرا ! » ٠ ولم يكن البصر يقــع على شيء اللهم الا حقيبة ملابسه على مسافة منه ، وكأنها احتلت ـ حيث أودعها حارس القطار ـ مكانا منعزلا ، دائما ‥ وفيما عدا الحقيبة ، لم يكن هناك سوى حمال بطيء ، كان يسير متهاديا وقد غاظه ان كان الوحيد المكلف باســتقبال القطار ‥ كذلك لم يغادر القطار راكب سوى الطبيب ، فلم يكن أمام الحمال متاع سوى حقيبة ‥ وتعلق حارس القطار بعربته ، عندما تحرك القطار ، فوقف الحمال يشاهده ، وقد بسط راحته فوق عينيه ، اتقاء لأشعة شمس البكور ، حتى اختفى القطار عن بصره ٠ واذ ذاك ، تحول الحمال وئيدا الى الناحية الاخرى ، ليتأكد من عدم وجود مسافرين آخرين ‥ ثم لمح حقيبة الملابس ، فســـار متسكعا نحوها ، وانحنى فاحصا اياها وهو يفكر ، ثم دار حولها ليقرأ أسماء وبطاقات الفنادق المختلفة التى تنقلت الحقيبة بينها مع صاحبها فى أنحــاء القارة ٠

ولم يكن من عادة الدكتور « براند » أن يتعجل الناس ، بل كان يقول : « ان تركهم يستغرقون الوقت الذى يلائمهم ، يثمر خير النتــائج ، على مر الزمن ‥ ان الدقيقة أو الدقيقتين اللتين تكتسبان بتعجلهم ، تروحان سدى في النتائج النهائية ! » ‥ غير أن هــذه النظرية قد تصح مع المرضى في

حجرات الفحص ، أو طلبة الطب المتحمسين فى المستشفيات ، أو الممرضات اللائى يشتد بهن الارتباك عندما ينتبهن – فى بداية عهدهن – الى أنه كان يوجه الحديث اليهن . وقد أدت به عادة اهمال النـــاس – حتى فى لحظات اضطراره الى العجلة – الى أن فقد معطفه مرة .. كما كاد يتخلف عن اللحاق بقطار ، فى مرة أخرى . بيد انها أكسبته أعز شيء كان يشتهيه فى الحياة.. ولكن لهذا قصة أخرى .

وكان مشوقا الى تناول الفطور فى ذلك الصباح الربيعى البهيج ، كما كان يصبو الى أن يرى « جين » . فلما لم يقترب منه الحمال والحقيبة ، قطـــع الطبيب رصيف المحطة بخطوات واسعة ، وقال : « وبعد ، أيها الرجل ؟! » . فأجابه الحمال الاسكتلندى : « ماذا تريد ياسيدى ؟ » . فقال : « أريد حقيبة ثيابى » .. وسأله الحمال مستريبا : « أتكون هذه حقيبتك ؟ » . وكان جواب الطبيب : « أجل .. ولابد لها ولى من أن ننطلق الى قصر (جلينيش) ، اذا تكرمت بحملها الى السيارة التى أراها فى الانتظار ، خارج المحطة » . فرد الحمال : « سأحضر عربة أنقل الحقيبة عليها » . ولكنه عند عودته – وهـو يجر العربة خلفه بكل حرص – وجد أن الطبيب وحقيبته والسيارة قد اختفوا .. فظلل الحمال عينيه بيده ، ونظر الى الطريق قائلا : « لست أملك سوى أن آمل أن تكون الحقيبة حقيبته ! » . ثم عاد الى فطوره !

وفى أثناء ذلك ، كانت السيارة تصـــعد التلال مسرعة بالطبيب ، وذهنه متحفز شوقا ولهفة الى لقاء « جين » ، حتى يعلم منها التطورات التى تمت فى الأيام الأخيرة .. وقد ملأ قلبه القلق لعدم حضورها لاستقباله بالمحطة . فقد كان خليقا بها أن تسارع الى لقياه ، منتهزة الفرصة لتتبادل معه الحديث على انفراد ، قبل بلوغهما القصر .. وكان قد تمثلها – قبل وصوله – فى صورتها الحية ، وهى تنتظره على الرصيف ، مشرقة الوجه ، نشيطة الحركة ، ثابتة الخطوات ، قوية .. تلك القوة التى تفيض صحة ورواء ، والتى تنبع عن استجمام ونوم عميق فى الليل ، ويقظة بهيجة مبكرة وحمام بارد منعش .. وبعث الأسى لعدم التقائه بها ، نذيرا غريبا فى أعماقه . ترى هـــل خارت أعصابها تحت ضغط الارهاق المضنى ؟

وعرجت السيارة حـــول منحن فى الطريق ، فاذا أبراج جلينيش السمراء تتبدى لعينيه ، على قمة الجـــانب الآخر من الوادى ، كما ظهرت منطقـــة المستنقعات ممتدة أمام السيارة وخلفها . واستطاع الطبيب أن يرى فى ضوء الصباح – عندما اجتازت السيارة الوادى ، وصعدت فى طريق المستنقعات – حديقة (جلينيش) الكبيرة ، وشرفته وما كان يحيط بها من أحواض الزهور

الزاهية ، والطرقات المرصوفة بالحصى الدقيق ، والسياج الحجرى العريض ، الذى يكاد يكون فى وضع رأسى بالنسبة للوادى السحيق .. فلما وصل ، استقبله « سمسون » عند مدخل القصر . وكاد الطبيب أن يسأل عن الآنسة شامبيون ، ولكنه سارع الى ضبط نفسه ، وقد ذكره هذا التهور الذى كاد يفضى الى زلة شنيعة ، الى ما كان مفروضا عليه من حرص فى انتقاء الكلمات التى يتفوه بها والتصرفات التى يأتيها فى هذه الدار ، حيث نجحت « جين » فى أن تسدد خطواتها بمهارة فائقة ، فى طريق شاق ، وعر .. وما كان ليصفح عن نفسه ، لو أنه زل !

وقال سمسون : « ان السيد دالمين فى المكتبة فى انتظارك ، ياسير دريك » . فسار الطبيب بخطوات نشيطة ، وذهن صاح ، فى اثر الرجل ، عابرا البهو .

* * *

◆ نهض جارث من مقعده ، وتقدم ليلقاه باسطا يده اليمنى ، وقد ارتسمت على وجهه بسمة الترحيب ، ولازمه فى كل حركة ثبات وثقة وعدم تردد ، مما دعا الطبيب الى أن يصوب نظره نحو الرجل الضرير ، ليستوثق من أن صاحب هذا القوام النحيل المشوق ، السريع الحركة ، هو بذاته المريض الأعمى الذى جاء لزيارته . واستلفت نظره شريط حريرى بنى اللون ، ممتد من ذراع مقعد جارث الى الباب ، ليتلمسه الشاب بيده اليسرى مهتديا به فى سيره .. ووضع الدكتور يده فى اليد التى امتدت نحوه ، وشد عليها فى حرارة قائلا : « أى تحول طرأ عليك ياصديقى العزيز ! » . فأجابه جارث مبتهجا : « أليس كذلك ؟ .. كل هذا قد تم بفضلها هى .. المرأة الكاملة الصغيرة التى أرسلتها الى .. دعنى أخبرك بأنها أعظم من أن توصف بأنها من الطراز الأول ! » . وكان - فى تلك الأثناء - قد عاد الى مقعده ، ثم عثر على المقعد الثانى الذى كانت جين تجلس عليه ، فقدمه الى الطبيب . وأشار الى الشريط الحريرى قائلا : « هذا من ابتكارها ! »

ثم فك الشريط وتركه ينزلق الى الأرض ، فلم يبق منه الا خيط رفيع معلق بيد المقعد ، يسهل به أن يستعيد الشريط كلما أراد الاستعانة به . ثم قال : « وهناك شريط آخر غيره يتصل بالبيانو ، وثالث يتصل بالنافذة .. والآن قل لى ، كيف تميز بين الأشرطة ؟ » . فأجابه الدكتور : « ان أحدها بنى ، والثانى أرجوانى ، والثالث برتقالى ! » . فهتف جارث : « أجل ، انك تعرفها من ألوانها .. أما أنا فأهتدى اليها بفارق بسيط فى سمك كل شريط

ونوع نسيجه ، لا تكاد تتبينه عيناك ، ولكننى أميزها باللمس ٠ ومما يسرنى أيضا التفكير فى ألوانها ٠٠ وكثيرا ما أرتدى أربطة العنق وغيرها ، بحيث تتناسق مع ألوان الأشرطة ٠٠ أرأيت كيف أعرفها ، وما كان هذا الابتكار ليصدر عن غير هذه السيدة ، فهذا هو طابعها ، اذ هى تتذكر كل شيء ٠٠ ان أية ممرضة عادية قد تضع أشرطة حمراء وخضراء وزرقاء ، فكنت ـ اذ ذاك ـ أجلس وأنا كاره مجرد التفكير فى ألوانها ، مدرك مدى بشاعة تباين ألوانها الصارخة مع سجادتى العجمية ٠٠ أما هى ، فتعلم جيدا ما للألوان من أهمية لدى ، ولو لم يكن فى استطاعتى النظر اليها ! » ٠ فأجابه الدكتور قائلا : « يمكننى أن أفهم انك تقصد بذلك الممرضة روزمارى ٠٠ كم أنا سعيد برضاك عنها وبنجاحها فى مهمتها ! »

فصاح جارث قائلا : « نجاح ؟!٠٠ لقد أعادت لى الحياة ، وانى ليفيض بى الخجل كلما ذكرت ما انحدرت اليه وما صدر عنى ، فى ٠٠ آخر مرة زرتنى فيها يابراند !٠٠ لم أكن أملك سوى أن أدق الحائط بيدى ٠٠ كما يقول روبى الكهل ٠٠ لابد انك قد خلتنى أحمق مخبولا ! » ٠ فقال الطبيب : « ما فكرت فى شيء من ذلك ياصديقى العزيز ٠٠ فلقد كنت تخوض معركة قاسية ، لم يسبق لأحدنا أن كابد مثلها ، والحمد للخالق اذ قدر لك أن تنتصر ! » ٠ وقال « جارث » بحرارة : « اننى مدين بالكثير اليك يابراند ، وبأكثر منه للآنسة جراى !٠٠ كم كنت أود لو أنها كانت هنا لتقابلك ٠ ولكنها رحلت فى عطلة نهاية الأسبوع ! » ٠ فصاح الطبيب : « رحلت ج ٠٠ عند حضورى ؟ » ٠ وكاد ينزلق مرة أخرى ، فيذكر اسمها !

ـ نعم لقد سافرت مساء أمس ، لتقضى عطلة الأسبوع فى بلد مجاورة٠٠ أبلغتنى أنها لن تكون بعيدة عن هنا ، وانها ستعود لتكون معى فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ٠٠ ويخيل الى أنها فى حاجة الى تبديل المناظر ، وقد رأت فى حضورك فرصة سانحة ، اذ سأستبقيك معى أكثر الوقت ٠٠ وانى لأعتقد حقا يابراند أنه كرم يفوق كل حد ، أن تقطع كل هذه المسافة لترانى ٠ انه لصنيع فوق كل تقدير ، من رجل مثلك ! »

ـ يجب أن لا تبالغ فى تقدير ذلك ياعزيزى ٠ واذا كنت فى الواقع قد حضرت لأراك ، فانما قصدت ـ فى ذات الوقت ـ أن أرى أحد أصدقائى القدامى ، وهو يقيم قريبا من هنا ، لأننى مهتم بأمره ٠ وانه يهمنى جدا٠٠ ولست أذكر لك ذلك ، الا لأكون نزيها تماما ، وحتى أرفع عنك كل عبء قد

يثقلك اذا شعرت أنك مريضى الوحيد !

فأجابه جارث : « شكرا لك ٠٠ ان هذا يخفف من وخزات ضميرى ، ولكنه لا ينقص من عرفانى بالجميل لك ٠٠ والآن ، لابد انك بحاجة الى ازالة وعثاء السفر ، وتناول الفطور ، وقد احتجزتك عن الأمرين بأنانيتى ٠٠ قل لى يابراند ٠٠ » ٠ ثم توردت وجنتا جارث كأنه غلام غرير ، وأتم قوله بعد تردد : « لشد ما يؤسفنى ٠ أن لا تجد زميلا يشاطرك الوجبات ، لغياب الآنسة جراى !٠٠ ولست أحب أن أفكر فى أنك ستتناول طعامك وحيدا ٠ أما أنا ، فاننى أتناول طعامى دائما بمفردى ٠٠ وسمسون يتولى مساعدتى فى ذلك » ٠٠ ولم يقدر له أن يرى مسحة الأسى السريعة ، التى غامت على وجه الطبيب ، ولكن العطف والادراك اللذين تمثلا فى لهجته ـ وهو يقول : « آه ، أجل ٠٠ حقا ، طبعا » شجعا جارث على أن يمضى قائلا : « اننى لم أستطع أن أشرك الآنسة جراى فى مائدتى ، فكل منا يتناول طعامه منفردا ٠٠ ليس بوسعك أن تتصور بشاعة منظر من يتصيد طعامه من كل جوانب الطبق ، وهو غير آمن من أن يقلب الطعام على غطاء المائدة ، أو ربطة عنقه ، فى سعيه ليتصيد صنفا آخر ! »

فأجابه الطبيب قائلا : « ليس بوسع انسان أن يتقن الأمر بدون مران ٠ ولكن ، كيف تكون أكثر احتمالا لهذا الموقف مع سمسون ، منك مع الممرضة « روزمارى » ؟ ٠٠ انها مدربة لمثل هذه الأمور ، كما تعلم ! » ٠ واحمر وجه جارث مرة أخرى ، وقال : « ولكن ، لا يغيب عنك ان سمسون هو الشخص الذى يزيل لى شعر لحيتى ، ويلبسنى ثيابى ، ويصطحبنى فى تحركاتى ٠٠ ومع ما فى ذلك من محنة للنفس ، الا أنها محنة أوشكت أن أتعودها ٠ وبوسعك أن تصورها على هذا النحو : ان سمسون هو العينان لجسمى ، والآنسة جراى هى البصيرة لعقلى ٠٠ وسمسون هو الوحيد الذى يلمسنى فى الظلام ٠ أتتصور أن الآنسة جراى لم تلمسنى قط ، بل انها لم تصافحنى ؟! وانى لمغتبط لذلك ، وسأبين لك السبب حالا ٠٠ ان ذلك يجعل منها مجرد عقل وصوت لى ، لا أكثر ٠٠ ولكنه صوت رحيم ، معين بدرجة عجيبة ، حتى لأحس اننى لن أقوى على الحياة بدونها ! »

ثم دق جارث الجرس ، فلما أقبل سمسون قال له : « رافق السير دريك الى حجرته ، وسيخبرك عن ميعاد فطوره ٠ وعندما تفرغ من كل ذلك ياسمسون ، أحب أن أخرج فى رياضة قصيرة ٠٠ وسأكون ـ بعد ذلك ـ حرا يابراند ٠ ولكن ، لا تمنحنى مزيدا من الوقت ـ فى هذا الصباح ـ اذا

أردت أن تستريح ، أو أن تخرج للرياضة بين البرك المائية ، لتنعم بعطلة ، بعيدا عن الأفكار والناس ! »

★ ★ ★

◆ وبعد أن اغتسل الطبيب ، وارتدى سروالا (بنطلون) من النوع الذى ينتهى تحت الركبتين بانتفاخ ، وسترة قديمة من طراز (نورفولك) ، ذهب الى قاعة الطعام ، واستطاب الفطور الرائع ٠٠ وكان لا يزال يفكر فى مشكلة « جين » ، بينما انشغل جزء آخر من عقله بالتفكير فى نوع الآلة التى تستعين بها مارجرى العجوز فى عمل قهوتها الفاخرة ٠٠ واذا بالسيدة العجوز تقبل محوطة بجو من الغموض ، فسارع الطبيب الى مواجهتها بالسؤال ٠٠ وأجابت مارجرى العجوز : « انها قدر خاصة ٠٠ ولكن ، هل لك ياسير دريك فى أن تأتى معى فى هدوء ودون جلبة ٠٠ حالما تنتهى من طعامك ؟ » ٠ وعادت تكرر : « فى هدوء ، ودون جلبة » ، وهما يعبران البهو ، والطبيب يسير فى أعقابها بقامته الفارعة ٠ وبعد أن صعدا بضع درجات ، التفتت اليه وهى تهمس فى جد : « ليس الأمر أمر الاناء الذى تصنع القهوة فيه ، وانما هو فى كيفية عملها » ٠٠ وبعد أن صعدت بضع درجات أخرى ، قالت له : « الأمر كله يتوقف على كلمة طازج » ٠٠ ثم استمرت فى صعود السلم ٠٠ « طازج فى تحميصه ، وطازج فى طحنه ٠٠ والماء طازج فى غليانه » ٠٠ وبلغت مارجرى العجوز آخر درجات السلم وقد تقطعت أنفاسها ، ثم انحرفت متسللة فى ممر معتم مغطى بسجاد كثيف ، وعلى جانبيه خزانة قديمة وبعض الصور ٠٠

وسألها الطبيب وهو يوائم بين خطواته وخطواتها ٠٠ خطوة منه فى مقابل اثنتين منها : « الى أين نذهب ياسيدة مارجرى ؟ » ٠ فأجابته : « سترى عندما نصل للمكان ياسير دريك ٠٠ ويجب أن لا تلمسها بأى معدن ، بل ادفع بها فى قدر من الفخار ، واضف الماء المغلى عليها حالا ، ثم قلبها بملعقة خشبية ، وضعها فوق نار الموقد لعشر دقائق ، حتى يتم نضجها ٠٠ وسترسب قطع البن المجروش فى قاع القدر ، ولو أنك قد لا تفطن الى ذلك ٠ ثم تصب القهوة صافية ، قوية ، ذات نكهة ٠٠ ولكن السر كله فى أن كل شىء طازج ، طازج ٠٠ ويجب أن لا تقتصد فى كمية البن ! »

ثم توقفت مارجرى العجوز أمام باب فى نهاية الردهة ، وطرقته طرقا خفيفا ، ثم نظرت الى الطبيب ويدها على مقبض الباب ، وقد فاضت عيناها الاسكتلنديتان الوفيتان باهتمام وحماسة ورجاء ٠ وقالت : « ويجب أن لا تنسى الملعقة الخشبية ، ياسير دريك » ٠ فتأمل الطبيب الوجه المكتهل

الرحيم ، الذى كان يتطلع اليه فى النور الخافت ، وقال لها فى جد ورصانة: « لن أنسى الملعقة الخشبية ياسيدة مارجرى » ٠٠ فأدارت مارجرى العجوز مقبض الباب ، وهى تهمس بغموض شديد : « ها هو ذا السير دريك يا آنسة جراى ! » ٠٠ ثم أشارت الى الدكتور بالدخول الى حجرة استقبال صغيرة مريحة ٠٠ وكانت النار تتقد فى المدفأة ، وقد جلست جين فى مقعد كبير - ذى ظهر مرتفع - أمام النار ، وقدماها فوق حاجز المدفأة ٠ ولم ير سوى قمة رأسها وركبتيها الطويلتين اللتين لا يملك أن يخطىء معرفتهما ٠ ولكنه سمعها تقول ، وفى صوتها رنة الشكر العميق : « أواه ياديكى ! أهـذا أنت ؟٠٠ أدخل ياصديقى ، واغلق الباب خلفك !٠٠ هل نحن على انفراد ؟٠٠ تعال سريعا - من هنا - لنتصافح ، حتى لا أتعثر فى البحث عنك ! »



وفى لحظة ، بلغ الدكتور بساط المدفأة ، فجثا على ركبة واحدة أمام المقعد الكبير ، وأمسك باليدين الممدودتين اليه ٠٠ وهتف : « جانيت ٠٠ جانيت »٠ ثم عقدت الدهشة واللهفة لسانه ، فصمت ٠٠ اذ ألفى جين معصوبة العينين بوشاح حريرى أسود ، طوى أربع طبقات وعقد على شعرها الناعم خلف رأسها ٠٠ وكان ثمة عجز مؤثر يشيع فى الجو المحيط بهذا القوام الكبير ، القادر ، وقد جلست صاحبته وحيدة فى هذه الحجرة الصـغيرة ، المشرقة ، لا تحرك ساكنا !٠٠ وللمرة الثالثة ناداها الدكتور قائلا : « جانيت !٠٠ أتسمين هذه عطلة الأسبوع ؟ » ٠ فأجابته جين : « لقد ذهبت لأقضى عطلة الأسبوع فى بلاد لا تبصر ، يا عزيزى ٠٠ أواه يادريك !٠٠كان لابد من أن أفعل هذا ، اذ أن الطريقة الوحيدة لمساعدته حقا ، هى فى تعرفه كنه حاله ، بكل دقائقهـا المؤلمة ٠٠ اننى لم أكن قط واسعة الخيال ، وقد استنفدت القـدر الضـئيل الذى كنت أمتلكه منه ٠ و « هو » لا يشكو مطلقا ، ولا يوضح كيف تقسو عليه الظروف ، لذلك كانت الطريقة الوحيدة لتبين ذلك ، هى أن أعيش فى

حياته هذه لثمان وأربعين ساعة ٠٠ والعجوز مارجرى وسمسون يعملان على معاونتى فى ذلك ، على أبدع وجه ٠ فسمسون يخلى لى الطريق اذا أردت النزول أو مغادرة الدار ٠٠ ذلك لأن وجود اثنين ضريرين فى بقعة واحدة ، قد يؤدى الى مشكلة اذا اصطدما معا ، دون أن يفطنا الى ذلك ٠٠ أما مارجرى فتعاوننى بكل الأمور التى أعجز عن القيام بها ، وما أحسبك تصدق كثرة هذه الأمور ياديكى !٠٠ ثم هناك الظلام الفظيع ٠٠ الفظيع ٠٠ انه ستار سوداء مسدلة دواما أمام عينيك ، تبدو أحيانا صلبة متينة كجدار من الفحم على بعد بوصة من وجهك ٠٠ وتغوص أحيانا فى أعماق لينة من السواد ٠٠ أميال وأميال من الظلام البعيد ، الصامت ، الرهيب ، الى أن تشعر بأنه لابد لك من أن ترتمى فيه ، فتغرق ، ويبتلعك ٠٠ ومن ذلك الظلام تخرج أصوات، فاذا كانت مرتفعة ، فانها تقرع رأسك كما لو كانت مطارق ثقيلة ٠٠ واذا كانت دمدمة غير واضحة ، فانها تبعث فيك الجنون ، لأنك لا ترى مبعثها٠٠ لا ترى انهم يضعون فى أفواههم دبابيس تضطرهم الى الدمدمة ، أو اذا كانوا يدسون رؤوسهم تحت الأسرة بحثا عن أشياء سقطت منهم ، ولهذا تلوح أصواتهم وكأنها صادرة من تحت الأرض ٠٠ ولأنه لا يمكنك أن تستبين سببا لذلك ، فان تباين الأصوات يعذبك ٠٠ آه ! وهناك ساعة اليقظة فى الصباح، اذ ترى ذات الظلام الذى اكتنفك طوال الليل٠٠لقد جربتها مرة واحدة، فقد بدأت ظلامى بعد تناولى العشاء مساء أمس ، وأؤكد لك ياديك اننى أرتعد فزعا من تكرارها صباح باكر ٠٠ فكر قليلا فيما تشعر به حين تستيقظ كل صباح ، وليس لك أى أمل أو احتمال لأن تعود ثانية لرؤية نور الشمس ٠٠ ثم ، هناك الوجبات ٠٠ »

فانبعث صوت الدكتور فى قلق بالغ : « ماذا ؟٠٠ أتبقين على هذا الحال ؟»٠ فأجابته جين : « طبعا ٠٠ ولا يمكنك أن تتصور ذلة المرء حين يتحسس جوانب الطبق بحثا عن الطعام ، فيجده أحيانا فوق غطاء المائدة ٠٠ أو حين تعتقد تماما ان فى الصحاف بقية من الطعام ، حتى اذا يئست من العثور عليها ، وطلبت كمية جديدة ، اذا بك تكتشف فجأة أن البقايا ملقاة فوق ملابسك ٠٠ لقد أدركت الآن السر فى أن فتاى المسكين يأبى أن يشركنى وجباته ٠ أما بعد الآن ، فأعتقد أنه سيقبل ، وسأعرف تماما كيف أساعده وكيف أبتكر له وسائل يتمكن بها – مع الوقت – من تناول طعامه دون مشقة ٠٠ آه ٠ ياديكى ! كان لابد أن أفعل ذلك ، اذ لم تكن ثمة وسيلة أخرى ! »٠ ورد الطبيب فى هدوء : « أجل ٠٠ لم يكن ثمة بد من أن تفعلى ذلك » ٠ ولم تتبين جين – فى عماها – خلجات وجهه عندما أضاف قائلا : « وما كانت ثمة

وسيلة أخرى ، بالنسبة لك أنت بالذات ! » ٠فهتفت : « آه ، ما أشد سرورى يادريك اذ أراك أدركت الحاجة الماسة الى ما أعمل٠٠فلقد أوجست من أن تحمل عملى على محمل العبث أو السخف ٠٠ ولقد اقتضى الأمر أن أقوم بذلك الآن ، والا فلن أقوم به مطلقا ، لأننى أثق تماما بأنه اذا صفح عنى ، فستكون هذه آخر عطلة أسبوعية أقضيها بعيدة عنه ٠٠ أتعتقد يا فتاى أنه سيصفح عنى ؟ »

ومن حسن حظ جين أنها لم تكن ترى فى تلك اللحظة ، اذ ابتلع الدكتور كلمة على طرف لسانه ، وقال : « صه يا عزيزتى ٠٠ انك تبعثين فى نفسى الحسرة لغياب ببغاء الدوقة ٠ ولن يجدى حضورى الى هنـا ، اذا لم أتذرع بالصبر مع دالمين ٠٠ والآن خبرينى ، أحقا لن تخلعى هذه العصـابة ؟ » ٠ فأجابته جين قائلة : « لن أخلعها الا لأغسل وجهى ، وسأكون مطمئنة الى أننى لن أفتح عينى لمدة دقيقتين ٠ لقد شعرت ليلة أمس برأسى يلتهب ، حتى اننى لم أتمكن من النوم ، فأزحتها عنى لمدة ساعة أو ساعتين ٠ ولكنى استيقظت قبل الفجر وأعدتها الى مكانها ! » ٠ فهتف متسائلا : « أو تعنين أنك ستبقينها هكذا الى صباح باكر ؟ » ٠ وابتسمت جين فى عزم وحرارة ، فقد ادركت ما انطوى عليه سؤاله ، وأجابته فى رقة : « بل الى مساء باكر ! »

واذ ذاك صاح الطبيب فى استنكار واحتجاج : « ولكن يا جانيت ٠٠ لا ريب أنك تودين أن نلتقى قبل سفرى ، يا بنيتى العزيزة ٠٠ ألا ترين فى اطالتك التجربة مغالاة لا ضرورة لها ؟ » ٠ فأجابته جين وهى تميل نحوه ، وعيناها المعصوبتان تثيران الاشفاق : « مطلقا ٠٠ ألا ترى يا عزيزى انك قد اتحت لى الفرصة التى تمكننى من أن أجتاز تجربة ــ ستكون عندما تحين ــ من أقسى صنوف التجارب التى يمر بها « هو » ٠٠ حين يأتى اليه أصدقاؤه ويذهبون ، فلا يكونون له سوى مجرد أصوات ولمسات ٠٠ اذ أنه لا يرى وجوههم ، ولا يذكر سوى صور باهتة لها ٠٠ ان مجرد سماع صوتك دون رؤيتك ــ يادريك ــ أمر قاس ، حتى أننى لأشعر بما فى عملى هذا من اكتساب ميزة تمكننى من أن أشاركه ماهو فيه٠٠ يجب أن لا يضطر الى أن يقول : « آه ، ولكنك رأيته قبل أن يرحل » ٠٠ بل أود أن يكون بوسعى أن أجيبه : « لقد جاء وذهب ياصديقى الحميم ، دون أن تراه عيناى البتة ! »

وسار الطبيب الى النافذة فوقف بجوارها ، وهــو يردد صـفيرا خافتا ٠ وأدركت جين أنه يغالب استياءه ، فانتظرت متجلده ٠٠ وبعد حين ، كف عن الصفير ، وسمعته يضحك ٠ ثم عاد فجلس الى جوارها ، وقال : « لقد كنت دائما عزيزة تنشدين الكمال الشامل ، ولا ترتضين أنصاف الحلول ، لذلك

فلابد لى من أن أوافق »٠فمدت جين يدها تبحث عن يده قائلة :« آه يافتاى!٠٠ الآن يمكنك أن تساعدنى ، وما عهدتك من قبل ميالا الى الأنانية قدر ماكنت فى هذه المرة ! » ٠ وأجابها الطبيب : « ان الرجل الآخر ، هو « المشكلة دائما » ٠ ففى طبيعتنا ـ نحن الذكور المتوحشين ـ ما يدفعنا لأن نستأثر بالمكانة الأولى لدى نسائنا٠ليس لدى امرأة واحدة فحسب ،وانما لدى كل النساء اللائى نعتبر أحيانا ـ فى غرور مسف ـ ان لنا عليهن حقوقا٠١٠ انك تجدين ذلك فى كل مكان ٠٠ الآباء مع بناتهم ، والاخوة مع أخواتهم ، والأصدقاء مع صديقاتهم٠ فاذا جاء « الرجل الآخر » ، كان بمثابة حبة من دواء ، لابد من ابتلاعها !٠٠ واذا لم يخب ظنى فالأمر طبيعى ، ولو أنها طبيعة آيلة للتداعى ، ولذلك يجب مغالبتها ٠ ولكن دعينى أذهب الآن لأبحث عن قبعتك ومعطفك ثم أصحبك فى نزهة الى الغابة ٠٠ كلا ؟ ٠٠ ولم ؟ لقد تعودت البحث عن حوائج فلاور ، ولذا فلى دراية بالأماكن التى توضع فيها ٠ لا بأس ، فلأستدع لك مارجرى ٠٠ ٠٠ ولكن لا تبطئى ، ولا تخافى أن يسمعنا « دالمين » لأننى قد رأيته ـ منذ لحظة ـ يسير ذهابا وايابا فى الشرفة ، وهو يامس الجدار بعصاه لمسا خفيفا ، بين حين وآخر ٠٠ الى أى حد قد بلغ بك المطاف حتى الآن ؟ ٠٠ سنتحدث طويلا فى حرية ، ونحن نسير فى الغابة ٠ وأثناء قيادتى اياك ، يمكننا أن نهتدى الى الحلول التى تنفعك عندما يحين الوقت لتقودى بنفسك « الرجل الآخر » ٠٠ فقط أرجو أن تكونى حريصة فى هبوطك درجات السلم مع العجوز مارجرى ٠٠ تصورى ما يحدث لو أنك سقطت فوقها يا جين ! ٠٠ خسارة ، فانها تجيد عمل القهوة الفاخرة ! »٠

الفصل الرابع والعشرون



• **ساد** حجرة المكتبة بقصر (جلينيش) سكون عميق ، وقد جلس جارث ودريك معا ، يدخنان فى ائتلاف كامل ،

ويتذوقان الشعور بالارتياح والهدوء اللذين يتولدان فى أعقاب عشاء فاخر وقضاء النهار فى استنشاق هواء المروج .. وكانت جين تجلس فى الحجرة التى احتبست نفسها فيها - بالطابق الاعلى - معصوبة العينين ، وقد استسلمت الى ظلمة اختيارية لا تملك فيها سوى الانصات .. وخيل لها انها تسمع دمدمة خافتة فى الحجـــرة الواقعة تحت حجرتها ، تنم عن حديث طويل مستمر .. كان من المؤسف حقا ، انها لم تكن تستطيع أن تراهما وهما جالسان معا ، وقد بدا كل منهما فى خير حال .. كان جارث فى سترة العشـــاء التى تناسقت مع قوامه المشوق ، بينما ارتدى الطبيب ملابس السهرة الانيقة على أكمل طراز ، وقد تكبد مشقة احضارها ، **لعلمه بأن جين تحب من أصدقائها الحرص على ارتداء ملابس الســـهرة فى أوقاتها . وما كان ليحلم بأنها لم تؤت عينين لترياه !**

وكان الطبيب مجبولا على الاناقة الدقيقة فى ملبسه ، وكان حريصا على ان تتمشى ملابسه مع احدث ما يعرف فى عالم الاناقة ، ما عدا السترة الرياضـية المصـنوعة من صوف (نورفولك) ، والتى كان يصر على الاحتفاظ بها - للمناسبات التى يريد ان يشعر فيها براحة جســدية - رغم ما بذلته الليدى براند من محاولات رقيقة ، تكررها فى كل مناسبة ، حتى يقلع عن ارتداء هذه السترة . وكانت تقول له : « لو قدر للحائك المسكين - الذى صنع لك هذه السترة - ان ينهض من قبره ويراك مرتديا اياها الآن ، فانى أعتقد أنه سيثب الى قبره ، يحدوه الخجل اذ يرى لباسا عتيقا مثل هذه السترة يحمل اسمه ، ولا يزال معلقا على كتفى احد عملائه ! » . فكان الدكتور يقارعها الحجة قائلا : « يا حبيبتى ، لم تدرجـين فى عداد الاموات حائكى المبدع . الواقع أنه لا تزال أمامنا - هو وانا وهذه السترة المريحة - سنوات عديدة من العمل والجد! »

وفى مناسبة أخرى أرسلت فلاور زفرة عميقة ، وهى على مائدة الافطار - بعد أن أطلت من النافذة على مظاهرة سار فيها حشد من العاطلين - فسألها الدكتور عندما سمع تنهدها ، وهى ظاهرة لا تفوته : « ما خطبك يا جميلتى ؟ » فقالت له : **« كنت أمنى النفس يا دريك بأن يبدو هؤلاء العاطلون أكثر رثاثة - فى المظهر - مما هم ، فكنت أعطى سترتك « النورفولك » العتيقة لواحد منهم . أما وهم كما رأيتهم ، فاننى اخجل من ان اقدمها لاحدهم ! »** . فقال الطبيب مبديا الحزم ، بينما كانت عيناه تتطلعان الى الوجه الجميل الذى أمامه بنظرة حنو ورقة : « آمل أن لا تفعلى ، يا عزيزتى ! »

- ولكن ، ثق يا دريك أننى سأعطيها لاى شيخ فقير مهلهل الثياب يمر ببابنا !

فقال الطبيب : « حسنا يا حبيبتى » . وبذلك ختم الحديث ، وجمع رسائله ، وألقى نظرة على ساعته ، وهو يقول لها : « ولكن ، تأكدى من أننى سأوفد توا من يقتفى اثر الفقير الكهل ، ويشترى منه سترتى بثمن باهظ ، على أن تتكفلى انت - يا فلاور - بدفع الثمن . ولذا أرى من الحكمة أن تعطى الفقير شلنا ولا تتدخلى فى أمر سترتى ! » . فدمدمت فلاور قائلة : « ان الفقير المسكين سيعتقل بلا شك اذا مر بشارع (ويمبول) مرتديا هذه السترة » .. فوافقها الطبيب قائلا : « أجل ، فان أشد رجال البوليس غباء سيدرك أنها - ولابد - مسروقة .. بينما تنجو السارقة الحقيقية التى سأضطر الى أن اتقدم لدفع الكفالة عنها ، لو انهم قبضوا عليها ! » . ثم وقف بجوار مقعدها ، ولف الوجه الجميل براحتيه النحيلتين السمراوين ، وقال لها فى رقة : « وبذلك لن تكون سترتى العتيقة أول ما سرقته منى ! » .. وكان رد فلاور كافيا لان يجعله

ينطلق الى عمله راضيا كل الرضى !

* * *

• **وكانت** السترة « النورفولك » الرياضية قد اشتركت في نزهة – في ذلك الصباح – مع جين ، وقد عرفتها « جين » باللمس عندما تأبط الدكتور ذراعها ، فتبادلا الضحكات عنها .. أما في المساء ، فقد طواها سمسون ووضعها في حقيبة ثياب الطبيب ، الذي ظهر في أروع اناقة . وجلس في مقعد ذي ذراعين أمام مدفأة المكتبة ، وقدماه الطويلتان معقودتان احداهما فوق الاخرى، وكتفاه العريضتان غارقتان في المقعد !. أما جارث فكان يجلس في مقعد يشعر فيه بدفء المدفأة ، مما كان يبعث فيه ابتهاجا في تلك الامسية الباردة التي أعقبت دفء ذلك النهار من أيام الربيع .. وكان مقعده مواربا في وضعه ، بحيث يستطيع « جارث » أن يخفي وجهه بيده عن زائره ، اذا هو شاء .

وما لبث الدكتور براند أن بدأ الحديث ، وهو يجهد ذهنه في التفكير : « أجل .. بوسعي أن ادرك بسهولة ان كل الاشياء – التي تصل اليك في هذه الظلمة – تتفاوت نسبيا ، وتكتسب قيما عالية ، مغالى فيها .. بيد انني اعتقد أنك ستلقى – مع مضي الزمن ومع تدرجك في الاختلاط بالناس – تعديلا كبيرا، يعيد الامور الى نصابها ، فتصبح أقل حساسية للاصوات واللمسات التي تواتيك من الغير . أما الآن ، فان جهازك العصبي بأسره ، شديد التوتر ، فهو يتجاوب – باهتزازات مغالى فيها – مع كل مؤثر يقع عليك . **ذلك لان الجهاز العصبي الشديد التوتر ، يغالي في تصوير المؤثرات .. وفي حالة فقدان وسيلة الابصار ، تجمع بقية وسائل الاتصال بالعالم الخارجي – مثل السمع واللمس – حول نفسها مزيدا من قوة أعصاب، وتصبح مرهفة الحس الى درجة مؤلمة . ثم لا تلبث الامور أن**

تقوم نفسها ، فتصبح هذه الحواس الباقية حادة ودقيقة بالقدر النافع ، فحسب . والآن ، ما الذى كنت تريد أن تقوله بصدد عدم مصافحة الممرضة روزمارى اياك ؟ »

وقال جارث : « آه حقا .. ولكننى أريد – قبل ذلك – ان استفسرك عما اذا كان لمهنتها او لنقابتها أو لمعهدها أو لاية جهة تتصل بها ، قانون يمنع الممرضات من مصافحة مرضاهم » .. فأجابه الطبيب : « لم أسمع بشىء من ذلك » . فاستأنف جارث حديثه قائلا : « اذن فلا بد أن ما دعا الى ذلك ، هو تقدير الآنسة جراى السليم لما احتاج اليه وما لا أحتاج اليه . فهى – منذ اللحظة الاولى – لم تسمح لنفسها بمصافحتى ، بل ولم تمسنى بأية وسيلة أو علة .. حتى اننى لم أشعر بأصابعها تمسنى مرة واحدة ، وهى تدفع الى بالرسائل والاشياء ، الامر الذى يحدث عشرات المرات يوميا ! » . فتساءل الطبيب وهو ينفث دخان لفافته فى حلقات متصاعدة فى الهواء ، ويرمق وجه الرجل الاعمى بدقة بالغة : « وهل يسرك هذا ؟ »

فأجابه جارث فى حماسة : « آه ، اننى لشديد الامتنان لعملها هذا .. أتعلم يا براند بأن شعورا راودنى – عندما اقترحت أن توفد لى امرأة تعمل ممرضة وكاتمة سر – بأننى لن أطيق وجود امراة بجانبى ولن أحتمل ملمسها ؟ ! » . فعقب الطبيب عليه فى هدوء : « هكذا قلت لى ؟ » فهتف جارث : « لا ؟ ! .. هل قلت ؟ .. لا بد أنك ظننتنى فظا ! » . فأجابه الطبيب : « أبدا .. ولكنك مريض فى ظروف غير عادية .. وعادة .. » . فقاطعه جارث بشىء من الضجر : « اننى لاجرؤ على القول بأننى صادفت فترة فى حياتى ، كنت أتوق فيها الى أن تكون ثمة يد ناعمة صغيرة حولى .. وأقول الآن – ولا أخشى شيئا – اننى كثيرا ما كنت خليقا بأن أمسك بتلك اليد ، ولعلى كنت أقبلها .. من يدرى ؟ .. لقد اعتدت ان افعل

امورا كهذه ، بخفة لا بأس بها .. **ولكن ، عندما يتعود الرجل – يا براند تأمل ما أقول .. عندما يعرف الرجل ملمس امرأة معينة ، ثم لا يبقى من هذه اللمسة غير ذكرى ، ويجد نفسه ملقى فى غياهب الظلام .. فان تلك الذكرى تصبح من الامور القلائل التى تبقى له ، وفى بقائها عزاء له لا سبيل الى وصفه .. فهل يدهشك اذا أوجس الرجل خوفا من لمسة أخرى ، قد تعكر أو تطمس – لاى سبب – تلك الذكرى وتحل محلها ، أو تنتزع منها قداستها المطلقة ! »** . فأجابه الطبيب فى تأن : « اننى أفهم جيدا ما تقصد .. صحيح أن هذا لم يدخل فى نطاق تجاربى ، ولكننى أفهمه جيدا .. غير أن هذا – يا فتاى العزيز – لا يتم الا اذا كانت تلك « المرأة الوحيدة » موجودة . وهو ما يجوز لنا – فى حالتك هذه – أن نرتاب فيه ، فقد كانت فى حياتك نساء كثيرات .. ولو أنها كانت موجودة ، فمن المؤكد أن مكانها يجب أن يكون بجانبك ، وان لمستها تصبح من أهم ما بقى لك ! »

وقال جارث ، وهو يشعل لفافة أخرى : « آه قل لى هذا الرأى ، فانى أحب ان أسمعه منك ، ولو انه أشبه بقولك : ما دام المنظر الذى تطل عليه الشرفة باقيا ، فان بوسعى أن أراه ! .. ذلك لان المنظر لا يزال باقيا ، ولكن عجزى عن الابصار يحول دون أن أراه ! » . فأجابه الطبيب وهو يميل قليلا ، ليلتقط عود الثقاب الذى لم يلقه جارث فى المدفأة تماما فسقط بعيدا عنها : « وبتعبير آخر : انك لم تكن « الرجل الاوحد » لها ، بالرغم من أنها « المرأة الوحيدة » لديك ؟ » . فأجابه جارث فى مرارة ، وبكلمات خافتة : **« نعم .. لقد كنت مجرد غلام .. فى نظرها ! »** . ولكن الطبيب استطرد ، وكأنه لم يسمع العبارة : « أو لعلك ظننت انك لم تكن « الرجل الاوحد » ، فى حين أنك – فى الواقع – « الرجل الاوحد » لتلك المرأة الوحيدة ،

ما لم يكن قد سبقك فى الميدان شخص آخر .. ولا يتطلب الامر سوى صبر ووقت لاقناعها ! »

★★★

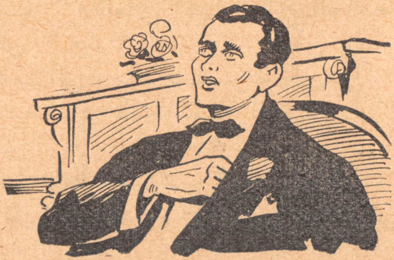
• **واعتدل** جارث فى جلسته ، والتفت نحو الطبيب بوجهه الذى ارتسمت عليه الدهشة ، وقال : « ياله من منطق غريب .. هل تعنى ماتقول ؟ » فأجابه الطبيب باقتناع بالغ : « تماما .. فاذا أنت استبعدت كل الاعتبارات الاخرى ، كالمال ، والاراضى ، والالقاب ، ورغبات الاصدقاء ، والشواغل الظاهرية .. **اعنى اذا استبعدت اعجاب كل منهما بالجمال البدنى الآخر فحسب ـ لان هذا لا يعدو ان يكون تفضيلا قائما على أسس تشريحية ـ واذا نحن تحررنا من كل تلك النواحى الاجتماعية المعتادة ، أمكنك أن تضع الرجل والمراة فى ((جنة عدن عقلية)) ، وان تدع كلا منهما بواجه الآخر وقد تجردا من كل طلاء مصطنع ومظهر متعارف عليه ، ويصبحان مجرد روح تطل على روح ، ونفس تنظر الى نفس فى تجرد ، وفى غير خجل .. فاذا استطاعت ((هى)) ـ تحت هذه الظروف ـ ان تكون الاليفة الحقة له ، الى الدرجة التى تجعل أنبل ما فى الرجل يصيح : ((هذه هى المرأة الوحيدة !)) ، فاننى أقول انه كذلك يكون أليفها ، ولا يمكن ان يخفق فى أن يكون ((الرجل الاوحد)) لها ..** وكل ما ينبغى عليه هو أن يثق فى نفسه ثقة تمكنه من اقناع أليفته بأنه كذلك . وهذه الحقيقة تتفجر فى أعماقه فى قوة كاشفة . أما بالنسبة للمرأة ، فانها تتكشف لها فى بطء وتؤدة ! »

وغمغم جارث فى تخاذل : « يا الهى .. لقد كان الامر كذلك تماما .. جنة عدن .. روح تطل على روح ، دون أى تحفظ ، ولا وجل ، ولا مواراة .. لقد عرفت فيها زوجتى ، ودعوتها بذلك . وفى اليوم التالى دعتنى **((مجرد غلام))** لا تستطيع

أن تفكر لحظة فى الزواج منه . فما مصير نظريتك الخرقاء أزاء ذلك ، يا براند ؟ » . فأجابه الطبيب فى هدوء : « ان ما تقوله يدعمها . فان حواء تهرب من آدم ، وتختبىء بين أشجار الجنة ، فى غمرة التوجس من الهناء الهائل ، والشك فى النفس ، والخوف من عجزها عن تحقيق ما يتصوره فيها من مثل أعلى . فلا تتكلم عن النظريات الخرقاء يا بنى ، وانما تكلم عن الواقع الاخرق الذى يتمثل فى آدم اذا لم يسارع الى مطاردتها وامتلاكها ! » . فاعتدل جارث فى مقعده ويداه تشدان على ذراعى المقعد ، اذ أن صوت الطبيب بدأ يوقظ فيه الشكوك أزاء رأيه فى الموقف ، لاول مرة منذ اللحظة التى استدار فيها وأدبر خارجا من كنيسة قرية (شنستون) ، من ثلاث سنوات مضت .

وكان وجهه شاحبا ، واستبان الطبيب — على وهج نار المدفأة ، الذى كان ينعكس عليه — ان العرق كان يتصبب على جبينه . وما لبث جارث أن قطع السكون قائلا : **« أواه يا براند ، اننى أعمى ! .. فرحماك وترفق بى . ان الامور تتخذ فى الظلام معانى أقسى وامر ! »** . فتروى الطبيب مفكرا .. ولو تسنى لمرضاته وطلبته أن يشاهدوا منظره ونظرته فى تلك اللحظة ، لحدسوا أنه كان يجرى عملية جراحية دقيقة وخطيرة الى أبعد حد ، بحيث أن أتفه زلة من المبضع تكفى لان يموت المريض .. وما كان حدسهم مجانبا للصواب ، فقد كان مستقبل شخصين معلقا بأكمله فى الميزان ، متوقفا — فى هذه الازمة — على رباطة جأش الجراح وثباته ، وعلى خفة لمساته بوجه خاص . ولم يكن الطبيب قد حسب حسابا لهذا الوجه المرهق المتقع — تحت وهج نار المدفأة — وحبات العرق المتفصدة عن عذاب النفس ، وهتافه : « انا أعمى ! » .. تلك كانت صورة « للرجل الآخر » لا يجسر على تأملها دون تأثر وألم . **غير أن افكار ذاك الشخص الصبور المعصوب العينين — الذى كان يجلس فى**

الحجرة العليا ، ينتظر فى قلق ، وقد بسط يديه الحبيبتين فى عجز تام – ردت الى أعصاب الطبيب هدوءها ، فأخذ يحدق فى النار ، ثم قال فى هدوء : « قد تكون أعمى يا دالمين ، ولكنى لا أحب أن تكون أخرق ! »



وسأله جارث : « هل أنا .. أتراني كنت .. اخرق ؟ » . فأجابه الطبيب : « وكيف لى أن أحكم .. اشرح لى الظروف بجلاء – من وجهة نظرك – اعطك رأيى فى الامر ! » .. وكانت لهجة الطبيب رزينة وواقعية ، فسكبت فى نفس جارث سكينة وسلاما .. كأنما كان الطبيب يتحدث عن التهاب فى الحنجرة أو مبادىء داء « عرق النساء » . فاضطجع « جارث » فى مقعده ، وغرس يده فى جيب صدر سترته ، ليتحسس خطابا كان فى داخله .. أيجرؤ على المجازفة ؟ .. هل له – ولو مرة واحدة – أن يخفف عن نفسه ، فيفضى بمتاعبه الى رجل يثق فيه أعظم ثقة ، على أن يتجنب – فى الوقت ذاته – افشاء حقيقة شخصيتها لرجل كان يعرفها أوثق معرفة ؟

وراح « جارث » يزن الامور بعقلية لاعب الشطرنج ، ليحدس كل الحركات التى قد تقع بعد تصميمه .. فهل من الممكن أن يكون الحديث من الوضوح بحيث يكون ذا جدوى ، مع تجنب أية اشارة تكشف عن أن « جين » هى المرأة الوحيدة ؟ .. ولو ان الطبيب أصر أو تعجل او اقترح ، لدفع

ذلك جارث الى الصمت . ولكن الطبيب لم ينبس ببنت شفة .. كل ما آتاه هو انه مال نحو المدفأة ، ليذكيها بطريقة بالغة الحذر . ثم القى الى النار بقطعة من خشب الصنوبر الزكى الرائحة . وعندما انتهى من هذه العملية ، راح يصفر المقطع الختامى لترنيمة : « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. ولاول مرة ، لم يفطن « جارث » ـ وقد شغل بالصراع الذى كان يدور فى ذهنه ـ الى وجود صـــوت خارجى ، فلم يدر كيف ترددت فى ذهنه ـ فى تلك اللحظة الدقيقة ـ كلمات المقطع ، فى اصرار رفيق :

« أبعد عنا أعداءنا .. وهب السلام للوطن ..

« وحيث تكون مرشدنا ، فلن يكون ثمة مرض »

وتفاءل بهذه الكلمات ، فاذا بها ترجح كفة الميزان . ومن ثم قال : « براند .. اذا كنت ـ كما أعهدك ـ كريما بحيث تجود على برأى ، فسأتيح لنفسى الراحة البالغة التى تنجم عن ائتمانك على سرى . فهل تعدنى بأن لا تسعى قطعا الى كشف شخصية « المرأة الوحيدة التى أقصدها ؟ » . فابتسم الطبيب وتجلت الابتسامة فى صوته ، مما زاد من شـعور جارث بالطمأنينة : « يا صديقى العزيز ، ليس من خلالى أن أسعى للايغـال فى أسرار الناس ، فهذا نوع من الرياضة الذهنية لا يروق لى ، ولا أستسيغ أساليبه ، ولا أستشعر فيه تسلية او فائدة .. فاذا كنت أعرف حقيقتها فلن تكون بى حاجة الى الحدس .. واذا لم أكن أعرفها ، وكان أصحاب السر راغبين فى ان ابقى جاهلا هويتهم ، فاننى أوثر أن أسرق نقـــودهم عـلى أن اختلس اسرارهم ! » ..

فأجابه جارث : « شكرا لك .. لو كان الامر يتعلق بشخصى ، لما وجدت ما يضيرنى فى أن تعرف السر .. ولكن السر يتعلق بها هى .. حتى لا يظهر اسمها ! » .

فقال الطبيب : « لاشـــك فى ذلك . فما لم تختر « المـــرأة

الدكتور دريك بكل ذلك ، قائلة : ((كل ما أرجو أن يتحقق يا دريك هو أن يكون عقد الزواج صحيحا من الناحية القانونية .. وارسل الينا قائمة الحساب !))

أما الدوقة ـ وهى مثال السيدة المحافظة على التقاليد القديمة ـ فقد أثارت زوابع من النقاش حول اعداد خمار العروس ، وزهر البرتقال ، والحرير الابيض الناصع ، فى حين كانت جين ترفض كل ذلك بقولها : ((يا عمتى العزيزة .. تصورى منظرى وأنا أضع زهرة البرتقال ، كأننى احدى دمى عيد الميلاد .. كما اننى خلقت أنفر دائما من الخمار .. أما الحرير الابيض، فهو الذى درجت على أن أتحاشى أن ارتديه !)) . فصاحت الدوقة : ((اذن ، فما الذى ترغبين فى أن ترتدى فى حفلة زفافك ، أيتها الفتاة الشاذة ؟ !)) . فأجابتها جين وهى تعقد خيطا من الحرير الاحمر كانت تحبكه : ((أى ثوب يحلو لى أن أرتديه فى ذلك الصباح)) . وكانت عيناها تنظران خارج النافذة ، الى حيث جلس ((جارث)) فى الشرفة يدخن سيجارته . فما كان من الدوقة الا أن نهضت قائلة فى لهجة الوعيد : ((ألديك دليل بمواعيد القطارات ؟ وهل لك أن تعملى على وصولى الى المحطة بعد ظهر اليوم ؟))

وأجابت جين ، وهى منهمكة فى عملها : ((نحن دائما على استعداد لراحة كل من يريد السفر ، فى اللحظة التى يطلب فيها ذلك . ولكن ، الى أين أنت ذاهبة ، أيتها العمة العزيزة جينا ؟ .. انك تعلمين أن دريك وفلاور سيصلان الليلة !)) . فقالت الدوقة ساخطة : ((اننى انفض يدى من أمرك ، وأريد العودة الى الجنوب)) .. وجنحت جين الى الملاطفة قائلة : ((لا تفعلى شيئا من ذلك يا عزيزتى .. لقد نفضت يدك منى

« جارث » ، وان لم ينطق بها ، وأدرك مدى عجز أى وصف عن ايفاء ذلك الاسم حقه . ولم يشأ أن يوقف تيار اعترافات « جارث » ، فراح يساعده بامداده بالكلمات ، قائلا : « انها نوع نادر .. نعم ، أفهم جيدا ماتعنى .. وبعد ؟ » . فاستطرد الصوت الشاب الممتاع ، قائلا : « لقد خبرت حالات الهيام كثيرا ، وكنت أظن أن الشيء الاوحد الذى يعنينى فى المرأة ، هو المظهر الخارجى .. كان الجمال بكل أنواعه ، وبأى أنواعه ، يستهوينى لحظة . ولكنى لم أفكر مرة فى الزواج من احداهن ، بل كنت أهفو دائما الى رسم صورهن . وكانت امهاتهن وعماتهن وغيرهن من المسنات ـ فى تلك الحفلات الخاصة ـ يعتقدن بأننى كنت أهدف الى الزواج .. ولكن الفتيات أنفسهن كن يدركن حقيقة الامر .. ولا أعتقد أن أية فتاة على وجه الارض ـ ممن مررن فى حياتى ـ تملك ان تتهمنى بأننى غازلتها !.. كنت أبدى اعجابى بجمالهن ، وكن يعرفن ذلك ، ويعرفن أننى لاأقصد شيئا سوى الاعجاب . وكانت تجارب لطيفة ـ فى حينها ـ وكثيرا ماساعدت على التمهيد لزواج أولئك الفتيات . ولاضرب لك مثلا ببولين ليستر ، فقد لصق اسمها باسمى خلال موسمين كاملين ، ولكنها تزوجت أخيرا من الرجل الذى رسمت صورتها على سلم داره الفاخرة الجميلة !.. أما لماذا لم ألتقط منهن زوجة ، فيرجع ـ فيما أحسب ـ الى أنهن كن كثيرات ، فضلا عن أن جاذبيتهن كانت سطحية !..

ولست أتورع عن أن أصارحك بأن الوحيدة التى كان لجمالها تأثير حقيقى ، هى الليدى « براند » ، ولكننى شعرت بالرضى والاكتفاء بعد أن رسمت صورتها وأظهرتها للعالم فى أكمل آياتها . وما سألت أية امرأة أكثر من أن ارسم صورتها ، وان أتبين فيها نواحى صالحة للتصوير .. وما كان فى مقدورى ان أشرح ذلك للازواج أو الامهات أو الوصيفات ، ولكن النساء

أنفسهن كن يفهمن ذلك جيدا .. ولا تحضرنى – وانا جالس فى ظلماتى هنا – أية ذكرى تثير ضميرى ! »

فقال له دريك براند ضاحكا : « ياللك من فتى طيب .. لقد أسىء فهمك كثيرا فى كل وسط أما أنا فأصدق قولك ! » .. فاستأنف جارث حديثه قائلا : « وبهذا ترى ان الامر كان سطحيا فحسب ، ولم اتجاوز به السطح مرة . أما النساء اللائى فهمتهن كل الفهم ، فمنهن أمى – التى ماتت وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى – ومارجرى جرايم ، التى تعودت أن أحتضنها وأقبلها عند وصولى أو سفرى ، وسأظل على ذلك حتى أقبل وجهها الكهل وهى مسجاة فى تابوتها ، أو حتى تسلمنى هى الى تابوتى .. ان تلك الروابط التى ترجع الى طفولة المرء وصباه ، هى من ألصق وأقدس الروابط فى حياة الانسان .. وهكذا سارت الامور ، الى أن كان ذات مساء من أمسيات شهر يونية ، منذ سنوات !.. كانت هى – « المرأة الوحيدة » – وأنا معا ، فى حفلة خاصة فى احدى القصور القديمة المحبوبة ، فى الريف . وبعد ظهر أحد الايام ، كنا نتبادل الحديث – على حدة – ولكنه كان حديثا صريحا وعرضيا . ولم تكن لدى فكرة عن الرغبة فى الزواج بها – اذ ذاك – لولا أن حدث أمر .. فجأة .. ولا يسعنى أن أزيدك عنه ايضاحا لئلا تتبين منه شخصيتها . **ولكن الذى حدث، كشف لى – فى لحظات قلائل رائعة – عن حقيقة المرأة والزوجة والام فى كيانها .. وعن القوة والحنان ، وعن الكمال التام الذى كانت عليه روحها الصادقة النقية .. وفى خمس دقائق استيقظ فى داخلى تعطش اليها ، لم يتمكن شىء من تهدئته ، ولن يقدر لشىء أن يهدىء سورته ، حتى أقف الى جوارها فى العالم الآخر ..** فى « المدينة الذهبية » ، حيث لا جوع ، ولا عطش ، وحيث لا يكون ظلام ولا حاجة الى نور الشمس أو القمر أو ضوء الشموع ، لان مجد الله سينيرها الى الابد ، وحيث لا

حزن ولا ألم ، لان الامور الماضية تكون قد ولت! » .
وتألق وجـه الاعمى أمام نار المدفأة .. كانت عودته الى الماضى قد زودته برؤى المستقبل المرتجى ! .. وكان الطبيب جالسا فى سكون تام ، يرقب الرؤى حتى خفتت ، ثم قال: « وبعد ؟ » . واستأنف الصوت الفتى حديثه من بين الظلال ، فى لهجة من هبط الى الارض حيث لم يلق سوى الهم والاسى : « وبعد ؟ .. لم يساورنى ـ اذ ذاك ـ أقل ريب فيما طرأ على. فقد أيقنت بأننى أحببتها .. أيقنت بأننى كنت أبتغيها .. ايقنت ان فى حضورها نهارى ، وان غيابها ليل قارس البرودة ، وان كل يوم لم يكن متألقا الا لوجودها ! »
وصمت جارث قليلا ليستعيد انفاسه ، وليمتع نفسه لحظة بالذكريات الماضية الصامتة . ولكن صوت الطبيب قطع عليه الصمت ، وهو يسـأله فى وضوح وصراحة : « أكانت امرأة حسناء ، مليحة ، جميلة ؟ » . فردد جارث كلماته وهو شارد البال : « امرأة حسناء ؟ .. كلا ، وحق السماء ! .. مليحة ، جميلة .. ها قد احرجتنى، فيمينا بشرفى اننى لا ادرى ! » . فقال الطبيب : « انما قصدت : هل كنت مشـوقا لان ترسم صورتها ؟ » . فأجاب جارث : « بل لقد رسمتها ! » .. وجاء رده فى صوت خافت جدا ، يسيل حنانا ورقة . ثم اردف : « ومع ان الصورتين اللتين رسمتهما لها ، قد تمتا فى أسى ، ومن الذاكرة ، الا انهما ابدع تحفة انتجتها .. ولم تكتحل عين بشرية برؤيتهما سوى عينى .. **أما الآن ، فلن تراهما عين مطلقا ، اللهم الا عينا الشخص الذى أرانى مضطرا الى أن أعود اليه بالبحث عنهما واحضارهما لى .. لامزقهما ! » .. فسأله الطبيب : « وذلك الشخص .. ؟ » . وأجابه جارث : « الممرضة روزمارى جراى » !**
وحرك الطبيب قطعة خشب الصنوبر ، فى المدفأة ، فتأججت نارها بلهب زاه ، ثم تكلم وهو يجاهد ليمنع الفرح الذى ارتسم

على وجهه ، من ان يبين فى صوته : « لقد احسنت الاختيار ، فان المرضة روزمارى ستكون خير حفيظ للسر .. حسنا جدا . اذن ، لنا ان نقول ان « المرأة الوحيدة » كانت جميلة . أليس كذلك ؟ » . فتجلت على جارث امارات الحيرة ، وأجاب فى تريث : « لا اعلم .. فليس بوسعى ان اراها بعيون الآخرين .. اما طيفها الذى تجلى لى فى تلك اللحظة المتألقة ، فقد كان يطابق الامور التى املاها الهامى : النفس والروح والجسد .. **كانت لها روح نقية ، وكاملة .. ونفس جميلة نبيلة ، جمعت كل ما ينشد فى المرأة حتى ان الجسد الذى كان كساء للروح وللنفس ، قبس من كمالهما ، فأصبح حبيبا غاليا ! »**

وقال الطبيب بكل لطف : « فهمت .. أجل أيها الصديق العزيز ، لقد فهمت ! » .. ثم همس لنفسه : « أواه يا جين .. يا جين ! .. لقد كنت عمياء بغير عصابة على عينيك ، فى تلك الايام ! »

* * *

• **وما لبث** جارث ان استأنف حديثه قائلا : « مرت بنا أيام مجيدة رائعة . وقد تحققت الآن من اننى كنت اعيش فى وهج يقينى الخاص بأنها هى « المرأة الوحيدة » .. كانت هذه الحقيقة ــ بالنسبة لى ــ واضحة ، عذبة ، رائعة ، حتى اننى لم احلم بأنها لم تتبين لها هى ، كما تبينت لى . ورحنا نعزف الموسيقى معا لمجرد الاستمتاع الطاهر ، وأخذنا نتحدث عن الغير لمجرد التفكه .. وكان كل منا يستمتع بآراء الغير وافكاره ، ويقدرها . ولكنا لم نتحدث عن نفسينا ، لاننا كنا نعلم كل شىء .. **أو على الاقل ، كنت أعلم وأظن ــ وأشهد الله ــ انها كانت مثلى** .. وفى كل مرة كنت اراها ، كانت تزداد تألقا وكمالا فى عينى . ووجدت فى يدى المفتاح الذهبى

الذى كشف لى عن بسائط لم اكن اعيرها — من قبل — اهتماما . فقد كنا — نحن الشبان الذين جمعتنا جامعة الاعجاب بها — نتندر بفكاهات عن ارتدائها « ياقات » وجوارب وأحذية طويلة ، وأثواب قصيرة ، وكيف كانت تضرب ساقها بسوط الخيل ، وتحرك نار المدفأة بمقدم حذائها .. **ولكنى — بعد تلك الليلة — أدركت ان كل ذلك لم يكن سوى سياج أخفت خلفه أنوثتها الرائعة ، التى ثبت انها من نوع اعمق من ان يسبر غوره أى رجل ممن ينظرون الى مجرد القشور السطحية** .. وعندما قدمت — فى المساء — متهادية فى ثوب أسود ثمين ، التصق بقوامها ، وقد زينت صدره بطبقات من « الدانتلا » الرقيقة الفاخرة ، التى استلقت على صدرها ، وراحت تهتز مع خفقات قلبها الكبير الحنون .. أواه ! لقد طربت نفسى — اذ ذاك — وامتلأت عيناى غبطة ! .. لقد رأيتها فى المساء — كما وجدتها طوال النهار — كاملة فى أنوثتها الابية ، العذبة ! »

وقال الطبيب لنفسه : « ألم يفطن حقا الى أن الصورة التى رسمها بحديثه لا تنطبق الا على جين ؟ »

وعاد جارث الى حديثه قائلا : « وسرعان ما اضطررنا الى الافتراق لثلاثة أيام ، ثم التقينا فى عطلة الاسبوع ، فى حفلة خاصة أخرى ، بأحد القصور . وكانت بين الحضور احدى جميلات الموسم ، وقد استباح القوم لانفسهم ان يقرنوا اسمها باسمى .. وقالت « المرأة الوحيدة » شيئا بهذا الصدد ، اقترن بالفراغ الرهيب الذى عانيته فى تلك الايام الثلاثة التى لاحت لى دهرا ، فعقدت العزم على ان افاتحها دون توان .. وسألتها ان تقابلنى — فى الشرفة — فى تلك الليلة .. وكنا وحيدين ، والليلة قمرية صحوة » . وصمت جارث طويلا ، فلم يشأ الطبيب ان يتكلم ، اذ ادرك ان صديقه كان يستعرض فى فكره

كل المسائل التى لا يتحدث بها رجل الى آخر .. وأخيرا عاود جارث حديثه ، فقال بكل بساطة : « **واذ ذاك ، بحث لها ..** » .

ولم يعقب الطبيب بأى تعليق ، وقد اومض فى فكره — فى تلك الآونة — التعبير الذى استخدمته جين : « واذ ذاك .. حدث الامر ! » . هكذا قالت عندما بلغت فى قصـــتها هذه النقطة ! .. وبعد لحظات من الصمت — قضـــاها جارث سابحا فى ذكريات من ضوء القمر ، وقضاها الطبيب فى تفسير عبارات « جين » حرفا بحرف — عاد الصوت الفتى الحزين يقول : « لقد ظننت انها كانت تفهم الامر كما فهمته . ولكننى فطنت — بعد ان اخبرتها — الى انها لم تفهمه مطلقا . كانت تصرفاتها قد حملتنى على الاعتقاد بأننى لقيت لديها قبولا ، واننى قد ضممت الى نعيم حبها الكبير ، حتى وهى محاطة بحبى .. وما كان الذنب ذنبها .. آه ، كلا ، فما هى أهل لاى لوم .. وانما كان الذنب ذنب أنها لم تفهمنى ، ولم تستطع أن تفهم ما كان لاية لمسة من لمساتها من أثر فى نفسى . وما كان فى حياتها الغالية أى رجل من قبل . هذا ما ايقنت منه بغريزة لا تخطىء ، وباعترافها هى . **ولقد فكرت — أحيانا — فى ان من المحتمل ان تكون قد تعلقت فى صغرها بمثل أعلى ، راحت تقيس الرجال — فيما بعد — على أساسه ، فيتضح لها أنهم أقصر منه ، ومن ثم فهى تستبقيهم على بعد مناسب . ولكن ، اذا صح هـــذا ، فلابد أن مثلها الاعلى كان مخبولا أعمى ، اذ لم يحس بهذا الحب الذى يفوق كل ثمن ، والذى كان خليقا بأن يظفر به ، لو أنه حاول** . ذلك لاننى أوقن من انه لم يقدر — حتى تلك الليلة — لحب رجل آخر ان يتأجج حولها ، وانها لم تشعر يوما بأنها محوطة بصرخات الوله والهيام

العارم الذى يفوق كل تصوير ، والذى يوحى بحاجة ماسة جارفة اليها .. وبينما كنت اظنها قد ادركت ، واستجابت — والله على ما أقول شهيد — اذا بها لم تفهم شيئا البتة ، وانما كانت تحاول ان تبدى العطف والكرم ! »

وهنا تململ الطبيب فى مقعده ، وعقد ساقيه فى سكون ، راح يتأمل الوجه الاعمى .. فقد وجد اعترافات « الرجل الآخر » أشد لوعة وضنى مما كان يتوقع ! . وما لبث ان سأله فى صوت أجش : « أواثق أنت مما تقول ؟ » . فأجابه جارث : « كل الثقة .. اصغ الى ، لقد ناديتها بما كنت اشعر انها كانت لى فى تلك اللحظة ، وبما اردتها ان تكون الى الابد — بالنسبة لى — وبما ستظل الى الموت وما بعده .. تلك الكلمة — لا ، بل كانتا كلمتين — تلكما الكلمتان جعلتاها تفهم . هذا ما اتبينه الآن .. وما كان منها الا ان هبت واقفة لدى سماعها الكلمتين ، وابعدتنى عنها وهى تتذرع بحاجتها الى أن أمهلها اثنتى عشرة ساعة ، حتى تبحث الامر فى هدوء . ووعدت بأن تقابلنى فى كنيسة القرية — صبيحة اليوم التالى — لتطلعنى على ردها .. وقد تحكم يا « براند » بأننى كنت أبله . ولكنك لن تتصورنى حمارا كبيرا ، بالقدر الذى اتصور به نفسى الآن .. بيد اننى كنت أوقن يقينا ثابتا بأنها لى .. وكنت متأكدا من ذلك عندما حضرت الى الكنيسة ، وعندما بقينا منفردين فى بيت الله ، فلم اتجه اليها بلهفة العاشق المتوسل ، وانما ناديتها لتقف الى جانبى على عتبة الهيكل ، كما لو كنت حقا زوجها ، وصاحب الحق فى الامر . وجاءت ، فرأيت — اتباعا لاصول اللياقة ، وقبل أن أضمها الى صدرى — ان اسألها ردها .. فكان جوابها : « ليس بوسعى ان اتزوج من مجرد غلام ! »

واختنق صوت جارث وهو ينطق الجملة الاخيرة ، ودفن

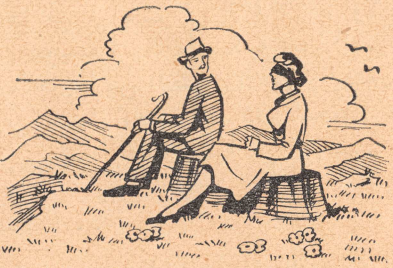
رأسه فى راحتيه .. كان قد بلغ النقطة التى وقف لديها الكون عن الحركة .. النقطة التى كفت عندها كل الاشياء عن ان تكون ـ كعهدها من قبل ـ الى الابد ! .. ولاح ان الحجره كانت فى سكون عجيب ، وكأنما سكب فيها الصوت ـ المتهدج وجدا ـ فيضا جارفا من الحب والامل والحنين .. فكشف عن روح أضفى عليها الحب الصادق للجمال شبابا أزليا ، وعن قلب تحرر وسما بمثله العليا عن كل عبث بحب أدنى ، وامتلأ بقوة جبارة ، وبلغ أعلى ذروة عندما عثر ـ أخيرا ـ على الحب الصادق ..

وارتجف الطبيب عند هذا الحد من القصة ، وكأنما تسربت الى عظامه برودة كنيسة خالية .. وادرك مدى قسوة الامر ، بأكثر مما انبأه « جارث » . فقد كان على علم بالسؤال القاسى المذل : « كم سنك ؟ » .. **لقد اعترفت له « جين » بذلك ، وعرف كيف خبا تألق ذلك الحب الطاهر ، عندما انثنى العقل فجأة الى الداخل ، ليستطلع دخيلة صاحبه .. لقد كان يعرف كل ذلك بصورة مبهمة ، أما الآن ، فقد رآه على حقيقته ماثلا أمامه . رأى عاشق جين المصدوم ، الذى كان بجواره منكس الرأس ، أعمى ، وقد ارتد الى الماضى يعيش فى غمرة تلك المناظر والاصوات التى لا يمكن ان تخفيها ـ او تحجبها ـ أكثر حجب النسيان رحمة !**

ولقد كانت للطبيب ذنوبه ، ولكنها لم تكن كذنوب القديس بطرس . فما تكلم يوما ـ ومهما تكن الظروف ـ لمجرد ان يقول شيئا . ولكنه انحنى الى الامام ووضع يدا حانية على كتف جارث ، وقال : « يا لك من فتى مسكين ! .. آه ، يا للصديق المسكين ! »

وظلا جالسين فى صمت ، على هذا الوضع ، وقتا طويلا !

الفصل الخامس والعشرون



◆ « اذن فلم تبد أى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده !٠٠ أواه ، يا ديكى ! ٠٠ كان جديرا بك أن تتكلم ، وأن تسهب ! » ٠

كانت جين قد تسلقت مع الطبيب ذلك الدرب المنحنى ، الذى يمتـد – من نهاية الشرفة – متعرجا الى بقعة عارية ، وسط أشجار الصنوبر ، فى صباح يوم الأحد الذى ساده الهدوء ٠٠ وكانت ثمة شجرتان قد سقطتا على الأرض متباعدتين قليلا – بحيث تصلحان لأن تكونا مقعدين فى أشعة الشمس ، تجاه منظر بديع يمتـد الى أسفل التل ، ثم عبر الوادى ، ويترامى الى التـلال الأرجوانية القائمـة خلفه ٠٠ وقاد الطبيب « جين » الى الشجرة التى كانت تحظى بأكبر قسط من أشعة الشمس ، ثم جلس بجوارها ، وراح يسرد عليها – فى أناة – حديث الليلة الماضية حرفا بحرف ، ثم قال : « لم أبد أى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده ، لأن هذا كان المسلك الوحيد حتى تبقى متربعة فوق البرج العاجى الذى بوءك اياه ٠ولو أدلينا بأى سبب لتصرفك – سوى جهل بالرجال يشبه جهل الأطفال – لفتحنا الباب لأشياء ثقال فتلقى قبولا ، واذ ذاك تهوين يا فتاتى المسكينة ، ويكون الوقوع أليما ٠ وشلت يدى اذا كانت هى التى تدفع بك الى تلك الهوة ٠٠ تقولين انه كان جديرا بى أن أتكلم وأسهب ، ولكن هذا كان خليقـا – كذلك – بأن يجعلنى أعيش متحسرا نادما ! »

وقالت جين فى استهتار : « لأن أسقط بين ذراعيه وأبقى هناك ، أحب الى من أن أتربع فوق برج عاجى ! » ٠ فأجابهـا الطبيب : « معـذرة يا بنيتى الطيبة ، فقد كان الاحتمال الأصح هو أن تهبطى الى أول قطار سريع يرحل

الى الجنوب .. بل اننى لا أجزم بأنك كنت تنتظرين القطار السريع ، حتى انى لأكاد أتمثل النبيلة « جين شامبيون » تبارح محطة صغيرة ، فى عربة فارغة من ناقلات الفحم . كلا ! لا تنهضى ولا تحاولى السير بخطى واسعة بين قرم أشجار الصنوبر » . وجذبها فأجلسها حيث كانت بجواره ، ثم استأنف قوله : « لو أنك فعلت ، فلن تجنى سوى أن تتعثرى وتهوى فى وضع رأسى الى الوادى . وليس من المفيد تعجل السقوط الذى لا مناص منه ! » . فتنهدت جين ، ووضعت ذراعها فى ذراعه ، وأحنت رأسها لتخفى عينيها المعصوبتين فى سترته الصوفية الخشنة فى ثنايا كتفه ، وهى تقول : « أواه يا ديكى ! .. لست أدرى ما الذى ألم بك اليوم . انك لم تعد لطيفا معى .. لقد مزقت روحى التعسة بتكرارك كل ما قاله جارث فى الليلة الماضية .. وبفضل ذاكرتك المرهفة الفظيعة ، استطعت أن تقلد رنات صوته وتباين نبراته .. ثم ، وبدلا من أن تسرى عنى ، اذا بك تتركنى غارقة الى أذنى فى الخطأ ، بل اننى قد ترديت ! » .

وقال دريك : « فى الخطأ ، هذا حق .. أما أنك ترديت فلا .. وما قلت اننى لن أفعل شيئا اليوم ، وانما قلت اننى بالأمس لم أقو على عمل شىء .. فليس فى الوسع أن يأخذ الانسان شيئا جريحا فيقلبه بين يديه ويحلله . وعندما تبادلنا تحية المساء ، قلت له اننى سأفكر فى الأمر ، وأدلى اليه برأيى اليوم .. واذا شئت ، أفضيت اليك بما حدث لى .. لقد تأملت الفجوات الغائرة فى نفس جميلة ، نادرة ، فرأيت مبلغ الدمار الذى تقوى أية امرأة على أن تحدثه فى حياة الرجل الذى يحبها . وأؤكد لك بأن الليلة الماضية لم تكن ليلة راحة وتسلية . وقد استيقظت هذا الصباح وأنا أحس كمن ضرب ضربا مبرحا ! » . فسألته جين بلهجة مؤثرة : « فما بالك بى أنا ، اذن ؟ » . وكان جوابه : « انك لا تزالين تشعرين فى نفسك بأنك على جانب من الحق . وما دمت مصرة على الاعتقاد بأن لديك ذرة من المبررات ، وتتعلقين بها ، فلا أمل فى حالتك .. يجب أن يكون قولك : انى أعترف .. فهل تصفح ؟! »

وصاحت جين : « ولكننى تصرفت بما يحقق الخير .. فكرت فيه قبل أن أفكر فى نفسى .. وكان الأسهل أن أتقبل السعادة السانحة ، وأدع المستقبل للقدر ! »

ـ ليست هذه أمانة يا جانيت .. لقد فكرت فى نفسك أولا .. لم تجسرى على مواجهة الألم المحتمل اذا فتر حبه ، أو خبا اعجابه . ان المرء حين يفكر فى الأمر ، لا يلبث أن يتبين أن كل أشكال الحب الآدمى ـ باستثناء حب الأم وحده ـ أنانية فى جوهرها . وخير فرصة سانحة لدالمن هى أن يوقظ

عجزه الكامل وفقدانه بصره ، الحب الأموى فى نفسك ، واذ ذاك يتضاءل حب النفس !

فتنهدت جين وقالت : « واها لى !٠٠ اننى تائهة ، محطمة ، حائرة فى دياجير الظلام ٠٠ ما من شئ يبدو لى واضحا وما من شئ يبدو صوابا ٠ ولو استطعت أن أرى عينيك الرقيقتين ، لخف ايذاء صوتك القاسى » ٠ وكان رد الطبيب: « اذن ، فاخلعى هذه العصابة وانظرى ! » ٠ فصاحت جين فى غضب : « لن أفعل ! أفتحملت كل هذا ، لكى أفشل فى النهاية ؟ »

– يا بنيتى العزيزة ، ان هذه الظلمة التى تفرضينها على نفسك تؤثر على أعصابك ، فحذار أن تؤدى الى ضرر أكثر مما تؤدى الى خير ٠ اذ أن الأدوية الشديدة ٠٠٠٠

فهمست جين قائلة : « اصمت ، فانى أسمع خطوات ! » ٠ فأجاب الطبيب بصوت خافت : « انك تستطيعين سماع وقع الأقدام فى الغابة ، اذا ما أصغيت اليه » ٠ ثم سكت منصتا ٠ فهمست جين قائلة : «اننى أسمع خطوات جارث ٠٠أواه ، ديكى٠٠تقدم الى حافة الطريق ، وانظر ٠ ففى وسعك أن ترى القادم فى منحنيات الطريق السفلى » ٠ فسار الطبيب الى الناحية التى أشارت اليها فى حذر ، وألقى بنظره على الطريق الذى صعدا فيه ، ثم عاد الى جين قائلا : « حقا ، ان الحظ يحالفنا ٠ فان دالمين صاعد الينا ومعه سمسون ، لن يلبث أن يكون هنا بعد دقيقتين » ٠ فهتفت : « الحظ يحالفنا ؟! يا عزيزى ديكى ، انه لأسوأ طالع ! » ٠ وارتفعت يدها نحو العصابة التى كانت فوق عينيها ، غير أن الطبيب سارع الى منعها ٠٠ وقال : « أبدا ٠٠ لا تفسدى تجربتك فى اللحظة الأخيرة ، فاننى خليق بأن أبقيكما متباعدين وأنتما لا تبصران ٠٠ اطمئنى الى ، وامكثى فى الظلام ٠٠ أعنى فى سكون ٠ ألا تفهمين الآن السبب فى قولى : ان الحظ يحالفنا ٠٠ ان دالمين قادم ليعرف رأيى فى الموضوع ٠ وستسمعانه معا ، فيكون ذلك مدعاة لتوفير وقتى ، كما أنه سيبصرك بكيفية تلقيه الرد ٠ فالبثى الآن دون حراك ٠ وأعدك بأنه لن يجلس فى حجرك ٠٠ ولكن اذا صدرت منك أقل حركة ، فسأدعى انك أرنب برى أو سنجاب ،وألقى عليك قطعا من أقماع الصنوبر »

ثم نهض الطبيب ، وسار متريثا نحو المنحنى الأخير فى الطريق ٠ بينما جلست جين فى ظلامها ٠ وما لبثت أن سمعت ديكى يقول : « هالو دالمين ! لقد اهتديت الى هنا ٠٠ انها بقعة رائعة ٠٠ هل نستغنى عن سمسون ؟ ٠٠ هلم تأبط ذراعى ! » ٠ فأجابه جارث : « نعم ٠٠ قيل لى بأنك هنا يا براند ،

فتبعتك » • ثم سارا معا حول المنحنى ، وبلغا البقعة العارية •

* * *

• وتساءل جارث ، وقد وقف دون حراك : « أأنت بمفردك هنا ؟•• خيل لى اننى كنت أسمع أصواتا » • فأجابه الطبيب : « هذا حقيقى ، فقد كنت أتحدث مع شابة » • وعاد يسأله : « أى نوع من الشابات هى ؟ » • فأجابه الطبيب : « فتاة مليئة بالصحة والنشاط ، ذات مزاج حاد ! » • ومن جديد ، تساءل جارث : « وهل عرفت اسمها ؟ » • فأجاب الطبيب فى غير اكتراث: « جين » • ولكن جارث أسرع قائلا : « ليست جين بل « جان » •• لقد عرفتها ، فهى الابنة الكبرى للبستانى ، وهى تحمل على منكبيها مسئوليات الأسرة •• مسكينة تلك الفتاة ! »

وقال الطبيب : « لقد رأيتها مكدودة حقا ، وما كنت أعرف ان تبعات الأسرة هى السبب • لنجلس على هذا الجذع • هل تستطيع أن تذكر المنظر الذى نشرف عليه من هنا ؟ » •• فأجابه جارث : « أجل ، فانى أعرفه تمام المعرفة •• ولكن الذى يبعث فى قلبى الجزع ، هو أن الصور الذهنية بدأت تبهت جميعا ، عدا صورة واحدة » •• فتساءل الطبيب : « وهى ••• ؟ » • وقال « جارث » ، وهو لا يبصر : « صورة المرأة الوحيدة ! » • فهتف الطبيب: « آه ياصديقى العزيز !•• لم أنس وعدى لك بأن أوافيك اليوم برأيى فى قصتك • لقد قتلتها بحثا وتفكيرا ، ووصلت الى عدة نتائج • أنجلس على جذع هذه الشجرة ؟•• ألا تريد أن تدخن ؟•• ان الحديث يحلو تحت تأثير رائحة التبغ »

وأخرج جارث علبة سجائره فتناول منها واحدة ، أشعلها بكل عناية ، ثم طوح بالثقاب المشتعل ، فسقط فوق أصابع جين •• وقبل أن يسرع الطبيب اليها ، كانت جين قد ألقت بالثقاب بعيدا وهى تبتسم •• فقال دريك لنفسه: « يالها من أعصاب •• ان تسعا وتسعين بين كل مائة امرأة ، ما كن ليحجمن عن أن يصحن : « آه ! » ، ويثرن ضجة •• حقا انها لجديرة بأن تنتصر ! » •• وفجأة نهض جارث قائلا : « أظن أن الأفضل لنا أن ننتقل الى جذع الشجرة الأخرى » •• وأكمل : « لأنها أكثر تعرضا لأشعة الشمس » ••ثم سار ناحية « جين » • ولكن الطبيب قفز أمامه ، فأمسك بيد جين باحدى يديه وجذبها خلفه ، وقاد جارث باليد الثانية الى حيث كانت جين جالسة •• ثم قاد جين الى الشجرة الأخرى •• فعل كل ذلك ، وهو يقول لجارث : « ما أدق تقديرك للمسافات ! » •• ثم جلس بجواره وأردف وأنفاسه

متهدجة : « والآن لنعد الى حديثنا ! »

وهنا سأله جارث : « أواثق أنت من اننا منفردان .. ان احساسا يخالجني بوجود شخص آخر سوانا » . فأجابه الطبيب : « ياصديقى العزيز ، هل بوسع انسان أن يكون منفردا فى الغابة !.. كم من كائنات دقيقة تحيط بنا !.. وكم من عيون براقة تطل علينا من بين فروع الأشجار !.. وكم من أذناب ناعمة تتسلل من الجحور واليها !.. وكم من أشياء غير منظورة تتحرك بين الأوراق الذاوية تحت أقدامنا .. فاذا أردت الوحدة الكاملة ، فتجنب الغابات ! » . فأجابه جارث : « نعم ، أعلم بوجودها ، وأولع بالانصات اليها .. وانما كنت أرمى الى كائن آدمى .. يابراند ، كثيرا ما يساورنى شعور بوجود كائن بشرى غير منظور قريبا منى . أتتصور اننى أكاد أقسم بأنها — « المرأة الوحيدة » — قد جاءتنى فى سكون — منذ أيام — وتأملتنى فى عماى ، وأشفقت على ، بقدر ما وسع قلبها الكبير من حنان . ثم رحلت فى صمت ! » . فسأله الطبيب : « متى كان ذلك ؟ »

— منذ بضعة أيام .. كان الدكتور روب يروى لنا كيف التقى بها فى... آه ، ليس لى أن أذكر المكان . ثم تركنى هو والآنسة جراى وحيدا .. وفى ظلام وحدتى ، والسكون شامل ، شعرت بعينيها تحدقان فى ...

فأجابه الطبيب : « يابنى العزيز .. يجب أن لا تشجع مثل هذه العادة البغيضة المتعلقة بأطياف غير منظورة . وتذكر ان الذين يهتمون بأمرنا اهتماما عميقا صادقا ، يستطيعون أن يشعرونا دائما بقربهم منا عقليا ، ولو كانوا على بعد شاسع ، لا سيما اذا علموا أننا فى ضيق وفى حاجة اليهم.. فلا يدهشك أن تشعر — فى كثير من الأحيان — بقرب « المرأة الوحيدة » ..



اذ أنى أعتقد ـ ولا أقول ذلك جزافا يادالمين ـ بأن كل قلبها وحبها وحياتها لك أنت ! »

فهتف جارث : « يا الهى ! » وهب واقفا وهو ينتفض ، ثم مشى على غير هدى . فأمسك الطبيب بذراعه .. ولو انه توانى دقيقة ، لكان جارث قد تعثر فى قدم « جين » . وقال له : « اجلس يارجـــل واصغ لما أقول .. لن تفيد شيئا من اندفاعك الفجائى فى الظلام على هذا النحو .. وسأبرهن لك على صحة ما أقول ، على أن تعيرنى انتباهك فى هدوء . فانصت الى : اننـــا نواجه فى هذه الحال معضلة نفسية .. معضلة من المحتمل جدا أنها لم تحدث لك أنت !.. أريدك أن تتخيل أمامك ـ للحظة واحدة ـ « الرجل الأوحد » و « المرأة الوحيدة » ، وقد واجه كل منهما الآخر فى جنة عدن أو فى ضياء القمر .. حيثما كان ، وفقا لما يروق لك .. فهـل تستطيع ؟.. ان الأثر الذى يسيطر على الرجل حين يسقط فى حبائل الحب ، هو أن يخلق فيـــه فقدانا كاملا لشعوره بنفسه .. بينما يكون الأثر الذى يســيطر على المرأة ـ من ناحيتها ـ اذا أحبها شخص وأرادها لنفسه ، فاستجابت لنداء الحب ولتلك الرغبة ، هو أن تشعر شعورا كاملا بنفسها .. فالرجل يفكر فيهـــا وحدها ، وهو يتوق الى الظفر بها والاستحواذ عليها .. أما هى ـ التى دعيت لكى تستسلم وتمنح نفسها ـ فان عقلها يتركز بكليته على نفسها .. أتلبى نداءه وتقابل رغبته ؟ .. أهى كما يظنها تماما ؟.. هل فى مقـــدورها أن ترضيه ارضاء كاملا ، ليس فى بداية حياتهما فقط ، بل على طول السنين المقبلة ؟.. وبقدر ما تكون قد عاشت عادية ، غير حافلة بنفســـها ، تكون قسوة صدمة المفاجأة عليها ، وتكون وطأة الشعور والاهتمام بذاتها !

★ ★ ★

◆ والتفت الطبيب ناحية « جين » ، وهى جالسة على الشجرة الأخرى ، على بعد ست أقدام منهما . واذا بها ترفع يديها المعقودتين ملوحة له ، وقد أضاء وجهها نور الارتياح والامتنان . فشـــعر الطبيب بأنه قد لمس الوتر الحساس . أما الوجه الأعمى الجالس بجواره ، فقد كسته سحابة قاتمة ، أخذت تزداد قتاما كلما استرسل الطبيب فى حديثه ، وهو يقول : « لقد فهمت منك ياصديقى العزيز ، انها لم تكن من النوع البارع الجمال الذى عرف عنك انك كنت تعجب به . اما يكون أقرب للعقل انها أوجست خيفة من أن مظهرها قد يفشل ـ بعد حين ـ فى ارضائك ؟ » .. فأجاب جارث بصوت جازم : « كلا .. ان مثل هذا الرأى لا يستحق شيئا . وفوق ذلك ،

فلو أن الفكرة ساورتها ـ على أى احتمال ـ لما كان عليها الا أن تسألنى عن تلك النقطة . وكان قرارى خليقا بأن يكون قاطعا ، وجوابى كفيلا بأن يطمئنها أكمل اطمئنان ! »

وردد الطبيب الحكمة المشهورة : « الحب أعمى ! » . فصاح فيه جارث : « كذب وهراء ! .. ان الحب بعيد النظر ، حتى انه ليرى ما تحت المظهر ، وينتشى بآيات الجمال التى لا تراها عيون غيره ! »

وسأله الطبيب : « اذن ، فأنت لا تقبل نظريتى ؟ » . فكان جواب جارث : « لا أقبلها كتفسير لمعضلتى .. لأننى أعرف جيدا بأن عظمة نفسها كانت تسمو بها فوق مثل هذه الاعتبارات . ولكنى أقر رأيك بشأن النسيان التام للشعور بالذات لدى الرجل المحب ، والا فكيف كنا نقوى ونجرؤ على التقدم للمرأة بطلب الزواج منها ؟ أواه ، يا براند ! .. كلما فكر الانسان فيما وراء ذلك من اقتحام لحياة المرأة الخاصة ، والتماس الحق فى اللمس .. حتى لمس يدها يجب أن يكون بقبولها ورضاها .. كل هذا لا يمكن الاقدام عليه ، ما لم يكن الهيام بها ، والتفكير فيها قد جرفا أمامهما كل تفكير فى النفس ! .. اننى اذ أرتد بفكرى الى ذلك الوقت ، أذكر كيف نسيت نفسى تماما ! .. وعندما قالت لى فى الكنيسة : « ما عمرك ؟ » .. آه لقد سهى على أن أحدثك عن هذا بالأمس .. ان هياج الشعور ـ الذى أحدثه تحويل الأضواء على نفسى ، فى تلك اللحظة ـ كان قاسيا ، حتى لقد لاح أن فرحى قد انكمش ومات جزعا من عدم جدارتى بها ! »

وساد الغابة صمت شامل . وأحس الطبيب بأنه يلعب جولة خاسرة ، فاستحيى أن ينظر الى الجهة الأخرى ، حيث كانت المرأة تجلس صامتة ، وأخيرا تكلم قائلا : « هناك حلان محتملان لمشكلتك يادالمين . هل تعتقد بأن « حواء » ـ فى هذه الحال ـ كانت تتراجع فى خفر العذارى ، متوقعة من « آدم » أن يلاحقها ؟ » . فأجابه جارث بلهجة التأكيد : « آه ، كلا .. كنا قد تجاوزنا كل هذا ، وما كنت لتبدى مثل هذا الرأى لو انك عرفتها شخصيا .. انها صادقة ، صريحة الى أقصى حد ، فما كانت لتخدعنى .. ومع هذا ، فلو ان الأمر كان كذلك ، لكانت خليقة بأن تكتب لى عما كانت تقصد حقا ، بعد أن مرت كل هذه السنوات فى وحدة ، وبعد أن تبينت اننى لم أبد أية اشارة ! »

وسأله الطبيب : « وهل كنت تعود اليها لو حدث هذا ؟ » . فأجابه جارث فى بطء : « أجل .. كنت أعود ، وكنت أصفح عنها ، لأنها لى .. ولكن ما كان للأمر ـ فى هذه الحال ـ أن يحتفظ بجدة الحال الأولى وروعتها .. اذ أن فيه ما يتنافى مع ما تحلينا به معا ! »

فاستأنف الطبيب حديثه قائلا : « حسنا ، بقى أمامى الآن الحل الثانى ٠٠ فلقد اعترفت لى بأن « المرأة الوحيدة » لم تبلغ تماما مستوى الجمال ، فى حين كان حبك وشغفك بالجمال معروفا ٠٠ أفلا تعتقد أن شجاعتها قد خانتها ، خلال الساعات الطويلة التى مرت بها فى تلك الليلة - واستعرض فى ذاكرتك ما قلت لى من انها بوغتت حين انهالت عليها منك مفاجأة الرغبة والحب والعبادة - وأن الرعب ملأ قلبها ، خشية أن تعجز عن ايفائك حقك، وعن اشباع حاجتك ، من حيث الوجه والملامح التى ستبقى أمامك دواما على المائدة ٠٠ ورغما عن حبها العارم وحبك ، فقد دار بخلدها أن الحكمة تقتضى تجنب خيبة الأمل مستقبلا ، بأن ترفض السعادة الحاضرة المؤقتة ٠٠ قد يكون حبها العارم لك هو الذى سلحها لتقدم على هذا القرار ! »

وعند ذلك أومأت الصامتة الجالسة أمامهما ، وظلت صامتة جامدة وقد عقدت يديها فى صبر وانتظار ٠ فقد تولى دريك الدفاع عن قضيتها خيرا مما لو تولت هى الدفاع عنها ٠٠ وساد الصمت الغابة ، وكأن الطبيعة بأكملها قد سكتت منصتة للجواب ٠ وأخيرا سمعت كلمة « لا » تصدر من جارث فى صوت فتى لا يشوبه تردد ٠٠ ثم أردف قائلا : « كان لزاما عليها - فى هذه الحال - أن تكاشفنى بمخاوفها ، فكنت أطمئنها فورا ٠٠ فهذا الاستنتاج كذلك لا يليق بمحبوبتى ! »

وهنا تنهدت الرياح خلال الأشجار ، ومرت سحابة أمام الشمس ، فارتجف الاثنان الجالسان بغير ابصار ، وظلا صامتين ٠ ثم قال الطبيب بصوت عميق الحنان : « يابنى العزيز ، اننى أتمسك ولا أتزحزح عن اعتقادى بأنك « الرجل الأوحد » لتلك « المرأة الوحيدة » ، وان مكانها الشرعى - فى حالة فقدان بصرك - هو بجانبك ٠٠ ولعلها الآن تتحرق لهفة الى أن تكون هنا ٠ فهل تخبرنى باسمها ، وتأذن لى بأن أبحث عنها ، وأسمع من فمها تفصيل قصتها ٠٠ حتى اذا كانت كما أعتقد ، جئت بها اليك لتبرهن لك - وأنت فى محنتك الحالية - على مبلغ حبها وحنانها ؟ » ٠٠ فقال جارث : « أبدا ، أبدا ٠٠ ما بقيت فى أنفاس تتردد ! ٠٠ ألا ترى اننى - حين كنت ببصرى وشهرتى وبكل ما يشتهى القلب - لم أتمكن من اكتساب حبها ٠ فأى شعور - سوى الاشفاق - يساورها نحوى الآن ، فى محنتى ، وأنا عاجز فاقد البصر ؟ ٠٠ والاشفاق منها أمر لا يمكن أن أقبله اطلاقا ٠٠ واذا كنت « مجرد غلام » - منذ ثلاث سنوات - فأنا الآن « مجرد رجل أعمى » ٠٠ موضع شفقة وعطف ٠٠ ولو انك كنت محقا فيما قلت ، من انها لم تطمئن الى حبى ووفائى ، فقد خرج الآن عن طاقتى - الى الأبد - أن أثبت خطأها ،

وأبرهن على اخـلاصى . ولكننى لن أسمح بأن تلوث طيف محبوبتى هـذه الاقتراحات .. لقد كانت تحتاج - لاستكمال كمالها - الى أكثر مما كنت قادرا على أن أتيح لها .. لقد رفضتنى لأننى لم أستكمل كفاءتى لها . وانى لأوثر أن يبقى الأمر على هذا الوضع . فلنتركه هكذا ! »

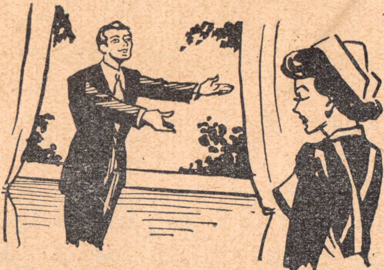
فقال الطبيب بكل حزن : « ان هذا يتركك مع الوحدة » ..فأجابه جارث بصوته الفتى : « اننى أفضل الوحدة على أن أفقد لذة الخيـال .. أنصت ، اننى أسمع طرقات التنبيه الى موعد الأكل .. لسـوف تحزن مارجرى اذا تركنا أطباق يوم الأحد حتى تبرد ! »

ثم هب واقفا واتجه بوجهه الأعمى نحو المنظر الطبيعى ، وقال : « آه ، لكم أعرف هذا المنظر . فعندما أجلس هنا مع الآنسة جراى ، تصف لى هى كل ماتراه ، أذكر لها أنا ما لم تلاحظه ولكنى أعرف انه موجود .. انهـا مشغوفة بالفن ، وبمعظم الأشياء التى أحفل بها . لابد لى من أن أسألك أن تعيرنى ذراعك يابراند .. فمع أن الدرب واسع ، مأمون ، الا أننى لا أستطيع أن أعرض نفسى للتعثر ، وقد وعدت الآنسة جراى بذلك . لقد تعثرت بواحد أو اثنين من النباتات الزاحفة .. ولكن الطريق متسع ، يمكننا أن نسـير اثنين أو ثلاثة فى صف واحد ، اذا اقتضت الضرورة ذلك .. لقد كان جميلا أن تم تمهيد هذا الدرب المتسع ، فقد كان فى الماضى منحدرا ، وعرا ! »

وعقب الطبيب : « نعم ، بوسع ثلاثة أشخاص أن يسيروا صفا واحدا ، اذا أردنا ذلك ! » .. ثم عاد أدراجـه فأنهض « جين » من مكانهـا ، وسحب يدها الباردة حول ذراعه اليسرى ، ثم اتجه الى جارث ، وقال له : « والآن ياصديقى العزيز ، هاك ذراعى اليمنى حتى تتمكن من أن تعتمد بيدك اليمنى على عصاك ! »

وعلى هذا النحو سار ثلاثتهم هابطين خلال الغابة فى صباح يوم الأحد ، وكان يوما بديعا من أيام مبكرة من الصيف .. وسار الطبيب منتصب القامة بين الشابين الجريحى القلبين ، وقد جمع بينهما ، فى الوقت الذى كان يفصل فيه بينهما !.. مرة واحدة توقف فيها « جارث » عن السير ، وأنصت قليلا ، ثم قال : « يخيل الى اننى أسمع خطوات شخص ثالث ، الى جانب خطواتك وخطواتى » .. فأجابه الطبيب قائلا : « ان الغابة ملأى بأصوات الخطوات.. كما أن القلب ملء بالأصداء .. فاذا توقفت عن السير وأصغيت ، فستسمع ما تشاء من كل منهما ! » . فقال له جارث : « اذن ، فلنمض فى السير دون توقف . فقد اعتادت مارجرى أن تضربنى ، حين كنت أتأخر عن موعد الطعام، فى الأيام الغابرة ! »

الفصل السادس والعشرون



• ((**لسوف** يكون من المستحيل على اطلاقا ـ يا آنسة جراى ـ ان أعبر لك يوما عما أحس به أزاء ما تكبدت من أجلى !))

وكان جارث يقف فى نافذة المكتبة المفتوحة ، وقد نفذت أشعة شمس الصباح الى داخل الحجرة .. وكان الهواء معطرا بعبير الزهور ، يتردد فيه تغريد العصافير . وقد تجلت عليه فى وقفته تلك ـ تحت ضياء الشمس ـ لمحة جديدة من القوة والامل المزدهر ، شملت كل خط فى قوامه المشوق .. ومد يديه نحو الممرضة ((روزمارى)) ، فى شوق وشغف ، **ولكن .. عن رغبة دافقة فى التعبير عن التقدير والشكر ، أكثر مما هو عن رجاء فى أن تلتقى يداه بيدين تستجيبان له .** وقال : ((وها أنذا أتصور أنك قضيت عطلة الاسبوع فى مرح ، وأسائل نفسى : اين ؟ .. ومن تراهم اصدقاؤك المقيمون على مقربة من هنا .. فى حين أنك كنت ـ طيلة الوقت ـ جالسة معصوبة العينين ، فى الحجرة التى تعلو حجرتى .. آه ، أنها لطيبة تعجز الكلمات عن وصفها ! .. ولكن خبرينى : ألم تشعرى وانت تفعلين ذلك ، بأنك تقدمين علي شيء من المخادعة يا آنسة جراي ؟ !!

وكانت جين المسكينة قد شعرت بذلك طيلة الوقت ، ومن ثم أجابت فورا : « اجل . ومع ذلك فانني اخبرتك بأنني لن أذهب بعيدا عن هنا .. أما أصدقائي الذين يقيمون في الجيرة فهما سمسون ومارجري اللذان اشتركا معي وعاوناني . ولقد كنت صادقة اذ قلت أنني راحلة .. أما كنت راحلة حقا الى الظلام .. وهو عالم يختلف تمام الاختلاف عن عالم النور ؟ » . فصاح جارث : « ما أصدق ما تقولين ! .. وما أشق ان تجعلي الناس يدركون ما في ذلك من وحدة ووحشة ! .. **وكم يلوحون وكأنهم قد وصلوا فجأة على مقربة من المرء ، قادمين من عالم آخر ، أو هابطين من أحد الكواكب النائية ، يحملون صوتا يفيض عطفا ، وروحا ودية .. ثم يرحلون بعد ذلك الى عالم آخر ، مخلفين المرء في عزلة عظيمة ، في أرض لا ابصار فيها ! »**

وأقرت الممرضة « روزماري » اقواله ، واضافت : « أجل .. ويكاد يتملكك الفزع مما هو آت ، لان الرحيل يجعل الظلام أشد ادلهاما .. والوحدة أشد وحشة ! » . فهتف : « اذن فقد اجتزت هذه التجربة ؟ .. اتعلمين انني ــ بعد قضائك عطلة الاسبوع في « الارض التي لا ابصار فيها » ــ لن أعود أشعر بأنها مكان موحش ، وسأردد في كل مرة : « ان شخصا عزيزا مخلصا كان يقيم هنا ! .. ؟ » . وضحك في ابتهاج الصبي الصغير ، حتى أن كل ما في حب « جين » من امومة هب وراح يطالبها بأن تقدم على مجهودها الاعظم .. الاوحد . وأخذت تتأمل القوام النحيل في ثيابه البيضاء ، وهو متكيء على حافة النافذة في رجولة ، وهو لا يزال محتفظا بجماله ، وان صار عاجزا ، في أشد الحاجة الى ما كان في وسعها أن تمنحه من حنان وافر . ثم ولت وجهها نحوه ، وفتحت ذراعيها ، وكأنما أوتي هذا المكان الذي أعدته لراحته ــ والذي كان قريبا منه ــ قوة مغناطيسية كفيلة بأن تجذبه اليها ..

وظلت هكذا واقفة في الشمس الساطعة ، تسائل نفسها :

أهى جميلة ؟ .. وهل فيها من المحاسن ما يستحق التصوير ؟ .. وهل يسأم أى رجل من وجه كهـذا يتطلع اليه ، ومن ذراعين كذراعيها المبسوطتين ؟ .. والهفتاه ! لقد ضاعت الفرصة ، ولن يقدر لعاشق أن يصدر حكما ! .. **لقد كانت هذه النظرة من حق رجل واحد ، وهو وحده الذى يقوى على اجتلابها الى وجهها العاشق . وقد أصبح لا يملك أن يتحدث عن جمالها بصوت الولهان القانع .. لم يعد يملك أن يحكم على جمالها ، لانه لا يرى .. لانه أعمى !**

وقالت أخيرا : « هناك كثير من التفصيلات الصغيرة ، يا سيد دالمين ، ولكنى أريد ـ قبل أن نتحدث عنها ـ أن أخبرك بأعظم درس تلقيته فى الارض التى لا ابصار فيها » . ثم فطنت الى أن انفعالها العاطفى بدأ يبعث فى صوتها رنينا عميقا قد يبعث فى نفسه ذكرى حية لانغام « المسبحة » ، فأمسكت عن الكلام . ثم استأنفته فى طبقة ثانية من صوتها ، طبقة عالية رخيمة ، هى الطبقة الاخيرة من صوتها ، وقدخصت بها نفسها الثانية بوصفها الممرضة روزمارى : « **يبدو لى ـ يا سيد دالمين ـ اننى قد تعلمت أن أفهم كيف أن الوحدة التى تفوق الوصف بالنسبة للشخص الواحد ، يمكن أن تتحول الى نعيم من أروع نوع ، بالنسبة لشخصين . وتبينت أن هناك ظروفا قد يصبح الظلام فيها أبدع مكان لملتقى الارواح** » فلو أننى أحببت رجلا فقد بصره ، لاسعدنى أن يبقى لى بصرى ليكون عينين له عند الحاجة الى عينين .. تماما كما لو اننى كنت ثرية وهو فقير ، فاننى ما كنت أرى لثروتى قيمة الا فى أنها قد تكون ذات نفع له ! .. ولكننى أعلم بأن نور النهار كان خليقا بأن يكون فترة ضيق لى ، لانه من الاشياء التى لايمكنه أن يشاطرنى اياها .. فاذا جن الليل ، فاننى كنت خليقة بأن أتوق الى ان أقول : « لنطفىء الانوار ، ولنحجب ضوء القمر ، ولنجلس معا فى الظلمة اللطيفة الناعمة ، التى هى

أقوى على أن تربط بيننا من النور ! » .

وبينما كانت جين تتكلم ، امتقع وجه جارث وهو ينصت اليها ، واختلجت عضلات وجهه .. وفجأة تضرج وجهه بحمرة صبيانية بلغت منبت شعره ، واجفل من الصوت الذى تدفق بهذه العبارات الى أذنيه .. ثم تحسس بيده اليمنى الخيط البرتقالى الذى يقوده الى مقعده . وبعد أن جلس ، قال لجين التى لم تكد تسمع صوته ، حتى ردت ذراعيها الى جانبيها واتجهت نحوه : « ايتها المرضة روزمارى .. لطيف منك أن تحدثينى عن كل هذه الافكار الجميلة التى ساورتك فى الظلام. ولكنى آمل أن يكون السعيد الذى يحظى بحبك ، أو الذى سيسعده الحظ بأن يحظى به ، فى وقاء من تعاسة فقدان البصر . لخير له أن يقيم معك فى النور ، من ان يكون حجة تبرر الطريقة الكريمة التى تودين بها أن تؤهلى نفسك للحياة فى ظلامه .. والآن ، ما رأيك فى أن نفض الرسائل ؟ » .. وتحسس بيده الخيط البرتقالى ، وسار الى مقعده . واذ ذاك ، أدركت جين – بجزع واستياء بالغين – مدى ما اقترفت ! . **ذلك أنها كانت قد نسيت الممرضة « روزمارى » تماما ، فلم تستخدمها الا كوسيلة لتبعث فى جارث ادراكا لمدى ما كان لحبها هى – حب جين – من قيمة بالنسبة لعماه .. كانت قد نسيت تماما أن الممرضة « روزمارى » هى الشخصية الوحيدة التى عناها هذا الحديث مع « جارث » ، فهى التى قدمت له دليلا دامغا على اهتمامها ووفائها .. و .. يا للعزيز المسكين « جارث » ! .. ويا لجرأة الممرضة « روزمارى » وقحتها ! .. فلا بد انه قد استشف من حديثها أنها كانت تطارحه الحب !** . وأحست جين بأنها محصورة بين البحر والنار ، فلم تجد بدا من أن تغامر – بما طبعت عليه من قوة الشخصية – وتغوص الى الاعماق !

* * *

• وسعت الى مقعدها ، فى الجانب الآخر من المنضدة ، فارتمت عليه وهى تقول لنفسها : « اعتقد ان التفكير فيه هو الذى جعلنى اتبين ذلك ، على اننا ـ انا ورجلى الشاب ـ قد هوينا معا ، فى الوقت الحاضر .. فهو لا يعلم بوجودى هنا !» . أما جارث ، فقد اعتدل لفوره .. ومرة أخرى ، ثم تضرج وجهه عن خجله مما تصوره . فقال متعجلا : « يا آنسة جراى ، أرجو أن لا تحملى اقوالى على محمل الوقاحة او التطفل .. ولكن هل تعرفين اننى كثيرا ما كنت اسائل نفسى عن وجود رجل سعيد .. الرجل الذى تحدثت عنه ! » . فضحكت الممرضة روزمارى ، وقالت : « **ليس بوسعنا ـ فى الوقت الحاضر ـ ان ندعوه رجلا سعيدا ، على الاقل فيما يختص بالنسبة لافكاره بصددى . ولكن قلبى بأسره ملك يديه ، لو حاول ـ من ناحيته ـ ان يصدق ذلك . غير أن شيئا من سوء التفاهم دب بيننا ، وكان الذنب ذنبى وحدى .. وهو يأبى أى اصلاح !** » . فصاح جارث : « يا له من سخيف .. هل أنتما خطيبان ؟ » . فترددت الممرضة روزمارى ، ثم قالت : « لا يمكن ان ندعو مابيننا خطبة بمعنى الكلمة ، ولو أنها بلغت ذلك الحد ، اذ أن كلا منا لا يفكر فى أى شخص عدا صاحبه ! »

وكان جارث يعلم أن ثمة فريقا من الناس يتخذون من « الزمالة » و « التلازم » خطوة تمهيدية للزواج . وهى مرحلة تعلو على تلك التى درجت عليها الخادمات من « خروج للنزهة » مع أصحابهن .. وان كان التعبيران يدلان على ظروف واحدة . فبينما تعمد « فيليس » ـ الخادم الجميلة ـ الى الخروج مع فتاها القروى ، ليسيرا فى الدروب المهجورة ، وبجوار الاسوار العالية ، أو على الارصفة وفى الحدائق ..

ترى أن الفتى والفتاة فى الطبقة الاخرى ، يقضيان الوقت معا فى قاعات الاستقبال وفى الخمائل ، فى دور اصدقائهم وأقربائهم .. ومع ذلك فان جارث — لسبب لم يكن يعلمه — لم يفكر مرة فى أن الممرضة « روزمارى » قد تكون من طبقة غير طبقته . فلعل فتاها الحمار السخيف — الذى استشعر نحوه بمقت عميق — قد انحدر من طبقة دون طبقتها ، أو لعل لائحة نقابة مهنتها تحول دون اتمام خطبة نهائية ، وان سمحت ب « التفاهم » . ومهما تكن الحال ، فان الواقع الماثل أمامه هو أن هذه السيدة الصغيرة ، اللطيفة ، الماهرة ، ذات القلب الرحيم — التى بذلت الكثير فى خدمته — لها صاحب « رجل شاب » . وأدى الاعتراف بهذا الواقع الى تخلص عقل « جارث » من عبء ثقيل . **فقد خشى — فى المدة الاخيرة — أن لايكون أمينا بالنسبة اليها والى نفسه . اذ أصبحت ضرورية له ، بل لازمة لزوما جوهريا ، واستطاعت ببراعتها وتفانيها أن تكسب مكانة وطيدة فى عرفانه بالصنيع .. وكانت علاقتهما تتسم بألفة عظيمة ، وزمالتهما وثيقة مستمرة .**

ولقد اخترق الدكتور روب — من عهد قريب — هذه الرابطة بخطى ثقيلة باقتراح أبداه .. وكان « جارث » قد اختلى به ، وعكف على الافضاء له بمكنون قلبه ، مبينا كيف أن الممرضة « روزمارى » قد أصبحت عنصرا لاغنى عنه لسعادته وراحته ، معربا عن جزعه كلما فكر فى أنها قد تستدعى يوما بأمر من رئيسها . وقد قال له جارث : « أخشى أن لايسمح نظامهن لاية ممرضة بأن تستمر الى أجل غير مسمى مع مريض واحد . ولكن ، لعل السير دريك يستطيع اقناعهم باستثناء هذه الحال ! » . **فكان رد الدكتور روب : « فلتذهب رئيستها الى الجحيم ، ودعك من سير دريك .. اذا أردت بقاءها دائما ، فثق من قبولها .. تزوجها يابنى وأنا أضمن أنها سترحب بذلك »** .. وهكذا داس الدكتور روب ،

بحذاء دعم نعله بالمسامير ، على أصابع قدمى الموقف العاريتين!

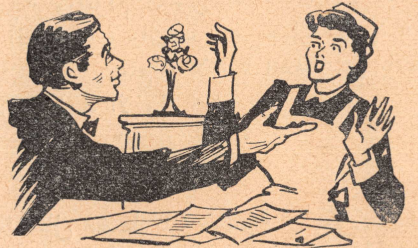
ولقد حاول جارث أن ينتزع هذا الاقتراح من مخيلته، ولكنه أخفق .. وبدأ أن يلمس من المرضة روزمارى أفكارا ومشروعات لصالحه، تجاوز نطاق الواجبات التى تفرضها مهنتها بكثير، وكأنهما كانت ثمة حوافز من اهتمام عاطفى . وراح يقصى الفكرة عن رأسه مرارا ، ناعتا الدكتور روب بالسخف ، وناعتا نفسه بأنه حمار مغرور .. ومع ذلك فقد ظل يعاوده ــ تكرارا فى حضور المرضة روزمارى ــ جو سحرى من الرعاية المنبعثة عن الحب ! .. **ثم تعرض ذات ليلة لاغراء شديد ، فناضله ! .. لقد ساءل نفسه : لماذا لا يعمل بنصيحة الدكتور روب ؟ لم لا يتزوج هذه المرضة الساحرة ، القديرة ، الوفية ، حتى تبقى دائما بجواره فى عماه ؟.. أنها لم تعتبره «مجرد غلام»..** وماذا يستطيع أن يقدم اليها ؟.. قصرا جميلا ، وكل أسباب الرفاهية ، وثروة طائلة ، وزمالة بدا أنها مرتاحة اليها .. ولكن « الاغواء » نفذ الى أعماقه عند هذا الحد ، اذ همس لنفسه : « وسيبقى صوتها هو صوت جين دائما .. انك لم تر قط وجه المرضة ، ولن تراها ، وبوسعك أن تنسب الصوت الى الوجه والقوام اللذين تعبدهما .. تستطيع أن تتزوج المرضة الصغيرة ، وان تظل على حبك لجين! » .. وعند ذلك صرخ « جارث » فى هلع قائلا : « ابعد عنى ياشيطان ». وربح بذلك المعركة ضد الاغواء ! »

* * *

• **غير** أن عقله ظل مضطربا ، خشية أن يكون ــ لسبب من الاسباب ــ قد أزعج طمأنينة قلبها . ومن ثم ارتاح باله .. ومع ذلك فقد استشعر غيرة لاذعة ــ لامبرر لها ــ عندما ورد ذكر الشاب الذى كانت مشغوفة به .. وما أشبه مالاح عليها

من شقاء بسبب فتاها ، بما كان هو فيه من شقاء .. بسبب جين !..

وتولاه حافز مفاجيء بأن يتخلص نهائيا من هذه الفكرة التى أصبحت — فى المدة الاخيرة — تقوم فى ذهنه كحائل بينهما . وبأن يؤسس علاقتهما الودية على أساس أقوى وأوثق مما هى عليه الآن ، وذلك بأن يكون صريحا معها — صراحة تامة — فى هذا الصدد . لذلك لم يلبث أن قال لها ، وقد انحنى نحوها ، وعلى وجهه تلك الابتسامة المرحة ذات الطابع الصبيانى ، التى لم تقو كثير من النساء على مقاومتها. وقال لها : « يا آنسة جراى .. حسن منك أن تحدثينى عن نفسك . ومع أننى أعترف بأننى شعرت بغيرة — لامبرر لها — نحو ذلك الفتى السعيد الذى تملك قلبك ، الا أننى مسرور لوجوده ، لاننا جميعا نظل نحس بنقص ما ، حتى تدخل حياتنا التجربة العجيبة .. أعنى « المرأة الوحيدة » ، أو « الرجل الاوحد » . وانى لاود ان أخبرك بأمر يمسنى واياك،ياصديقتى العزيزة اللطيفة ولكنى لن أفعل ، حتى تضمى يدك فى يدى . لاتبينك فى مزيد من الالفة .. انك — وقد زرت « الارض التى لا أبصار فيها » — تقدرين تماما قيمة تماسك اليدين هنا ! »



ومد جارث يده فوق المنضدة ، وقد توترت حركاته كلها ، فى انتظار ماهو آت .. فأجابته الممرضة روزمارى وصوتها

يرتعش قليلا : ((ليس بوسعى أن أفعل ذلك يا سيد دالمين ، فقد أصيبت يداى بحروق .. آه ، ليست خطيرة .. لاتبد مهموما الى هذا الحد ، فان الامر لم يعد لهب ثقاب .. نعم حين كنت عمياء .. والآن ، خبرنى بالشيء الذى يمسك ويمسنى !)) .. فاسترد جارث يده وعقدها مع الاخرى على ركبتيه ، ثم استلقى فى مقعده ، ورفع وجهه الى أعلى ، فاذا عليه أمارات الطهر والنقاء ، المتولدة عن ابتهاج روح سمت فوق تجارب الطبيعة الارضية ، فاغرورقت عينا ((جين)) بالدموع وهى تتأمله ، اذ تحققت لحبه اياها من قيمة لديه ضاعفتها رياضة النفس على احتمال العذاب !

وبدأ حديثه فى خفوت موليا وجهه عنها : ((خبرينى ، أهو .. ذو قيمة كبيرة لديك ؟)) . ولم تقو عينا ((جين)) على مفارقة الوجه الحبيب ، والجسم الذى اضطجع فى المقعد . واهتزت عواطف جين فى صوت المرضة روزمارى ، وهى تجيب : ((انه كل شيء لى فى العالم !)) . فسألها : ((وهل يحبك قدر ماتستحقين من حب ؟)) . فانحنت ((جين)) والصقت شفتيها بالمنضدة ، حيث كانت يده المبسوطة إليها قداستقرت شفتيها بالمنضدة ، حيث كانت يده المبسوطة اليها قد استقرت. وأجابت الممرضة روزمارى : ((لقد أحبنى حبا يفوق كثيرا ما كنت ((يحبنى)) هى الاصح ؟)) . فقالت الممرضة روزمارى بأسى : ((كلا ، وآسفاه !.. أخشى أن أكون قد فقدت حبه ، بفضل عدم اطمئنانى اليه ، وبسبب ذنبى نحوه !))

وهنا قال جارث : ((ابدأ !.. ان الحب لايمكن أن يتلاشى)) .. وقد يظهر - فى فترات - كأنه قد مات ودفن ، ولكن صباح القيامة لن يلبث أن يبزغ ، واذ ذاك .. ينهض الحب من رقدته !.. ان الحب الجريح الحزين مثل عصفور مبتل الجناحين ، فهو لايستطيع أن يطير ، ولايستطيع أن يرتفع ، وانما هو يحجل على الارض ، مشقشقا فى قلق !.. ولكن كل هزة

من جناحيه تسقط عنهما مزيدا من القطرات ، وكل لحظة يقضيها تحت أشعة الشمس تجفف ريشه الدقيق . **وسرعان ما يحلق طائرا الى قمة الشجرة ، وهو أفضل حالا من ذى قبل بفضل الماء الذى غسله ، والذى بدا أنه قد حرمه من القدرة على الطيران ! »**

فغمغمت الممرضة روزمارى : « أواه ، ليت محبوبى يقوى على تجفيف جناحيه !.. ولكننى أخشى أن اكون قد فعلت به ماهو أدهى من ابتلال جناحيه ، لقد قلمت ريشه .. بل أكثر من ذلك ، لقد كسرت جناحيه ! » . فسألها جارث فى ترفق بالغ : « وهل يدرك أنك تشعرين بأنك مذنبة الى هذا الحد ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى : « كلا .. انه لن يتيح لى فرصة للايضاح ، ولا مجالا لانبئه كيف يظلم نفسه واياى ، بالفكرة التى يتشبث بها عن مسلكى نحوه ! » . فهتف « جارث » فى عطف واشفاق: « يا للفتاة المسكينة ! » . ثم أردف : « لقد كانت تجربتى مأساة قاسية ، حتى اننى آسى على أولئك الذين لاتمتد أمام حبهم طريق ممهدة . ولكن اليك نصيحتى يا آنسة جراى ، فاعملى بها : ابعثى اليه باعتراف كامل .. لاتخفى عنه شيئا ، وأخبريه تفصيلا بكل ماحدث .. فان أى رجل صادق الحب ، لابد أن يصدق ايضاحك ، ويتقبله ، ويحمد الحظ الذى واتاه به . على أننى آمل أن لايندفع الى هنا كالاعصار ، لينتزعك منى ! »

* * *

• **وابتسمت** جين خلال الدموع ، ثم قالت الممرضة روزمارى : « اذا أرادنى ودعانى ، ياسيد دالمين ، فلن اتردد لحظة فى الاسراع اليه ! » . فقال جارث : « كم أمقت اليوم الذى تأتيننى فيه قائلة : « اننى مضطرة للرحيل » .. هل تعلمين بأننى أقول لنفسى — فى بعض الاحيان — انك قد بذلت الكثير

من أجلى ، وانك قدأصبحت ذات مكانة كبيرة فى نفسى .. ولقد فكرت أحيانا – وبوسعى ان اكلمك الآن بصراحة – بأنه قد تراءى لى أن ثمة طريقة واضحة جدا لمحاولة استبقائك على الدوام .. فأنت جديرة أعظم جدارة بكل مايملك أى رجل من هبات ، مايستطيع أن يقدم من وفاء . ولما كنت لااستطيع أن أقدم – لشخص بهذه الجدارة – مايقل عن خير ما املك ، فانى **أريد أن أخبرك بأننى أبوىء عرش قلبى – الى الابد – وجها واحـدا حبيبا . أما الوجوه الاخرى فقد انمحت مع الايام ، فأصبح من العسير على – فى عماى – أن أتذكر بجلاء الوجوه الجميلة العديدة التى رسمتها واعجبت بها .. كلها قد طمست ولم تعد واضحة ، وأن تباينت نسب الانطماس . أما هذا الوجه فانه يزداد وضوحا كلما اشتدالظلام ، والحمد لله . وسيظل معى طيلة عمرى ، كما سأراه فى موتى .. وجه المرأة التى أحب !**.. لقد قلت عن حبيبك أنه قد « أحبك » ، مترددةفى تأكيد بقاء حبه للان .. أما أنا فلن أقول عنمحبوبتى انها احبت أوانها تحب .. وذلك لانها مااحبتنى قط فىحين أن حبى لها باغ المبلغ الذى لا أجد عنده فيما أملك « خيرا » آخر – غير الذى منحتها – لاقدمه لامرأة أخرى !.. فاذا حملت نفسى – بدوافع غير لائقة ، أورغبات أنانية – على أن أسأل امرأة أخرى أنتقبلنى زوجا ، فاننىبذلك أسىء الىهذه الاخرى اساءة بالغة ، لان وجهها الذى لااراه ، لن يكون ذا قيمة تذكر لدى، بل سيبقىدائما ذلك الوجه الواحد ، والوحيد ، هو الذى ينير ظلمتى .. أما صوت التى لم أر وجهها ، فسيكون عزيزا فى نطاق ضيق ، لانه يذكرنى بصوت المرأة التى أحبهـــا .. ياصديقتى العزيزة ، اذا قدر لك أن تصلى من أجلى ، فاطلبى أن لاانحط الى درجة أن أعرض على امرأة اخرى القشور .. كما ينبغى أن يوصف الزواج منى ! »

فقالت له المرضة روزمارى : « ولكن هى .. هى ، تلك

التى جعلت الزواج منك مجرد قشور لغيرها .. تلك التى كان بوسعها أن تحظى بأشهى الثمار .. الثمار الناضجة الممتلئة .. ؟ » . فقال جارث : « **انها رفضته .. لم تكن الثمار فى نظرها ناضجة ولا ممتلئة بدرجة كافية ولم تكن الثمار لائقة بها . أواه ياالهى !.. يافتاتى الصغيرة ! بم تقدرين أن يظهر المرء غير كفء للمرأة التى يحبها ؟** » ثم أخفى وجهه فى يديه وأرسل أنينا موجعا .. وساد حجرة المكتبة صمت تام..

وفجأة ، شرع جارث يتكلم بصوت خافت ، سريع ، دون أن يرفع رأسه : والآن .. الآن أحس وجودها ، كما قلت لبراند .. وما شعرت به أكثر وضوحا مما هو الآن الا فى مرة واحدة وقد كنت وحيدا .. أواه ، ياآنسة جراى ، لاتتحركى!.. لاتبرحى مكانك ، بل ألقى بنظرة فى الحجرة ، وخبرينى هل ترين شيئا ؟.. انظرى الى النافذة ! انظرى الى الباب !. انحنى وانظرى خلف الستار ، فليس بوسعى أن أصدق أننا وحيدان .. لن أصدق ذلك !.. اننى مخدوع وأنا أعمى ، ومع ذلك .. فأنا غير واهم ، **اذ اننى أحس بوجود المرأة التى أحبها .. ان عينيها مصوبتان الى ، فى اشتياق وعطف وأسى .. ان حزنها لمصابى عظيم الى حد أننى أكاد أحس به يحتوينى كما كنت أحلم بأن حبها يحتوينى ! .. أواه يا الهى ! انها قريبة منى .. ان هذا لفظيع ، لاننى لا أريدها بقربى .. بل أوثر أن تفصل بيننا ألف ميل.. ومع ذلك فاننى أوقن بأنه لا تفصل بيننا سوى ياردات !..** أهى رؤيا روحانية ، أم انها حقيقة واقعية ؟.. أم ترانى سأجن !.. انك لن تكذبى على ، ياآنسة جراى .. وما من اغراء ، أو رشوة ، أو حيلة لعينة تقوى على دفعك الى خداعى فى هذا الصدد . بربك يا آنسة جراى، أنظرى حولك وأصدقينى القول ، هل نحن وحيدان ؟ .. واذا لم نكن وحيدين فمن هو الشخص الثالث الذى يوجد بالحجرة الآن سواك وسواى ؟ »

وكانت جين ـ طيلة الوقت ـ جالسة وذراعاها معقودتان فوق المنضدة ، وعيناها الملهوفتان تحدقان فى رأس جارث المنحنى .. **فلما أبدى أمنيته بأن تكون على ألف ميل بعيدا عنه ، دفنت وجهها فى ثنايا ذراعيها .. فقد كانت قريبة جدا منه بحيث أنه لو مد يده اليمنى لمس حلقات شعرها الكثيف الناعم** .. غير أن جارث لم يرفع رأسه ، وظلت « جين » صامتة ساكنة ، ووجهها بين ذراعيها .. ثم ساد حجرة المكتبة سكون عميق لبضع دقائق أعقبت اسئلة جارث ورجاءه .. وما لبثت « جين » أن رفعت رأسها ، وأجابته الممرضة روزمارى : « ليس فى الحجرة أحد ياسيد دالمين سواك وأنا ! » .

الفصل السابع والعشرون



◆ « اذن فأنت تستطيبين ركوب السيارات ، يا آنسة جراى ؟ »

وكانا قد خرجا فى السيارة معا للمرة الأولى ، ثم عادا ، فأقبلا يتناولان الشاى معا فى المكتبة ، للمرة الأولى أيضا .. وكانت الممرضة روزمارى تسكب الشاى فى قدح مريضها ، للمرة الأولى كذلك .. وكان هذا بعد ظهر يوم الاثنين الذى أعقب الأحداث السابقة مباشرة ، وقد أجدت تجربة آخر الأسبوع امتيازات جديدة كثيرة على الممرضة ، التى قالت مجيبة : « أجل ياسيد دالمين .. لا سيما فى مثل هذا الجو البديع ! » . واذا به يسألها :

« وهل سبق لك التمريض فى بعض الدور التى تملك سيارات ؟ » ٠وترددت الممرضة روزمارى ، ثم قالت : « نعم ٠٠ لقــد أقمت فى دور كثيرة بهــا سيارات ، ومنها دار الدكتــور براند ٠٠ ولقــد استقبلنى مرة فى محطة (شيرنج كروس) ، وهو فى سيارته الكهربائية ، من طراز بروجهام » ٠٠ فقال جارث : « نعم أعرفها ٠٠ انها ســيارة أنيقة ٠٠ أكان ذلك وأنت فى طريقك الى مريض ، أو عند عودتك بعد فراغك من تمريض احدى الحالات ؟ »

وابتسمت الممرضة ، ثم عضت على شفتيها ، وأجابت فى وجوم : « نعم ٠٠ كنت فى طريقى لتمريض حالة ٠٠ كنت ذاهبة الى داره لأتشاور معه بشأنها ولأتلقى منه التعليمات الوافية » ٠٠ فقــال جارث : « لابد أن العمــل مع شخص مثل « براند » نعمة رائعة ٠ ومع ذلك فأنا موقن من أن أجل ما قمت به ، كان من تفكيرك أنت ٠٠ ومثــال ذلك أنه لم يقترح ما قمت به فى عطلة آخر الأســبوع ، أليس كذلك ؟٠٠ لست أظن ٠ يا للتغيير الــكبير الذى أحدثته !٠٠ والآن خبرينى ، حينما كنا فى السيارة ، لم يحدث أن تمهلت فجأة لتتفادى شيئا فى الطريق ، ولا انطلق بوقهــا لتنبيه شخص كى ينأى عن طريقها ، الا وكنت قد أخبرتنى قبل ذلك بما كنا مقدمين على أن نمر به ، أو ما كان يعترض طريقنا ٠ فكنت تقولين : « سنمر بعربة ملأى بالدريس ، عند المنحنى التالى ، وســيكون فى الطريق متسع يكاد يكفى لــكى نواصل سيرنا » ، أو مثلا : « أمامنا بقرة حمراء فى وسط الطريق ، وأعتقــد أنهــا ستتحرك اذا انطلق البوق ! » ٠ ومن ثم فاننى لم أكن أفاجأ بالتمهل المباغت عندما يحين ، أو بصوت البوق عندما ينطلق ٠ أتعرفين وطأة الانطلاق بسرعة ثم التمهل فجأة على أعصاب الأعمى الذى لا تكون لديه فكرة عن السبب ، أو وطأة الانحراف فجأة ، دون أن يعلم من الذى كانت تتفاداه المركبة ؟٠٠ لقد كانت نزهتنا ــ بعد ظهر اليوم ــ متعة خالصــة ، لأنك لم تدعينى أتعرض لشىء من هذا ٠٠ كنت أعرف كل ما كان يجرى ، بنفس السرعة التى كنت خليقا بأن أعرفه بها لو اننى كنت مبصرا ! »

فضغطت جين صدرها بيدها ، وقد أسعدها أنها كانت توفق دائما الى أن تملأ حياة فتاها بالسرور الصــافى ٠ وما أقل ما سيضطر الى معاناته فى العمى ، لو أنها فازت بحق البقاء بجانبه دواما ٠ وما لبثت الممرضة روزمارى أن قالت : « وعدا ذلك ياسيد دالمين ، فاننى رافقت السير دريك فى السيارة الى المحطة بعد ظهر أمس ، وقد شعرت بكل ما ذكرته أنت الآن ، وما سبق لى أن أحسست الارتباك العصبى أثناء سير السيارة ، ولكننى تحققت بالأمس مدى ما يترتب على هذه الحقيقة ٠٠ فان الراكب يظل يرقب الطريق دون أن

يشعر ، ويقيس المسافات ، ويقدر السرعة ، ويعرف مرمى كل حركة لعجلة القيادة .. ولذلك فعندما نخرج فى السيارة معا ، يجب أن تجعلنى عينين تجلوان لك كل هذا »

فأجابها جارث وفى صوته اشعار بعرفان الجميل : « ما أطيب قلبك !.. وهل رأيت السير دريك عند سفره ؟ »

ـ كلا .. فانى لم أر السير دريك طوال مدة وجوده ، وانما ودعته ، وشعرت بقبضة يده القوية ـ اللطيفة ـ عندما تركنى فى السيارة .. فبقيت جالسة حتى سمعت صوت القطار عندما تحرك ، واندفاعه مسرعا ، حتى ابتعد ..

ـ أولم تشعرى بمشقة اذ تركته يحضر ويرحل دون أن ترى وجهه ؟

وابتسمت جين ، بينما قالت الممرضة روزمارى : « نعم لقد كان ذلك شاقا على نفسى .. غير اننى كنت قد عقدت العزم على أن أجتاز هذه التجربة القاسية » . فقال جارث : « انها تبعث فى الانسان شعورا مبهما رهيبا .. أليس كذلك ؟ » . وكان جوابها : « أجل ، انها تكاد تجعل المرء يتمنى لو أن صاحبه لم يأت ! » . فتنهد « جارث » فى شعور عميق بالرضى والارتياح . فشعر القلب الجرىء ـ الذى أبت صاحبته أن ترفع عن عينيها العصابة حتى الساعة المحددة ـ بجزاء طيب فى هذه الزفرة !

* * *

◆ واستأنف جارث حديثه قائلا : « عندما أبلغ خليج الفراق فى « الأرض التى لا أبصار فيها » ـ فى المرة التالية ـ سأقول : هنا « وقف من أجلى شخص عزيز ! » . فعقبت الممرضة روزمارى ضاحكة : « وما أقسى وجبات الطعام !.. ألا تراها تجربة مضنية عظيمة ؟ »

ـ حقا .. وقد فاتنى أن أتنبه الى أنك قد أصبحت ملمة بكل هذه النواحى الآن . وما كان فى استطاعتى قبل ذلك أن أبين لك الدافع الذى دعانى الى أن أتناول الطعام بمفردى .. فأنت تعلمين كيف يتصيد الأعمى طعامه !

ـ نعم .. وكثيرا ما يصمم الطعام على الاختفاء من المرء ، ثم يعود فجأة ، دون توقع .. ولكنى ياسيد دالمين قد توصلت الى عدة أساليب تساعد كثيرا فى ذلك ، وتجعل المهمة أكثر سهولة . فاذا قبلت أن تتناول وجباتك معى ، على مائدة صغيرة ، فسوف ترى كيف تفلح هذه الأساليب . وعندما تستقبل ضيوفا ، فدعنى ـ اذا قدر لى أن أبقى هنا ـ أجلس الى يسارك حتى يتيسر لى بوسائلى الخاصة ، أن أعاونك دون أن يستبين أحد أى تدخل منى !

فقال لها جارث : « شكرا لك .. ان قلبى ليفيض بالاعتراف لك بالجميل .

لكم أتذكر لعبة سخيفة كنا نلعبها فى (أوفردين) ، أثناء تناولنا الحلوى ، فى حفلاتنا الخاصة المرحة ، فى ضيافة الدوقة ميلدرم • أتعرفينها ؟•• لابد أنك سمعت عنها ، فان السير دريك يعرفها ، وقد دعته مرة لفحص ببغائها ، ولم تذكر له الببغاء فى دعوتها التليفونية ، فظن السير دريك انه مدعو لفحص الدوقة ، وألغى ميعادا هاما ، وسارع اليها فورا •• ومن حسن الحظ أنهـــا كانت تقيم ـ وقتئذ ـ فى دارها بلندن ، ولو أنها ما كانت لتتردد فى دعوته لفحص الببغاء فى (أوفردين) •• ولدى وصول براند ، ولم يكن فى ذلك الوقت قد بلغ الشهرة التى يتمتع بها الآن ـ ولو انه كان فى طريقه اليها ـ وكان للوقت قيمة كبيرة فى نظره •• لدى وصوله اذا به يرى الدوقة فى أتم صحة وقوة ، ولكنها فى قلق جنونى •• واذا بالببغاء « تومى » يجلس على أرجوحته منكمشا ، لا يكاد يفتح سوى عين واحدة ، ولا يلفظ سوى كلمات نابية ، فى صوت واهن •

« وأعتقد أن « براند » احتمل الموقف ، وقام بالمهمة بخير مسلك طبى ، فقاس حرارة « تومى » من تحت جناحه ، بينما راح « تومى » يلعن مقيـــاس الحرارة ، ثم كسره أخيرا •• وقد منع « براند » تغذيته بعجينة الاوز المنقوعة فى النبيذ ـ وهو الطعام الوحيد الذى كان تومى يتوق اليه فى ذلك اليوم ـ ثم كتب له تذكرة العلاج ، وأصدر تعليمات مفصلة ، كما أكد للدوقة بأن لديه الكثير من مقاييس الحرارة غير الذى كسر •• ولما تبين بأن ذلك لم يكن سبب همها ، فقد أقنعها بأن قليلا من الزئبق قد تفيد المريض ، وهو ـ فى هذه الحالات ـ يقدم فى قدح أحيانا • ثم أشار بجمع شظايا الزجاج المحطمة ـ بكل عناية ـ من تحت مجثم « تومى » ووضعها جنبا الى جنب للتـأكد من عدم اغفال شىء منها • وتناول قبعته ، غير أن الدوقة أعربت عن رغبتهـــا فى جمع حطام مقياس الحرارة قبل رحيل «براند» ، حتى لا تضطر الى استدعائه مرة أخرى • ولذا انتظر « براند » ، بينما زحف رئيس الخـــدم على يديه وركبتيه ، ووقفت الدوقة فوق رأسه تشير الى كل قطعة من الزجاج بعصاها السوداء •• وأعجب هـــذا المنظر الببغاء المريض ، فأرسى مخلبه الذى كان يرفعه ، وفتح عينيه معا ، وانحنى مرسلا وابلا من التعبيرات اللاذعة عن ماضى وحاضر ومستقبل الخادم المسكين ! فكادت الدوقة تبكى فرحا ، وأطرت البراعة التى أبداها الطائر العزيز •• ثم سمحت للدكتور دريك بالانصراف ، كمـــا وعدته بأن تتصل به تليفونيا قبل المساء ، لترفع له تقريرا عن صحة الببغاء • وانحنى على يدها وانصرف ••

« وعندما قدمت الآنسة شامبيون بعد ذلك بقليل ، وعلمت بما حدث ـ وهى

كما قد تعلمين ابنة أخ الدوقة ، وتقيم فى دارها عندما تأتى الى المدينة — غضبت أشد الغضب . فقد كانت والسير دريك صديقين حميمين من عهد الصبا ، وتعتقد ان قليلا من الناس قد بلغوا من المكانة أو القيمة ما يؤهلهم لأن يكونوا من مرضاه .. وكانت فى ذلك الحين شديدة الاهتمام بما يكتب وما يلقى من محاضرات . وبلغ بها الأمر أنها كانت تحنق اذا استدعاه أحد أفراد الأسرة المالكة لعيادته فى قصره . فما أن علمت بجلية الأمر ، حتى خلعت قفازيها ، ولطمت بهما « تومى » بشدة . وكانت الدوقة قد استقلت مركبتها وسارعت بنفسها الى الصيدلية بتذكرة السير دريك . ومن ثم فقد تلقى « تومى » اللطمات بينما وقف كبير الخدم والساعى يشهدان ذلك فى سرور مكتوم ، مما دفع الببغاء الى حالة عصبية ، فأخذ يرقص ويتأرجح على مجثمه صارخا ببعض النعوت فى وجه الآنسة شامبيون ، حتى أفاق من تأثير عجينة اللوز الممزوجة بالنبيذ !.. ولقد قصت الآنسة شامبيون على هذا الحادث ، وأضافت انها اضطرت الى أن تذهب بنفسها الى الدكتور « براند » معتذرة عما حدث ، وأنه كان رقيقا فى تلقى اعتذارها ، وقد أخبرها بأنه سيبعث الى الدوقة مطالبا بعشرين جنيها أتعابا ، على أن يبعث بالمبلغ — بمجرد استلامه — الى حديقة الحيوان .

« وبينما كانت الآنسة « شامبيون » معه فى مكتبه ، ولم تهدأ بعد من سورة غضبها ، اذا بجرس التليفون يرن ، واذا بالدوقة العزيزة تتكلم فى صوت يحكى شقشقة العصافير ، مقدمة للدكتور دريك تقريرا مسهبا . فحاولت الآنسة شامبيون أن تمسك ببوق التليفون ، لتسمع الدوقة كيلا من التقريع القاسى ، غير ان الدكتور حال بينها وبين ذلك ، وصد يدها بشدة ، ثم ختم حديثه مع الدوقة بكلمات رقيقة .. وبعد ذلك كتبت له الدوقة تسأله عما يطلب من أتعاب ، فأجابها السير دريك بخطاب لطيف ، ذاكرا أن طرافة علاج طائر بديع وذكى — كذلك الببغاء — كانت تفوق كل ما بذله من جهد ووقت . ثم وقع الرسالة كالآتى : « طبيب شرف ، فى الحالات العادية للسير توماس » .. يعنى الببغاء . وما كان أشد سرور الدوقة بهذا الخطاب ، حتى لقد أطلعت عليه كل أصدقائها ، ولم تدرك سببا لما كان ينتابهم من ضحك عنيف .. وتكرمت بعد ذلك بدعوة أسرة براند الى حفلة من حفلاتها الرائعة حقا ! »

وكانت الممرضة « روزمارى » تضحك بافراط يكاد يكون هستيريا . فأردف « جارث » قائلا : « قصة أخرى عن الببغاء ما دمت معجبة بقصصه .. ان من عادته أن يصيح بكلمات نابية يوجهها الى الدوقة ، التى كانت شديدة الاعجاب

بذلك . وفى أحد الأيام ، كان جاثما فوق أرجوحته فى البهو الأسفل لقصر (أوفردين) ، بجوار الباب الكبير المؤدى الى الشرفة .. وهبطت الدوقة من الدور الأعلى ، وعلى رأسها قبعة الحديقة ، وقد حملت فى ذراعها سلة ، فى طريقها الى قسم الزهور بحديقتها .. وكان ثمة عدد منا جالسا فى جنبات البهو ، فهب صديق يدعى رونى انجرام من مقعد عميق ، وألقى سيجارته بعيدا ، وفتح الباب للدوقة .. وفى تلك الأثناء ، كانت هى قد عرجت على منضدة ، باحثة عن المقص والقفازين التى كانت تستخدمها فى اقتطاف الزهور . ومن ثم ظل رونى واقفا الى جانب الباب ، ممسكا به .. فى حين أخذ الببغاء يتراقص صاعدا هابطا فوق مجثمه فى الجانب الآخر للباب . حتى اذا طال بحث الدوقة فى الأدراج ، مال الببغاء برأسه فجأة على ناحية ، وهتف فى لهجة وقحة : « هيا أسرعى أيتها الفتاة العجوز ! » .. وكان رونى – الذى جبل على أخلاق سامية وعلى مراعاة أدق آداب السلوك – لا يزال ممسكا بالباب ، فالتفت الى الببغاء ، فى استنكار ، وقال له : « تومى .. يجب أن تقول : فخامتك » .. فما كان من الببغاء الا أن وضع مخلبه فوق منقاره ، وأجابه مغمغما فى خشونة : « أنقول لها هذا فى مقابل ما سنحصل عليه منها ؟! » . وبوسعك أن تتصورى كيف رحنا نقهقه .. ولابد انه تعلم هذه الجملة فى « عنبر » ولكن وقعها كان مضحكا للغاية .

« وقد اعتدنا – بعد هذه الفكاهة – أن نطلب الى الدوقة أن تتلكأ – عند خروجها الى الحديقة وهى ترتدى قبعة الحديقة – ونحن نتبعها ، حتى يشحذ تومى قريحته ويطلق صيحاته الوقحة مستحثا اياها ، فتتعالى الأصوات تطالبه بأن يقول « فخامتك » ، فلم يكن تومى يخيب رجاءهم مرة . وأؤكد اننى رأيت الببغاء يغمز بعينه وهو يسترق النظر من بين مخالبه ! »

وسكت « جارث » لحظة ، ثم استطرد قائلا : « وفى أحد الأيام كان معنا شخص أصر على أن « تومى » كان يفعل كل ذلك آليا ، دون ادراك .. وانه سيردد الكلمات عينها ردا على أية عبارة أو ملاحظة تبدى له . وكان من أولئك الذين يحلو لهم دائما افساد طرافة أية واقعة بايجاد تفسير لها ، أو بالتشكك فى صحتها ، أو بالمجادلة فيها . فعرض عليه كثيرون الرهان ، فتحداهم جميعا ليثبت صحة رأيه .. وقد اشتدت حماسة الدوقة لذلك ، فوضعت على رأسها قبعة الحديقة ، واجتمعنا جميعا فى البهو الأسفل .وكان « تومى » فوق أرجوحته رصينا ، وفى أبهى حمرته .. وبين صمت الجميع ، هبطت الدوقة السلم – وعليها قبعة الحديقة – ثم تقدم ذلك الرجل المتشكك وفتح الباب ، ووقف مترقبا مرور الدوقة ، بينما كانت الدوقة تهتز لهفة ،

وقد انتحت جانبا متظاهرة بالبحث عن المقص .

« ولم يحدث شيء لفترة طويلة ، كان الببغاء ـ خلالها ـ يترنح فوق أرجوحته ، وهو يقهقه لنفسه تهكما . ثم صمت وسكن فى مكانه ، وثبت عينيه على الدوقة ـ وهى تنقب فى أدراج المنضدة وظهرها نحوه ـ وصاح بها بلهجته المعتادة : « هيا أيتها الفتاة العجوز ! » .. فصاح الرجل المتشكك قائلا : « تومى .. يجب أن تقول أيتها الدوقة العزيزة » . وفى غمرة السكون الذى ساد القوم ، رفع تومى مخلبه ، وقبل أن يصل الى منقاره رده ثانية ، ثم مال الى الأمام نحو الرجل ، وصاح به : « لتنفجر غيظا ! » . ثم انطلق فى قهقهة قاصفة .. وعلا منا الضحك والتصفيق ، حتى لقد خشيت أن تصاب الدوقة باختناق لتعسر أنفاسها ، لفرط الضحك . وانسحب الرجل الى مقعد كبير بعيد ، وجلس صامتا . ولكن .. أية قصص رحنا ننسجها للتندر على مائدة العشاء !.. لكم أحب الحديث عن تلك الأوقات البهيجة !.. لكم تبدو وكأن الزمن تقادم عليها ، وأن برزخا يفصل بينى وبينها ! »

★ ★ ★

◆ وأطرق « جارث » برهة ، ثم قال : « وددت لو أنك عرفت (أوفردين) . ان الدوقة تقيم « حفلات ممتازة » لا مثيل لها ، يلتقى فيها كل الأصدقاء التواقين لأن يكونوا معا ، فينعمون بفاخر الطعام ، وبطيب المقام ، ويفعلون كل ما يحلو لهم ، بينما تكون الدوقة فى ذهاب واياب ، تتفقد حيواناتها وطيورها العجيبة المنوعة ، وهى تغدق سيلا من الرقة والكرم أينما ذهبت . ولقد كانت ـ فى آخر مرة كنت هناك ـ تطلق فى قاعة الاستقبال بعد العشاء ـ فى كل ليلة ـ ستة يرابيع (جرابيع) .. وهى حيوانات مصرية لطيفة ، مضحكة ، تشبه « الكانجارو » ولكنها صغيرة الحجم . فكانت هذه الحيوانات تقفز فى كل مكان على ساقيها الخلفيتين ، فتخيف بعض السيدات الى حد الجنون ، اذ تختبىء تحت ملابسهن ، مما يؤدى الى سقوط بعض الخدم بأقداح القهوة .. وكان آخر ما جلبته من أمريكا الجنوبية ، طائر من نوع « التوكان » . وهو طائر له منقار كقرن الموز ، وصوت كصوت نعجة عجوز حائرة . ولكن « تومى » ـ الببغاء القرمزى ـ ظل صاحب الحظوة الأولى ، وجدير بى أن أقول انه ذكى جدا ويعرف أكثر مما يخطر ببالك !

« وفى (أوفردين) اعتدنا أن نلعب بالزبيب لعبة مضحكة أثناء تناول الحلوى .. كان على كل شخص أن يضع خمس حبات من الزبيب حول طبقه، على مسافات متفاوتة . ثم كنا نغمض عيوننا ، ونتسابق فى تصيد الحبات

بالشوكة ، فمن تمكن من تصيد والتهام الحبات الخمس ـ قبل سواه ـ كان هو الفائز • ولم تكن الدوقة تشاركنا هذه اللعبة ، بل كانت تسر بأن ترأس التحكيم ، لتصيح فى كل من أراد الغش بأن يحاول فتح عينيه •• وكنت والآنسة شامبيون ـ وهى كما تعلمين ابنة أخ الدوقة ـ نلعب بأمانة • وكنا نفوز معا بالأسبقية فى كل المرات تقريبا ! »

فأجابته المرضة روزمارى : « أجل ، اننى أعرف هذه اللعبة ، وقد مرت بذاكرتى حينما كنت أتناول الطعام معصوبة العينين » •• فهتف جارث : « آه ، لو اننى علمت ، لما سمحت لك بذلك » • فقالت المرضة روزمارى : « كنت أدرك هذا ، ولذلك قمت بالتجربة فى عطة الأسبوع » •

ومد « جارث » يده بقدح الشاى لتملأه ثانية ، ثم مال نحوها بقامته ،حتى يسر لها بقوله : « والآن ، أستطيع أن أتجاسر فأنبئك باحدى تجاربى الصغيرة • فقد اعتدت دائما أن أخشى وجود ذباب فى الأشياء • وكنت ـ منذ طفولتى ـ فى فزع من أن أبتلع ذبابة فى الطعام ، دون أن أفطن • فلما بلغت السادسة من عمرى ، سمعت احدى زائرات أمى تقول : « لابد للانسان من أن يبتلع ذبابة فى كل عام » • وأضافت أنها قد ابتلعت ذبابة ، وهى فى طريقها لزيارتنا • فعلقت هذه الفكرة الفظيعة بذهنى الصغير ـ بعد ذلك ـ واعتدت أن أحس بالارتياح كلما وقع لى شىء من هذا ، حتى لأذكر اننى سارعت بالتهام لقمة من الخبز ـ مرة ـ اذ رأيت ساقين وجناحين عالقة بها ، شاعرا بأن الابتلاع أسهل من المضغ ، واننى بذلك سأعفى من هذا الواجب اثنى عشر شهرا • ولكننى اضطررت لأن أجرى بطول الشرفة وعرضها ، وقد شددت قبضتى ، حتى قدر لى أن أبتلعها • وعندما اكتشفت زيف فكرة الذبابة السنوية ، تولانى خوف مغالى فيه ، من أن أبتلع ذبابة عفوا • ولا أذكر اننى قبلت أكل شرائح الخبز المكسوة بالسردين ـ فى المطاعم ـ دون أن أنعم النظر تحت السردين ، بحثا عن ذبابة ، رغم اننى كنت أشعر ـ وأنا أرفع السردين ـ بأننى كالعجوز التى تنظر دائما تحت فراشها ، خشية أن يكون ثمة لص ، آه ، لكم عذبتنى هذه الفكرة الحمقاء التافهة ، منذ اصابتى ! فليس بوسعى أن أقول : « أواثق أنت ياسمسون من عدم وجود ذبابة فى الحساء » •• ليجيبنى سمسون : « كلا ياسيدى •• لا ذباب هناك ياسيدى » ، ثم يضع يده على فمه ويسعل ، فلا أقوى بعد ذلك على سؤاله • »

فانحنت المرضة روزمارى فى جلستها ، ووضعت قدح الشاى بحيث يستطيع تناوله بيده بسهولة ، بمجرد أن يتحسس حافة الطبق • وقالت له فى لهجة من تفهمه : « تناول طعامك دائما معى ، وأعدك بأن لن تكون ثمة

ذبابة فى أى شىء . ألا تطمئن الى عينى ؟ » . فابتسم « جارث » فى شكر واغتباط ، وقال : « بل أثق فى عينيك الرحيمتين الأمينتين فى كل شىء .. آه ، ان هذا يذكرنى بأننى أريد أن أعهد اليهما بمهمة لا يمكننى أن أأتمن عليها أحدا .. هل بدأ نور الغسق يا آنسة جراى ، أو لا تزال أمامنا ساعة من النهار ؟ » . فأطلت الممرضة « روزمارى » خلال النافذة ، ثم استشارت ساعتها ، وقالت : « لقد بكرنا فى تناول الشاى .. اذ اننا عدنا من نزهتنا جائعين . ان الساعة لم تبلغ الخامسة بعد ، والأصيل ساطع النور ،والشمس تغرب فى السابعة والنصف »

واذ ذاك قال جارث : « اذن فالنور كاف .. هل فرغت من قدحك ؟ ستكون الشمس ساطعة على النافذة الغربية فى المرسم . هل تعرفين مرسمى فى أعلى الدار ؟.. لقد أحضرت الصور التخطيطية لليدى براند من هناك . وأعتقد أنك لاحظت أكداسا من لوحات الرسم فى أركان القاعة ، بعضها بغير استعمال ، وبعضها يحتوى على خطوط أولية أو تصميمات ، وبعضها صور اكتملت .. هناك - يا آنسة جراى - صورتان - بين الصور الأخيرة - أتوق الى العثور عليهما واتلافهما .. لقد جعلت سمسون يقودنى يوما الى هناك ، ويتركنى وحيدا . وحاولت العثور عليهما باللمس ، غير أننى لم أستطع أن أتأكد ، وسرعان ما ارتبكت بين اللوحات .ولم أشأ أن أطلب مساعدة سمسون لأن هاتين الصورتين .. أعنى ، ليستا كغيرهما ، واذا رآنى أمزقهما ، فقد يعجب ويتكلم ، وأنا لا أحب أن أوقظ فضول الاستطلاع فى الخدم . كذلك لم أجسر على الاستعانة بالسير دريك ، لأنه كان خليقا بأن يعرف شخصية صاحب الصورتين ، لأنه معروف لديه .. وعندما رسمت هاتين الصورتين ، لم أفكر لحظة فى أن أسمح - بأية حال - لمخلوق سواى بأن يراهما .. ومن ثم ، فانى أعهد اليك وحدك - يا كاتمة سرى العزيزة - بهذه المهمة .. فهل لك أن تقومى بها ، الآن ؟! »

★ ★ ★

ودفعت الممرضة روزمارى مقعدها الى الوراء قائلة : « بلا شك ياسيد دالمين .. اننى هنا لألبى كل طلب وأفعل كل ما ترغب فيه ، وأؤديه عندما تشاء ! » . فأخذ جارث مفتاحا من جيب سترته ، ووضعه على المنضدة وهو يقول : « ها هو ذا مفتاح باب المرسم ، وأعتقد أن الصورتين - اللتين أقصدهما - هما فى أبعد ركن عن الباب ، خلف ستار يابانى .. وهما فى حجم كبير .. خمس أقدام فى ثلاثة ونصف .. فاذا لقيت صعوبة فى

حملهما ، فضعيهما وجهـا لوجه ، واستدعى سمسـون ، على أن لا تتركيه منفردا بهما ! »

وأخذت الممرضة « روزمارى » المفتاح ، ونهضت فاتجهت الى « البيانو » وفتحته ، وربطت الشريط الأصفر الذى يهتدى به جارث من مقعده ، ثم قالت له : « هيا اجلس واعزف ، بينما أكون فى الطابق الأعلى ، أؤدى مهمتى . ولكنى أرجو أن تخبرنى بشيء واحـد .. انك تعرف مدى اهتمـامى البالغ بأعمالك ، فهل تسمح لى – اذا عثرت على الصورتين – بأن ألقى عليهما نظرة عابرة ، تكفى للتعرف عليهما ؟ أو هـل لى أن أتأملهما فى ضـوء المرسم الجميل ؟.. ولك أن تطمئن الى أننى سأنفذ ما توافق عليـه ! » . فلم تقو شخصية الفنان على مقاومة الرغبة فى أن تتأمل العيون أعماله وتقدرها . ومن ثم قال : « لك أن تريهما اذا أردت .. انهما بلا مراء أبدع صورتين رسمتهما فى حياتى ، مع اننى قد رسمتهما من الذاكرة فحسب أى .. أقصد ان هذه كانت « فلتة » منى . على أنهما ليستا من وحى الخيال اطلاقا ، فقد رسمت فيهما ما رأيته بعينى تماما .. لا سيما فيما يتعلق بوجـه وتكوين المرأة . وهذان كل ما فى الصورتين .. أما ما عدا ذلك فملحقات ! »

ونهض فسار حتى بلغ مقعد « البيانو » ، وبدأت أصـابعه تعزف – فى رفق – أنغام « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. واتجهت الممرضة «روزمارى» الى الباب ، ثم توقفت لتسـأل : « وكيف أسـتدل على الصورتين ؟ » . فانخفضت النغمات ، وارتفع صوت جارث من خلف البيانو جليا واضحا ،وهو يتمايل مع نغمات الأنشودة ، وكأنه يتحدث على الالحان : « امرأة ورجـل وحيدان فى حديقة .. ولكن ما يحيط بهما لا يكاد يبين الا خفيفا .. وهى ترتدى ثوبا للسهرة رقيقا ، أسود ، جرارا .. وبه « دانتيلا » فوق الصدر .. واسم اللوحة : « الزوجة ! » .. أما الصورة الثـانية ، فلنفس المرأة ، وذات المنظر ، ولكن بدون الرجل .. اذ لم تكن ثمة حاجة لتصوير الرجل ، فهو – فى هذه الصورة – موجود ، سواء أكان ظاهرا أو غير ظاهر .. لقد قوله : « وهى تحمل على ذراعها طفلا صغيرا ، واسم اللوحة : الأم ! » توقفت نغمات البيانو الخافتة تماما ، فشـمل الصمت كل الحجرة . ثم أتم قوله : ((وهى تحمل على ذراعها طفلا صغيرا ، واسم اللوحة : الأم !))

وهنا علا صوت النشيد ، فى دوى غير منقطع ، وهو يبتهل : « ابعد عنا أعداءنا ، وهب السلام لبلادنا » . وكانت الممرضـة « روزمارى » قد بارحت الحجرة ، وأغلقت الباب خلفها !

الفصل الثامن والعشرون

• **صعدت** جين الى المرسم ، ففتحت الباب ، ودخلت ، ثم أغلقته خلفها .. وكانت أشعة شمس الغروب تنساب خلال نافذة غربية ، مضيفة مزيدا من البهاء ، على الستائر الحريرية والتحف المعلقة على الحائط : من قطعة يابانية بنفسجية اللون مطرزة ، وسجادة من اشغال الصين تمثل تنينا ذهبيا على رقعة حمراء ، وقد التف ذيله الطويل حوله ، وبرزت مخالبه المسنونة من أجزاء من جسمه لا يتوقع ان تكون فيها مخالب. وكانت « جين » قد دخلت المرسم ـ من قبل ـ مرات متعددة ، ولكنها كانت فى كل مرة تسرع بالتقاط الاشياء التى سألها « جارث » أن تحضرها ، فلم تكن ثمة فسحة من الوقت وحرية للتأمل والبحث .. وكانت « مارجرى » تحمل مفتاحا ثانيا للمرسم ، اذ كانت تدخله يوميا لتفتح النوافذ وتزيل الاتربة عن التحف الثمينة ـ بكل حرص ، وعناية ـ ثم تضع كل قطعة منها فى مكانها ، الذى كان صاحبها يحب أن تكون فيه ، عندما كانت عيناه الحادتان تريان كل شىء .. وكانت « مارجرى » تحتفظ بذلك المفتاح فى حلقة مفاتيحها ، فلم تكن « جين » ميالة لان تسألها اياه ، حتى لا تتعرض لرفض يؤلمها ..

أما الآن ، فكان فى وسعها أن تقضى ما شاءت من الوقت ، فجلست فى مقعد من تلك المقاعد الطويلة ، المنخفضة ، ذات المجلس العميق ، وقد زود بوسائد مريحة .. وكان مناسبا لحجمها ، وقد زود بمساند لذراعيها وركبتيها ورأسها ، حتى خيل اليها انها لن ترضى فى المستقبل عن مقعد ، بعد ان استمتعت بكمال هذا المقعد . **آه لو كانت لحبيبها كما كان هذا المقعد بالنسبة لها ! .. آه لو استطاعت أن تفى بكل حاجاته عن آخرها ، حتى يكون حضورها مبعث قوة وراحة**

وعزاء له دائما !

وجالت ببصرها فى القاعة ، ورأت فيها طابع « جارث » .. كل دقة وكل عناية وكل كمال فى كل شىء ! .. كان كل لون يلائم الآخر ، ويتلاءم معه ! .. وتأملت توزيع الضوء – سواء من السقف أو النوافذ – وترتيب المقاعد ومناضد الرسم من كل نوع وكل حجم ، والنظافة المتجلية فى الاماكن الخالية ، العارية من الاثاث ، وخلو المكان من الغبار .. وكلها أمور كان يتطلبها العمل . كما تأملت أسباب الراحة المترفة حول المدفأة وفى كل زاوية ومنحن وركن .. كان كل شىء كاملا ! .. وورق الجدران البنى ، ذو اللون المتسق الذى لا يتخلله ظل من حمرة أو صفرة .. كان بنيا بلون البندق الصافى .. وعلى حامل بقرب النافذة القصية ، كانت ثمة لوحة لم يتم انجازها ، وبجوارها رقعة الالوان والفراجين ، تماما كما تركها «جارث» صباح خروجه ، فى ذلك اليوم المشئوم ، منذ ثلاثة أشهر .. يوم تسلق سياجا ، وتدلى فوقه لينقذ حيوانا صغيرا من آلام لا داعى لها ، فارتمى فى هذا التيه ،وهذا الاسى اللذين لا حد لهما !

* * *

• **ونهضت** جين وأخذت تتأمل كل تحفه العجيبة التى كانت تعلو رف المدفأة .. واستلفت انتباهها – وفتنها بوجه خاص – تمثال نحاسى صغير لدب مكتنز جلس على عجزه فى ثبات واسترخاء ، قابضا بمخلبيه الاماميين على قائم من النحاس ، قد مال برأسه الى جانب ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بالخرز تحدقان أمامه .. وكانت فى عنقه سلسلة اتصلت بالقائم النحاسى ، كرمز للاسر والشراسة المطبوعة . وأدركت « جين » أن رأس الدب متحرك ، يمكن برفعه الوصول الى فجوة تصلح لحفظ الثقاب ، وان ايقنت « جين » أنها لن

تجد بها ثقابا اذا فتحتها .. ولم يكن ثمة شك فى ان هـــذا الدب الصغير من مخلفات أوائل العهد الفيكتورى ، فهو زميل طفولة ((جارث)) .

وتمثل لها ((جارث)) فى عامه الاول ، يمد يديه الصغيرتين المكتنزتين نحو النحاس اللامع .. ثم ((جارث)) الصغير ، ابن الثالثة ، بشعره الاسود اللامع ، وعينيه الشديدتى البريق ، وهو يحملق بشغف فى خرزتى عينى الدب الجامدتين ، وينظر برهبة الى السلسلة .. ثم ((جارث)) الغلام ، بقامته الطويلة النحيلة ، وقد عاد من عطلته المدرسية ، ورأى الدب فوق رف المدفأة ، فهلل له ، قائلا : ((**هالو يا برونو.. ما أطيب أن أراك أيها الصديق القديم . انى لاذكره يا أمى منذ مولدى ، وعندما شعرت بوحشة الغربة فى بداية السنةالدراسية ، أدركتمدى ما فى رؤيته من متعة .. رؤيتك ورؤيته يا اماه ، فتصـورى كيف أجمع بينـكما .. ذلك لانكما تمثــلان .. البيت !**))

.. ثم تصورت ((جارث)) وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد أصبح فارع الطول نحيلا ، رصـينا فى حزنه ، اذ ألفى الدار خاوية ، موحشة ، بعد أن وورى الجسد الرقيق الغالى ــ جسد أمه ــ مثواه الاخير .. ووقف واجفا ، جامد العينين ، بجانب رف المدفأة ــ فى البهو الفسيح الساكن ــ حتى اذا ما لمح التمثال النحاسى الصامت ، فى جلسته المألوفة مستسلما ، مغلولا الى القضيب النحاسى ، قال له : ((أواه يا برونو ! .. أواه يا أماه !)) ثم ارتمى على مقعـدها الخالى ، حيث لقى راحة النفس الرحيمة التى كثيرا ما يضن بها الزمن على الرجال فى أحزانهم !

كل هذه التأملات أوحى بهـا الدب الى ((جين)) ، وهى واقفة بجوار الرف ، والدب بين يديها .. وحركت راس الدب فاذا بالفجوة ــ التى كانت خلفه ــ خاوية . فأعادت الراس الى مكانه بكل حذر ، ووضعت الدب فى مكانه فوق الرف ..

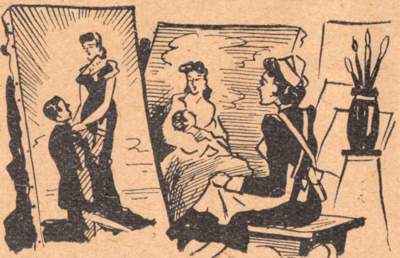
وعادت الى صوابها اذ ادركت انها تتعمد التلكؤ فى تنفيذ أمر مفروض عليها ! .. وكان دريك قد أخبرها عن اللوحتين اللتين رسمهما « جارث » للمرأة الوحيدة .. وها « جارث » قد أنبأها عنهما أكثر مما فعل دريك . ولقد حان الوقت ، لكى تراهما بنفسها ، فلا جدوى من الارجاء . لذلك نظرت نحو الستار الصفراء ، ثم سارت الى النافذة الغربية ففتحتها على مصراعيها ، واذا بأشعة الشمس تنحدر تدريجا نحو التلال الارجوانية ، وقد أخذت زرقة السماء تبهت ، بينما غاصت فيها سحابة وردية .. ثم رفعت « جين » بصرها الى السماء ، ودست يديها فى جيبى ثوبها ، وقالت بصوت مرتفع : « اننى أشهد الله .. واذا قدر لى أن أعجز عن الافضاء بهذا القول ، أو تذكره ، فها أنذا أفعل الآن .. أشهد الله على اننى كنت على صواب ، وقد راعيت سعادة « جارث » فى مستقبله ، كما راعيت سعادتى . ومضيت فى قرارى لخيرنا معا ، مضحية بالهناءة الحاضرة .. ولكنى — وأشهد الله على قولى — كنت على يقين ثابت بصواب ما قررت .. ولا أزال أعتقد ذلك ! »

ولم تنطق بهذه الكلمات بعد ذلك قط !

الفصل التاسع والعشرون

• **وجدت** جين خلف الستار الصفراء كومة مكدسة من اللوحات فى غير ترتيب ، مما نم عما فعلته بها اليد العمياء ، وهى تتحسس باحثة فى غير جدوى ، ثم عن المحاولات العقيمة لاعادة اللوحات وتنظيمها .. واقبلت جين تلتقط لوحة بعد أخرى — فى حرص بالغ — فتسويها . بحيث يكون وجهها نحو الحائط .. كانت لمسات وصور رائعة ، بعضها تم رسمه ، وبعضها لم يتم . ووجدت بينها وجها أو وجهين تعرفت عليهما ، وتأملت جمالها المرسوم . غير انها لم تعثر على اللوحتين ..

فهبت من جلستها ونظرت حولها ، حتى لمحت فى ركن آخر - على بعد منها - كومة أخرى من اللوحات مغطاة بستار مصرية ،



فاتجهت اليها . وسرعان ما عثرت على الصورتين المنشودتين ، وكانتا أكبر حجما من اللوحات الاخرى . وقد تسنى لها التحقق منهما بمجرد أن لمحت ثوب السهرة الاسود الذى كان يتوسط كل منهما ! .. لذلك حملتهما الى النافذة الغربية - دون أن تمنحهما أكثر من نظرة عابرة - ووضعتهما بحيث يسقط عليهما أكبر قسط من النور ، وأدنت منهما المقعد الذى كانت تجلس فيه ، وأمسكت فى يدها اليسرى بالدب النحاسى كتميمة تعينها على ماكانت مقدمة عليه . ثم وضعت اللوحة الثانية على المنضدة ، مقلوبة على وجهها ، وجلست تتأمل مليا الصورة الاولى .

كان أول طابع تنقله العين منهـا الى المخ ، هو وجه كريم المحتد ، رسم بيد لا تقل عنه كرما .. نبل بنبل ! أجل ، كان النبل يتجلى اولا ، فى وضع مهيب ، وجبين مرفوع فى اعتزاز عارم .. حتى اذا أمعنت النظر فى الجسم الممتلىء ، المتسق فى ابدع تناسب ، وان كان كبيرا ، مفرط النمو .. وحتى اذا تأملت طول الاطـراف ، وثبات القـدمين على الارض ، وقوة اليدين الكبيرتين ، تجلى لك الطابع الثانى الذى تحدثه الصورة

فى نفسك .. قوة فى العمل .. قوة موجودة .. قوة مستمرة ! فاذا نظرت الى الوجه — بعد ذلك — صادفت مفاجأة كبرى .. كانت الفكرة الثالثة — التى توحى بها الصورة — هى «الحب» .. حب من أسمى درجة ، وأقدس نوع ، وأرق وأرقى مثال ! .. وهى الى ذلك ، تبين أوفر حنان أودع نفسا بشرية ! .. كل هذا تجده فى الوجه !

كان الوجه كبيرا فى تناسب تام مع الجسم ، لا مخايل فيه تطابق الجمال العادى .. كانت القسمات حسنة ، ليس فيها أى أثر للدمامة ، ومع ذلك فقد كانت كل قسمة منها تفتقد الجمال .. وكان الطابع العام لها هو : وجه عادى ، ومنظر حسن ، فى غير زينة ، ولا تستر ولا استحياء . ولكن الوجه كان يزداد اجتذابا لك ، كلما امعنت النظر فيه .. وكلما اغفلت تجرده ، ازددت اعجابا بما اتسم به من نزاهة ، وطهر ، وقوة عزم فائقة ، وبساطة كريمة معتزة .. فاذا استوعبت كل هذه التفصيلات الخارجية ، ونأيت لتتأمل الوجه عن بعد ، اذا بالمعجزة تحدث ، اذ يتسلل الى الوجه « نور لم ينتشر يوما على بحر أو على أرض » .. نور يشع من العينين الرماديتين الوادعتين ، وهما تطلان الى خارج الصورة ، من فوق رأس الرجل الذى كان جاثيا أمامها ، وقد تجلى فيهما استسلام علوى من روح أنثوية لعاطفة جياشة ، قد تكون متسلطة مسيطرة ، ولكنها تنفث فى المرء القدرة على أن تكون أصدق احتفاظا بشخصيتها كاملة ، منها فى أى وقت ، من قبل .. وكانت فيهما — فوق ذلك — دهشة مليئة بالفرح ، وعجب من سر غامض لم يتجل لصاحبتهما بعد ، وحنان دافق .. **ثم كانت هناك رحمة تكاد تكون سماوية ، تفيض على ذلك الشعور الجارف العاتى الذى ألقى بالرجل جاثيا على ركبتيه ، ودفعه الى أن ينشد فى صدرها ملاذا .. وكان هناك حنين الى المواساة ، والى البذل ، والى الارضاء .. كل هذه**

المشاعر امتزجت فى نظرة كانت تقطر منها عذوبة ، حتى أن الناظر اليها لم يكن يتمالك دموعه !

وكانت المرأة جالسة على حاجز رخامى عريض ونظرها مصوبا أمامها ، وركبتاها مثنيتين قليلا الى الامام ، وقد تهدلت أهداب ثوبها الاسود فملأت الفراغ الواقع الى يمينها .. وعلى مقربة منها ـ الى يسارها ـ جثا رجل ذو قوام ممشوق ، فى ثياب السهرة ، وقد أحاط ذراعاه بخصرها ، واختفى وجهه بأكمله فى ثنايا « الدانتيلا » التى تزين صدرها ، ولم يبين من ذلك الوجه سوى جزء خلفى من رأسه الاسود ، ومع ذلك فان الشكل الاجمالى للرأس ، كان ينم عن وجد متأجج . وقد ضمته المرأة اليها ، بحركة رائعة ، توحى باستسلام المرأة ، واشفاق الام الحنون .. فقد كانت يداها معقودتين خلف رأسه تشدانه اليها ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، فان الوجه المختبىء كان بلا شك صامتا ، كما أن شفتى المرأة كانتا تبدوان ـ من فوق رأسه السوداء ـ مطبقتين فى قوة عزيمة ، برغم ما حام عليهما من اشراق بسمة هناء لاسبيل الى وصفها .. وظهر فى يسار الصورة عود من الورد الاحمر متسلقا بعض القوائم المصنوعة من الخشب ، لا تستبين العين منها سوى القليل ، وقد تدلت الورود قانية متوهجة فى أعلى الركن الايسر ، فكانت تمثل اللون البهى الوحيد فى الصورة !

ولكن العين كانت لا تلبث ـ بعد أن تستوعب كل هذه الدقائق الصغرى ـ أن ترتد الى ذلك الوجه الهادىء الحنون ، وقد تألق بالحب .. والى اليدين القويتين وهما تتعلمان ـ لاول مرة ـ كيف تدفعان العاطفة الواقعية التى ينطوى عليها حنان المرأة ، فاذا بالعقل يهمس بالاسم الوحيد الذى يصح اطلاقه على الصورة : « **الزوجة !** »

وتفرست « جين » فى الصورة طويلا ، فى صمت بالغ ، ولو ان دب « جارث » الذى امسكت به فى يدها كان من مادة

أخرى غير نحاس أوائل العهد الفيكتورى المتين ، لالتوى وتحطم تحت ضغط يديها المتقلصتين !.. ذلك انها ماارتابت لحظة فى انها كانت تنظر الى نفسها . ولكن ، أواه ، رحماك يا سماء ! ما أبعد البون بين هذه الصورة وبين ما تعكسه عليها مرآتها !.. لقد جمد عقلها — مرة أو مرتين أثناء تحديقها فى الصورة — وكف عن التفكير ، فظل نظرها ساهما فى الدقائق الصغيرة . **غير انها كانت — فى كل مرة — تعود الى التأمل ، وقد جذبها تعبير العينين الرماديتين ، اذ أعاد الى ذهنها صورة حية ملموسة لكل المشاعر التى اجتاحت كيانها ، والتى مرت بها حينما ارتمى ذلك الرأس المحبوب على صدرها بغتة ، لائذا بملجئه الامين .. وهمست قائلة : « انها صادقة !.. نعم انها صادقة ، ولا أملك أن أنكرها .. انها تمثل ما أحسست به تماما ، ولا بد انها تطابق ماظهرت به اذ ذاك ! »**

ثم خرت فجأة جاثية على ركبتيها أمام الصورة ، وهى تهتف : « أواه ياالهى ! هل كنت هكذا ؟ » .. لقد رفع — بعد هذا المنظر — عينيه البراقتين محدقا فى وجهى تحت ضياء القمر ، أفكانت هذه هى الصورة التى تجلت له ؟ .. وهل كنت أبدو فى هذه الصورة ؟ .. وهل كان فى وسع المرأة التى كانت بهذا الشكل ، والتى ضمت رأسه ثانية الى صدرها — كما هو واضح — أن ترفض فى الصباح التالى أن تتزوجه ، أرتكانا الى صغر سنه ، والى كبرها . أواه ياجارث ، ياجارث !.. أواه ياالهى ! ساعده على أن يفهم الحقيقة .. أعنه لكى يصفح عنى ! »

* * *

• **وتحت** قدميها — فى الغرفة السفلى — طرق مسامعها صوت الخادم « ماجى » تغنى ، وهى تحيك الملابس ، وقد سرى صوتها حتى نفذ من النافذة المفتوحة واضح النبرات

والكلمات ، بلكنته الاسكتلندية الصافية ، حتى بلغ مسامع « جين » وهى جاثية . وكان عقلها - الذى أحاله الالم الى جمود كامل - قد تشبث فى لهفة بنشيد « ماجى » ولحنه ، وهو يجرى كما يلى :

« أيها الحب الذى لايريد فكاكى ..
« ها أنذى أسلم نفسى المرهقة اليك ..
« هاأنذى أعيد اليك الحياة التى أنا مدينة بها ..
« لتغوص فى أعماق محيطك ..
« عساها تزداد غنى وامتلاء ..
« أيها النور الذى يقفو أثرى ..
« انى أسلمك مشعلى الخافق المرتعش ..
« ان قلبى يختزن شعاعه المعار ..
« عسى أن يزداد بريقا وصفاء ..
« ويجد نهاره فى وهج شمسك ! »

ثم أمسكت جين بالصورة الثانية ووضعتها فوق الاولى .. كانت تمثل المرأة نفسها ، وفى نفس مجلسها فى الصورة الاولى .. ولكن الرجل لم يظهر معها ، وانما ظهر بين ذراعيها طفل صغير ، توسد رأسه الاسود صدرها الناهد .. ولم تكن المرأة ترسل البصر من فوق الرأس الصغير ، وانما كانت تحدق فى وجهه .. وكان عود الورد الاحمر قد نما وانتشر على جانب الصورة ، مكونا قوسا مزدهرا فوق الام والطفل ، وقد تمثل فى كيان المرأة جلال الحنان .. ولم يكن الوجه - فى اطاره وتقاطيعه - أقل خلو من الجمال من ذى قبل ، ولكنه كان - فى هذه الصورة أيضا - يبدو جميلا ، بما ارتسم عليه من حب الامومة . ولقد علمت أن صورة « الزوجة » حققت أكثر مما كان يرتقب منها . أما فى هذه الصورة ، فقد تجلت « الزوجة » فى أبهى حقيقتها ، اذ أضافت « الزوجية » أعجوبة « الامومة » ! .. فاذا كل الغوامض تتجلى ، واذا كل المسرات

قد عرفت ، واذا الابتسامة على شفتيها الهادئتين تشى بالهناءة !

وكان ثمة فرع من الورد القرمزى قد نما ، وازدهر فوقهما ، وتساقط منه وابل من أوراق الورد القرمزية فوق الام والطفل .. وتشبثت أصابع الطفل بالدنتلا المسبغة على صدر الام ، وقد سقطت ورقة من الورد فوق المعصم الصغير ، فرفعت الام يدها لتزيحها عنه . حتى اذا وقعت عيناها على عينى الطفل البراقتين السوداوين ، توقفت يدها عن الحركة . وافتر ثغرها عن ابتسامة !

وانخرطت ((جين)) فى بكاء قانط ، وهى تتأمل الصورتين .. ان ((مجرد غلام)) قد سبر غورها ، وادرك أعماقها ، وفهم عظمة ما تملك من امكانيات الامومة ، أكثر بمراحل مما كانت هى تفهم نفسها . فلما رآها – فى ومضة واحدة ((الزوجة)) ، قفز عقله ليتمثلها فى صورة ((الام)) . واذ ذاك وجدت نفسها مضطرة لان تردد : ((انها الحقيقة)) ! .. أجل ، هذه هى الحقيقة ..))

ثم عادت بذاكرتها الى ما سبق لها ترديده من قوله : ((لم يكن بالوجه الذى يود المرء أن يراه دائما على المائدة)) . فهل وجهها هو الوجه الذى تحلو رؤيته ؟ وجهها .. هذا الوجه الذى رسمه جارث بعد عام من زواج افترض قيامه ! .. هل يسأم هذا الوجه ، أو يرغب فى أن يحول عينيه عنه ؟

* * *

• وألقت ((جين)) نظرة أخيرة على الصورة ، ثم أعادت الدب الى مكانه ، ودفنت وجهها فى يديها وقد كست وجهها حمرة داكنة امتدت حتى منبت شعر رأسها وخضبت أطراف أصابعها .. واذا بها تسمع الخادم سادرة فى أغنيتها – فى الغرفة السفلى – بصوتها الفتى الرخيم :

« أيها الفرح الذى تفتقدنى خلال الآلام ..
« لست أملك أن أغلق قلبى عنك .
« وها أنذى أتتبع قوس قزح بين الامطار ..
« شاعرة بأن الوعد ليس عابثا .
« وان الصباح اليوم سيكون بلا دموع »

وبعد قليل ، همست جين : « أواه يا حبيبى ، اصفح عنى! .. لقد أخطأت خطأ بليغا . لسوف اعترف ، وليساعدنى الله على أن أشرح كل شىء ، واذ ذاك .. أواه ، ستصفح عنى يا حبيبى ! » . وعادت ترفع رأسها وتتأمل الصورة ، واذا بها ترى بضع وريقات من وردة قرمزية ، متناثرة على الارض ، فذكرتها بوريقات الوردة الحمراء التى سقطت من صدرها ، وتناثرت على ارض الشرفة فى (شينستون) .. رمزا للآمال الباسمة ، ولبهجة الحب التى مرغها قرارها — فى تلك الليلة — فى تراب خيبة الرجاء . على أن فروعا زاخرة بالورود القرمزية النامية ، كانت تتوج هذه الصـــــورة . ومن خلال النافذة المفتوحة ، أنصتت الى الجزء الاخير من أغنية الخادم :

« أيها الصليب الذى ترفع رأسى الى العلا ..
« لست أجرؤ على الهرب منك ..
« اننى استلقى ميتة فى تراب بهجة الحياة ..
« ومن الارض نبتت الورود الحمراء ..
« انها الحياة التى لا نهاية لها » !

وذهبت جين الى النـــافذة الغربيـــة ، ووقفت وذراعاها مرفوعتان فوق رأسها ، ناظرة الى أشـــعة الشمس المائلة للغروب ، وقد أحالت السماء الى صفحة ذهبية وقرمزية ، وامتد لهبها الاحمر على طول الافق ، وهو يتدرج فى الشحوب الى لون وردى باهت ، تخللته غيوم حمراء .. بينما انبسطت — فوق رأســها — صـــفحة زرقاء داكنة ، لا تدرك لها غور ولا يحدها آخر ..

وارسلت « جين » بصرها الى القلاع الذهبية ، فوق الربى الحمراء . ثم رددت بعض عبارات من « التوراة » بصوت متوسط الارتفاع : « **وكانت المدينة من الذهب الخالص .. ولم تكن فى حاجة الى الشمس ، ولا الى القمر ، لينيرها .. لان مجد الله قد أضاءها . وهناك لن يكون موت ، ولا حزن ، ولا بكاء .. ولن يكون هناك أى ألم ، لان الاشياء السابقة قد ولت** »

آه ، كم من أمور مرت بها منذ وقوفها فى هذه النافذة الغربية ، ولم تنقض بعد ساعة ؟ ! .. كأن الحياة بأسرها قد اعتدلت الى الوضع الصحيح ، وتبدل مظهرها القريب ، كما تغير منظرها البعيد .. حقا لقد تجاوز « جارث » نطاق عماه !

ثم رفعت جين عينيها الى السماء الزرقاء ، وافترت شفتاها عن بسمة كلها توقع وارتقاب صامتان ، وغمغمت قائلة : « تلك الحياة التى ستظل .. دون ما نهاية » . ثم التفتت حولها .. ورأت الدب النحاسى ، فأعادته الى مكانه على رف المدفأة ، وأعادت المقعدالى مكانه ، وأغلقت النافذة الغربية ، وتناولت اللوحتين ، ثم بارحت المرسم وأخذت طريقها هابطة السلم الى الدور الاسفل فى حذر

الفصل الثلاثون

ـ **لقد** استغرقت المهمة منك وقتا طويلا يا آنسة جراى . فقد كدت أرسل اليك سمسون ليرى ما حدث ؟

ـ يسرنى أنك لم تفعل ذلك يا سيد دالمين ، فان سمسون كان خليقا بأن يعثر على باكية على أرض المرسم .. وفى استعانتى به ـ فى مثل هذه الظروف ـ مذلة أشد من سؤاله عن الذبابة فى الحساء !

فأجفل « جارث » ودار مسرعا فى مقعده ، فان اذن الفنان

فيه التقطت اللهجة التى نمت عن فهم لعمله . وقال : «تبكين ! .. ولماذا ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى : **« لاننى كنت تحت سحر الصورتين ، فقد فاقتا كل وصف . انهما تحركان أعمق أغوار النفس ، ومع ذلك فانهما تثيران الشـــجون .. آه ، الى أقصى حد ، لانك قد جعلت من امرأة بسيطة الملامح ، امرأة جميلة ! »**

فنهض جارث على قدميه ، واتجه اليها بوجه كانت عيناه خليقتين بأن تطلقا شررا ، لولا أنهما كانتا فاقدتى الابصار ، وهتف : « من .. ماذا ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى فى هدوء : « امرأة بسيطة الملامح ، فلا بد أنك كنت تدرك أن النموذج الذى نقلت عنه كان امرأة خالية من الجمال . وهنا سر الاعجاز فى الصـــورتين .. لقد جملتها الى أبعد حد فى الزوجية ، ثم مجدتها فى الامومة ، حتى ان المرء يمعن فى نسيان خلوها من الجمال ، كلما أطال النظر اليها ، لانه يراها كمحبة محبـــوبة ، ومن ثم فهى جميلة .. انه نصر كبير للفن ! »

فجلس جارث وقد شبك يديه أمامه ، ثم قال : « انها نصر للحقيقة .. فانما رسمت ما رأيته بعينى » . فأجابته المرضة روزمارى : « لقد رسمت روحها ، فأضاءت وجهها البسيط ! » .. فقال لها جارث بصوت يكاد يكون همســـا : « لقد رأيت روحها .. وكانت تلك الرؤيا من الاشراق بدرجة انها أضاءت حياتى المظلمة . وان الذكرى لتضىء ظلامى حتى الآن ! » . وران على المكتبة صمت رقيق . واشتد الغســـق اعتاما . وتكلمت المرضة روزمارى بصوت خافت : « لى رجاء يا سيد دالمين .. اننى أرجوك أن لا تتلف هاتين اللوحتين ! » .. فرفع جارث رأسه قائلا : « بل يجب أن أتلفهما يا بنيتى .. لست أمتلك أن أتركهما ليراهما من قد يعرف ج .. السيدة التى رسمتها ! »

ـ مهما تكن الاحوال ، فهناك شخص واحد ، له الحق فى

أن يراهما قبل أن تتلفهما !

وسألها جارث : « ومن هو؟ » . فأجابته الممرضة روزماري في شجاعة : « السيدة المرسومة » . واذ ذاك سألها : « وكيف تعلمين أنها لم ترهما ؟ » . فسألته : « هل رأتهما ؟ » . وجاء جوابه في اقتضاب : « كلا .. ولن تراهما ! » . ولكنها قالت : « بل يجب أن تراهما ! »

واشتم « جارث » من لهجتها الاصرار، فسألها : « ولماذا ؟ » . ثم أنصت باهتمام لردها ، وهي تقول : « لان أية امرأة تعرف انها عادية الوجه ، لا تقدر شيئا مثل تقديرها لان ترى نفسها وقد أضفى عليها الجمال بهذا الشكل ! »

وجلس « جارث » ساكنا لبرهة طويلة ، ثم قال : « امرأة تعرف انها عادية الوجه .. » . وكرر هذه الجملة في دهشة ، وفي صوته نبرة التساؤل . فاستأنفت الممرضة روزماري حديثها متشجعة : « أجل .. افتظن لحظة .. بأن مرآة تلك المرأة قد عكست لها ــ ولو مرة واحدة ، وبأية طريقة كانت ــ ما سكبت عليها من جمال في هاتين الصورتين ؟ .. اننا ــ معشر النساء ــ عندما نقف امام المرآة يا سيد دالمين ، نتأمل في قلق قبعاتنا ، أو أشرطة ثيابنا ، أو مفارق شعورنا ، نرى أنفسنا دائما في أسوأ صورة . أما تلك السيدة ــ في أسوأ صورها ــ فخليقة بأن تكون خالية من الجمال خلوا تاما ! »

وجلس جارث في صمت تام ، فواصلت الممرضة روزماري حديثها : « ثق من ذلك . أنها لن ترى نفسها قط ك « الزوجة » أو « الام » .. فهل هي زوجة ؟ » . فتمهل « جارث » نصف ثانية ، ثم أجاب في هدوء تام : « نعم » . فأسرعت يدا « جين » الى صدرها ، اذ أحست بأنها يجب أن تضغط قلبها ، والا سمع « جارث » خفقانه ! .. وعندما قدر للممرضة روزماري أن تعود الى الحديث ، كانت تشوب صوتها رجفة خفيفة ، وهي تقول : « وهل هي أم ؟ » . **فأجابها جارث :**

« كلا .. لقد رسمت ما كان ينبغى أن يكون ! » . فتساءلت : « اذا هى .. » ، واجاب جارث باقتضاب : « اذا هى كانت .. »

وشعرت الممرضة « روزمارى » بأنه يوبخها ، فقالت فى ذلة تامة : « يا عزيزى السيد دالمين .. اننى أدرك تماما بمدى ما أظهر به امامك اليوم من تطفل ، بما ألقيه عليك من استفسارات واقتراحات .. غير أن لومك يجب أن ينصب على الاثر الذى سيطرت به لوحتاك البديعتان على عقلى .. أواه ، انهما جميلتان .. جميلتان ! » . فهتف جارث : « آه ! » ، وقد عاوده سرور الفنان لدى سماعه المديح . ثم أردف : « لا يا آنسة جراى .. لقد نسيت الصورتين بعض الشىء ، فهل هما هنا ؟ حسنا ارفعيهما فوق المنضدة ، وصفيهما لى وصفا دقيقا .. دعينى اسمع منك ما كان لهما من وقع عليك كصورتين ! »

* * *

• **ونهضت** « جين » فسارت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها ، وبينما كانت تستنشق الهواء النقى ، همست بدعوات حارة ، حتى لا تخونها أعصابها وصوتها ورباطة جأشها ، فى هذه الساعة الحرجة .. ان صورتى «جارث» كانتا تدينانها — هى بالذات — فعليها الآن ان تقنع جارث بما تصفهما به .. **يجب أن يقتنع ويؤمن بالحب الذى صوره !**

وعادت الممرضة روزمارى الى مجلسها .. وبصوتها الرقيق العادى ، الذى لم تؤثر فيه الانفعالات العاطفية ، أخذت تسكب فى أذنى الفنان الاعمى المرهفتين كل ما راته جين فى المرسم ، بدقة بالغة . واجادت اداء المهمة ، فى غير رحمة لنفسها ولا له . **واذا بظمأ « جارث » نحو « جين » — الظمأ القاسى ، الميئوس من ريه — يستيقظ فى نفسه . واستيقظ معه ادراكه — الذى كاد يفقده عقله — بأنها كانت له ، ومع ذلك فهى ليست له ،**

وبأنه لو كان قد أصر على أن يتلقى ردها فى تلك الليلة لما كان الرد رفضا ، فان التفكير الهادىء – فى الساعات التى تلت ذلك – لم يكن موجودا فى تلك اللحظات النشوانة ! .. ومع ذلك ، فهو قد فقدها .. فقدها ! لماذا ؟ أجل ، لماذا ؟ .. أكان هناك سبب آخر خلاف ذاك الذى تذرعت به ؟

واستمر صوت الممرضة « روزمارى » فى هدوء ، غير مبالية بما يعانى من لوعة حارة .. وكانت قد أوشكت على انهاء حديثها ، حين قالت : « ويا لجمال عود الورد الاحمر المتسلق يا سيد دالمين ! .. كم أنا معجبة بفكرة تصوير الورد براعم صغيرة لم تتفتح فى الصورة الاولى ، ثم متفتحة فى أكمل بهاء فى الصورة الثانية ! » . فتجلد « جارث » قليلا وابتسم .. يجب أن لا يستسلم الى هذه الفتاة ! ومن ثم قال : « نعم .. اننى مغتبط بهذه الملاحظة التى تبدينها . والآن اسمعى لى .. اننا لن نتلفهما فورا فلا داعى للعجلة ، ما دمنا قد وجدناهما . واخشى ان أكون قد سببت لك ارهاقا كبيرا .. فهل لك أن تطلبى قطعا كبيرة من الورق البنى ، ولفيهما فيها ، واكتبى على الورق : « لا يجوز فتحه » ، ثم اسلمى اللفة الى مارجرى لتعيدها الى المرسم .. حتى اذا ما أردت احضارهما – فى أى وقت – فلن أجد صعوبة فى العثور عليهما » .

وأجابته الممرضة روزمارى : « لكم انا مسرورة بذلك ، فلعل السيدة البسيطة الملامح .. » . ولكنه قاطعها قائلا فى حنق : « لا أقبل أن يجرى ذكرها بهذه اللهجة .. فلست أدرى رأيها فى نفسها ، بل أشك فى انها فكرت يوما فى نفسها .. ولست اعلم ماذا كنت ترين فيها لو أنك رايتها ، وكل ما يمكننى ان أقوله – فيما يتعلق بى أنا – هو ان وجهها هو الوحيد الذى ينير لى ظلمتى ، والذى أراه بوضوح فى كل لحظة . كل ما رسمته من حسن باهر ، وكل جمال أعجبت به قد أخذ يتلاشى من ذهنى وكأنه قطرات الندى .. انه يتطاير من ذهنى كأوراق

الخريف .. اما وجهها هى ، فهو الوحيـــد الذى يتربع فى قلبى ، هادئا ، فى هالة قدسية ، حنونا ، جميلا .. انه امامى دائما ، وانه ليؤلمنى أن يصفها امرؤ لم يرها الا كما رسمتها يدى ، بأنها بسيطة الملامح ! »

فأجابته المرضة روزمارى فى خنوع : « سامحنى ! .. اننى لم أقصد أن أؤلمك يا سيدى .. ولكى أثبت لك ما حل بى اذ رأيت هاتين الصورتين ، فسأدلى اليك بعزم ، وطدت عليه نفسى وانا فى المرسم .. ليس فى استطاعتى ان أفوت على نفسى ما يصفونه بأنه « أجمل مباهج الحياة » ، لمجرد افتقارى الى الشجاعة للاعتراف بالخطأ ، ولان اخلع عنى كبريائى وان اتذرع بالصراحة والتواضع .. سأكتب اعترافا كاملا الى صديقى الشاب ، عن نصيبى من سوء التفاهم الذى فرق بيننا .. أتراه سيفهم ؟ .. وهل تظنه سيصفح ؟ » . فابتسم جارث . وحاول أن يتصورها بوجه جميل مكفهر ، يتوجه شعر هش ناعم متهدل ، فاذا بهذا الوجه لا ينسجم مع الصوت .. ولكن ، هكذا كانت المرضة « روزمارى جراى » كما يراها الآخرون ! .. وأجاب أخيرا : « انه يكون حيوانا اذا لم يصفح يا بنيتى ! »

الفصل الواحد والثلاثون

◆ كان طعام العشاء ـ فى ذلك المساء ـ هو أول وجبة تناولاها معا على مائدتهما المستديرة الصغيرة ، فأسفر عن نجاح كبير . اذ أن الأســاليب التى ابتكرتها المرضة روزمارى ، أفضت الى نتائج باهرة ، واغتبط «جارث» بالتدابير التى قللت من شـعوره بالعجز .. وكان المجهود الذى بذلاه بعد الظهر قد أحدث رد فعل من المرح . وأدت بعض الأسئلة المتزنة ، الى مزيد من القصص والفكاهات عن الدوقة وطيورها وحيواناتها ، وورد اسم الآنسة شامبيون بكثرة أطربتهما معا !

كانت تجربة عجيبة لجين أن تسمع بأذنيها « جارث » يصفها بكلماته التى تشبه رسمه ، فقد كانت خالية البال تماما من الشعور بذاتهـا ، حتى تلك الأمسية المنحوسة ـ فى (شينستون) ـ ولم تكن لديها أية فكرة عن أنها

كانت تحدق فى عيون الناس اذا كلمتهم ، وان هذا كان سر ارتباك « ذوات العقول الفجة ، اللائى كن يقلن انهن يرهبنها ، وانها تثير أعصابهن » ! ٠٠ وأنصتت « جين » الى « جارث » ، وهو يمضى فى تصويرها : « ذلك لانهـا كانت تلم مباشرة بنفوسهن الضحلة المذبذبة المتقلبة ، المليئـة بالغرور فى أنفسهن ، وبالأفكار العقيمة عنها ٠٠ فلا عجب اذا أصـابهن الذعر ، وولين الأدبار ، وهن يتحدثن عنها بأنها « تلك الآنسة شامبيون الرهيبة » ! ٠٠ أما أنا ، فما شعرت يوما بأنها رهيبة ، بل اننى كنت أحمد الله على أن ليس بى ما أخجل منه ، كلما سنحت لى الفرصة للتحدث اليها ، فان تلكما العينين الصافيتين كانتا تمســان الأعماق فى كل مرة ، كمـا يعبر أقرباؤنا الذين يمخرون البحار ! »

كذلك لم يخطر لجين قط أنها كانت تتكلم وهى ممسكة بمحرك نيران المدفأة فى يدها ، اذا أمكن ٠٠ وانها كانت تنسق الوقود فى المدفأة بينما تكون منصرفة الى تنسيق الحجج فى الجدال ٠٠ وانها كانت تحرك النار بشدة وهى تهدم حجج مجادلها ، وكانت تحرك النار بمقدم قدمها ، دون أن تصاب أحذيتهـا الرشيقة بسوء ، وكانت تقف ممسكة بذقنها وهى تفكر فى أية مشكلة ٠٠ كل هذه الخلال الصغيرة شرحها جارث بلمسات حية ، وارتكزت عليها ذاكرته فى اصرار أدهش « جين » ، وكشف عن حقيقته فى علاقته معها ــ منذ ثلاث سنوات ــ فى ضوء جديد !٠٠ لقد باح لها بحبه فجأة ، على أن تتخذ فيـه قرارا عاجلا ، فاما القبول واما النبذ ٠ لذلك فقد لاح لهـا ــ عندما قررت استبعاده ــ وكأنه لم يعش وقتا كافيا لأن يصبح جزءا من حياتها ٠٠ فقد استعرضت الأمر ، وتثبتت من كل ما كان يعنيه ، ثم أبعدته عنها ٠٠ أما الآن ، فقد فهمت تماما كيف كان الأمر ــ بالنسبة لجارث ــ نقيض ذلك ٠ اذ انه تحقق تماما ــ أثناء الأسبوع الذى سـبق اعلانه حبه لها ــ معنى مودتهما المطردة النمو ٠ وأخذ يمعن فى مزجها بحياته ، كلما ازداد يقينا ٠٠ فقد صورها له خياله الخصيب حبيبة له ، منذ البداية ٠٠ فأحبها وأرادهـا له ، فى حين ان علاقتهما لم تتجاوز ــ قبل ذلك ــ مجرد المعرفة ، والصداقة ، والزمالة الروحية ٠

لذلك فانها تأثرت كل التأثر ، اذ وجدت نفسها تعتلى عرشـا قدسيا فى قلبه وذاكرته ، ولاح لها ان هذا يبشر ــ فى ثقة عذبة ــ بأنه لن يكون من العسير أن تعود لتستقر على هذا العرش ، بمجرد أن تزال كل الحواجز التى قامت بينهما ٠

* * *

◆ وبعد تناول العشاء ، جلس « جارث » أمام البيانو ، وظل يملأ القاعة بالألحان ، وقتا طويلا . ولقد انسابت أنغام أنشودة « المسبحة » - مرة واثنتين - خلال عزفه ، فكانت جين تنصت لها فى شغف وشوق لسماعها ، متوقعة أن يستمر . ولكنه - فى كل مرة - كان يتحول الى قطعة أخرى .. حتى لاح اللحن أشبه بطيف يلاحق الالحان الاخرى ، دون أن يكون له وجود واقعى !.. حتى اذا بارح « جارث » البيانو ، واهتدى بالشريط الأصفر الى مقعده ، قالت له الممرضة روزمارى بكل لطف : « ياسيد دالمين .. هل تستطيع أن تستغنى عنى بضعة أيام فى نهاية هذا الأسبوع ؟ » . فاجابها جارث : « آه ، ولماذا ؟ .. الى أين تذهبين ؟ وكم تتغيبين ؟.. آه ، أعرف انه كان خليقا بى أن أقول لك : « طبعا ، بكل سرور ! » ، بعد كل ما أسديت لى من صنيع ، ولكنى - فى الواقع - لا أقوى على ذلك ، فلست تدرين كيف كانت حياتى بدونك ، حين تغيبت فى عطلة الاسبوع الماضية .. لقد لاح لى كأنك غبت أشهرا ، رغم وجود براند هنا .. انه ذنبك ، اذ جعلتنى لا أستغنى عن وجودك ! »

وابتسمت الممرضة « روزمارى » وقالت : « أؤكد لك ان غيابى لن يطول، واذا رغبت فى عودتى فسأعود ، ولكن ياسيد دالمين .. لقد انتويت على أن أحرر الليلة ذلك الخطاب الذى أخبرتك به ، وسأضعه غدا فى صندوق البريد . ولابد من أن أتبعه فورا ، اذا استطعت ، لأكون بجانب فتاى عند استلامه الخطاب، أو بعد استلامه بلحظات..وأحسب، بل أرجو أن يستدعينى فورا .. اليوم الاثنين ، فهل يمكننى أن أسافر يوم الخميس ؟ » . فبدت على وجه « جارث » المسكين أمارات الهلع ، وتساءل : « أمن عادة الممرضات أن يتركن مرضاهن ، ويهرعن الى فتيانهن ليستوثقن من وقع خطاباتهن عليهم ؟ » . وكان الاستفسار يجمع بين الاحتجاج والتهكم ، فأجابته الممرضة روزمارى بأدب واضح : « ليس هذا من عادتنا ياسيدى ، ولكن هذه حالة استثنائية ! » .

- سأبعث ببرقية الى براند !

- وسيوفد اليك ممرضة أخرى أكثر كفاءة وتمسكا بعملها منى !

- أواه ، يالك من صغيرة شريرة !.. لو كانت الآنسة شامبيون هنا ، لهزتك هزا . فأنت تعلمين جيدا بأن أحدا لا يستطيع أن يملأ مكانك !

- ظرف منك ياسيدى ان تقول لى ذلك ، ولكن .. هل كانت الآنسة

شامبيون تدمن هز الناس ؟
ـ لا تنادينى بيا سيدى .. أجل ، كانت كلما اصطدمت بأشخاص مزعجين، قالت انها تود أن تهزهم هزا ، فلا يتمالك المرء أن يتخيل كيف تصطك أسنانهم من ذلك . وهناك سيدة صغيرة ـ من معارفنا ـ اعتدنا أن ندعوها السيدة : « اعمل ولا تعمل » . وهى ليست من ثلتنا ، ولكنها كثيرا ما كانت تقحم نفسها علينا ، وأحيانا كانت تدعى لتناول الغداء ، لمجرد الضحك والتسلية . فاذا سألتها عما اذا كانت تحب شيئا معينا ، أجابت دائما : « اننى أحبه ولا أحبه » .. واذا سألتها عما اذا كانت ستذهب الى عمل ما ، كان جوابها : « حسنا ، سأذهب أو لا أذهب ! » . واذا أرسلت اليها فى أمر ، وسألتها ردا حاسما صريحا ، واتاك الجواب : « نعم ولا » .. ومن ثم فقد كانت الآنسة شامبيون تقول دائما انها تود أن ترفعها من ياقة معطفها الفرائى ، وتهزها وهى تسألها بين كل هزة وأخرى : « هل أكف عن هزك ؟ » ، الى أن تنتزع منها ردا حاسما .. ولو لمرة واحدة !

ـ وهل كانت الآنسة شامبيون قادرة على تنفيذ هذا التهديد ؟.. أكانت ضخمة البنيان ؟

فقال جارث : « أجل ، كانت قادرة ، ولكنها ما كانت لتفعل . اذ انها على جانب عظيم من الرقة ، حتى مع التوافه الذين كانت تضحك منهم .. كلا انها ليست ضخمة . ان هذه الكلمة لا تتفق مع وصفها مطلقا . وانما هى أوتيت وفرة فى الحجم مع تناسق بديع بين الأعضاء . هل تعرفين تمثال « فينوس ميلو » ؟.. أجل ، فى « اللوفر » . يسرنى انك ذهبت الى باريس .. حسنا ، تصورى « فينوس ميلو » فى معطف من أحدث طراز وثوب مماثل .. هكذا كانت الآنسة شامبيون ! » . وضحكت الممرضة «روزمارى» ويبدو انها لم تستسغ « فينوس ميلو » ، أو الآنسة شامبيون ، أو الجمع بينهما ! .. بينما أردف جارث قائلا : « لقد وصف ديكى براند الصغير السيدة « افعل ولا تفعل » خير وصف . فقد زارت دار الطبيب بشارع (ويمبول) ، فى اليوم الذى خصصته الليدى براند لاستقبال الضيوف . وكان « ديكى » الصغير يحدثنى ، وهو فى سترته المصنوعة من المخمل الأسود وصدرية بيضاء ـ فكان بذلك صورة مصغرة لوالده سير دريك ـ فما أن لمح عن بعد السيدة « افعل ولا تفعل » ، وقد جلست فى مقعد كبير ، حتى أبدى ملاحظته البارعة بقوله : « هذه السيدة لا تعلم شيئا البتة ، وانما هى دائما تظن .. فقد سألتها مرة عما اذا كان لابنتها الصغيرة أن تحضر حفلتى ، فقالت : « ربما » .. ولو أنها سألتنى عما اذا كنت أحضر حفلتها ، لأجبتها : « شكرا سأذهب ! » . ما أسخف ان « يظن » من أجل أمور

هامة كحفلات الأطفال أو غيرها ، لأن الحفلات تقام سواء « ظنوا » أو « لم يظنوا » ! .. وليس لرأيهم فى الأمور الجـارية العادية ـ مثل الطقس ـ قيمة ، لأن أحوال الطقس تحدث سواء أبدوا الرأى أو لم يبدوه . ولقـد سألت أمى تلك السيدة مرة ، عما اذا كانت قد صادفت مطرا عند حضورها ، فأجابتها : « لست أظن ! » . ولا أعلم لم تكثر أمى من الاستعلام عن المطر ، فقد سمعتها ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ تسأل سـبع سيدات على التوالى عن هطول المطر . أما أبى وأنا فلا نفعل ـ اذا أردنا أن نعرف اذا كان الجـو ممطرا أو لا ـ أكثر من أن نخطو الى النافذة وننظر الى الخارج ، ثم نعـود ونستأنف الحديث فى أمور أكثر أهمية .. أما أمى ، فانها تسألهم عمـا اذا كان المطر يهطل ، أو اذا كانوا يعتقدون ان المطر كان يهطل ، أو سيهطل بعد ذلك .. فاذا أبدى واحد لها رأيا ، سارعت الى توجيه السؤال ذاته الى الباقين . ولقد سألت مرة تلك السيدة « افعل ولا تفعل » عمـا اذا كانت تعرف والدى الشابة التى تزوجهـا « قابيل » ، فأجابتنى : « أعرف ولا أعرف » .. فقلت لهـا : « اذا كنت تعرفين فأرجوك أن تخبرينى ، واذا لم تكونى تعرفين ، فالأفضل أن ترافقينى لنلقى السؤال على الأسقف ، وهـو الرجل ذو الساقين النحيلتين ، الذى يحمل صليبا ذهبيا ويتحدث الى أمى . غير أن السيدة تملصت منى بحجة أن لديها أمرا هاما . فودعتهـا ، ووجهت سؤالى الى الأسقف » .. وانك لترين ان « ديكى » الصغير قد رسم صورة دقيقة لهذه السيدة ! »

فضحكت الممرضة روزمارى ، وقالت : « ما أدق ما تقلد ديكى ، حتى لأكاد أسمع صوته الرصين وأراه وهو يشد صديريه الصغير الى أسـفل ! » . فسألها جارث : « ماذا ؟! أتعرفين الغلام ؟ » . وكان جوابها : « أجل ، فقد أقمت معهم فترة . ان الحديث مع « ديكى » نوع من التعلم ، فى حين أن الطفل « بلوسوم » مرح ولعوب . ها هو ذا سمسون قد أقبـل ! ما أسرع ما انقضت السهرة ! .. أفيمكننى السفر يوم الخميس ؟ » . فأجابها جارث: « لا حيلة لى، فلست أملك أن أرد لك طلبا ..ولكن ، هبى انك لاتعودين ؟» . فقالت : « ابرق ـ اذ ذاك ـ للدكتور براند » .

وهتف جارث بلهجة العتب : « أعتقد انك ترغبين فى أن تتركينى ! » . فضحكت الممرضـة « روزمارى » ، وأجابت وهى تسرع خارجـة لتتفادى مصافحة يديه المبسوطتين : « أرغب ولا أرغب ! » .

وعندما أغلقت جين حقيبة البريد فى ذلك المساء ، وسلمتها الى «سمسون» ، ألقت فيها بخطابين منها ، الى :

جورجينا ، دوقة ميلدرم ، بميدان (بورتلانه) ـ لندن

و السير دريك براند - شارع (ويمبول) - لندن
وكتبت على كليهما : « عاجل - وفى حالة غياب المرسل اليه ، يلحق به فى مقره »

الفصل الثانى والثلاثون

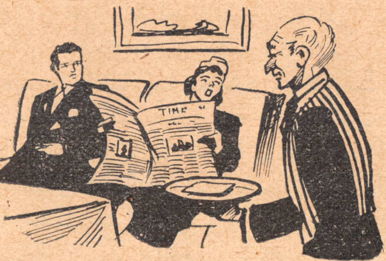
• **مر** يوم الثلاثاء ساكنا دون أية أحداث بارزة ، ولم يدر « جارث » أن الممرضة كانت قد قضت معظم الليل ساهرة ، تكتب .. فاذا شاءت أن تستريح ، قضت لحظات طويلة فى تأمل لوحتيه اللتين وجدتا مكانا أمينا مؤقتا - قبل اعادتهما الى المرسم - فى خزانة كبيرة فى حجرتها ، كانت تحرص على اغلاقها والاحتفاظ بمفتاحها . **واذا كانت الممرضة «روزمارى جراى » قد لاحظت - والالم يمزق قلبها - ما اعترى وجه « جارث » من شحوب وانهاك ، دلا على ما عاناه فى ليلته - هو الآخر - من أرق شديد واضطراب نفسى ، فانها لم تبد له ما ينم عن ذلك .. وهكذا مر يوم الثلاثاء على وتيرة هادئة ..**

وفى الصباح ، تسلمت الممرضة جراى برقيتين .. تلقت الاولى وهى تقرأ صحيفة « التايمز » لجارث بصوت مرتفع ، اذ أحضرها اليها سمسون قائلا : « برقية لك يا آنسة » .

وكان من بواعث زهو سمسون - بعد ذلك - انه انساق منذ بداية الامر ، لما كان يسميه « غريزة لا تخطىء » ، فتجاهل لقب « الممرضة » ، ولم يكن يدعو « جين » الا باللقب المصطلح عليه « الآنسة » . وقد أوشك أن يقنع نفسه بأنه اكتشف تقريبا انها « نبيلة » ، ولكن « مارجرى جراى » أبت فى اصرار أن تصدقه . فانها - من ناحيتها - قد ساورتها الظنون ، بيد انها احتفظت بها فى دخيلة نفسها ، فى حين أن تخمينات سمسون كلها كانت مثار نقاش مستمر فى حجرتها ، ولم يحدث ان ورد يوما ذكر « النبيلة » على لسان سمسون ! .. لهذا فقد عنفته مارجرى لادعائه شيئا لم يحدث . أما الخادم

« ماجى » ، فقد كانت دائما على ثقة من ان سمسون يضمر أكثر مما يظهر . ولكن مارجرى كانت تصدها بقولها : « تقصدين أنه يقول أكثر مما يعرف ! » . فتجيبها ماجى محتجة : « لا ، اننى أعرف ما أقول ، وقد قلت ما أعنيه » . فترد مارجرى فى اصرار على رأيها : « ربما قلت ما تعنين ، ولكنك لم تعنى ما تعلمين .. واذا سمعت كلمة أخرى عن هذا الموضوع ، فسأتلو صلاة اختتام المائدة ، وارفع الطعام ! » . وهكذا وضعت نهاية للنقاش بما كان لها من سلطان ، الامر الذى وصفه سمسون وماجى – فيما بعد – بأنه « وضيع » ، لانهما كانا لا يزالان راغبين فى مزيد من الطعام !

ولكن هذا لم يحدث الا بعد وقت طويل من يوم الثلاثاء الهادىء ، الذى دخل فيه سمسون الى حجرة المكتبة وبيده



صحيفة ، فقال لجين وهى مستغرقة فى قراءة « التايمز » : « برقية لك يا آنسة » . فتناولت الممرضة روزمارى البرقية ، واستأذنت « جارث » فى الانقطاع عن تلاوة الصحيفة ، ثم فضت البرقيـة .. وكانت من الدوقة ، وقد جاء فيهـا :

« آسفة لهذا الارتباك كما تعلمين جيدا . ولكننى سأبرح (ايستون) الليلة وأنتظر تعليمات أخرى فى ابردين » .

وابتسمت الممرضة « روزمارى » ، ودست البرقية فى

جيبها ، ثم قالت لسمسون : « لا رد هناك . شكراً لك يا سمسون » . فسألها جارث : « أرجو أن لا تكون أخبارا سيئة » . فأجابته الممرضة روزماري : « كلا ، وانما تحتم سفرى يوم الخميس .. فالبرقية من عمتى العجوز ، تبلغنى بأنها ذاهبة الى دار فتاى .. ويقتضى الامر وجودى هناك قبل وصولها ، والا حدثت مضاعفات واشكالات لا نهاية لها ! » . فعلق « جارث » على الامر ، قائلا فى كمد ظاهر : « لا أعتقد أنه سيسمح لك بالعودة بأية حال ، متى رآك هناك ! » . فأجابته وعلى فمها ابتسامة عذبة : « أتعتقد ذلك ؟ » .. ثم تناولت الصحيفة ، وعادت الى تلاوة ما بها .

ووصلت بعد الغذاء برقية أخرى ! .. كان جارث جالسا على البيانو يعزف لحن بيتهوفن « مارش جنائزى فى وفاة بطل » ، وقد راحت الحجرة تهتز بالنغمات العالية ، واذا سمسون يظهر بوجهه المليح والشعر النامى على فوديه الى منتصف خديه . ودخل دون جلبة ولا صوت ، فوضعت الممرضة اصبعها على شفتيها محذرة ، وتقدمت اليه بخطواتها الصامتة الثابتة ، فتسلمت البرقية ، ثم عادت الى مقعدها ، وانتظرت حتى انتهى تشييع جنازة البطل على البيانو ، وهمد صوت دقات الطبول المدوية ، ثم فضت غلاف البرقية .. وفى اللحظة ذاتها ، حدث ما لم يكن فى الحسبان . فان جارث بدأ يعزف « المسبحة » .. وأخذت حبات اللآلىء تتساقط من يديه ، بينما كانت « الممرضة » روزمارى تتلو برقيتها وتتبين انها من الدكتور دريك . وكان فحواها : **« من السهل الحصول على ترخيص خاص . سآتى وفلاور متى رغبت . ابرقى ثانية »**

وعند ذلك كانت معزوفة « المسبحة » قد قاربت ختامها المحزن ، فسألها جارث : « ماذا اعزف بعد ذلك ؟ »

— أعزف ترنيمة .. « تعالى أيتها الروح الخالقة » !

ثم أحنت رأسها وهى تصلى .

الفصل الثالث والثلاثون

• **بزغ** فجر يوم الاربعاء أول مايو ـ فكان يوما رائعا .. وهبط جارث فى الحديقة قبل تناوله الفطور . وسمعته جين ـ أثناء مروره تحت نافذتها ـ يغنى :

« ليس لى أن أتغنى أنشودة بالبهاء المهيب ..
« الذى تشعه روح حبيبتى السامية على وجهها ! ؟

فأطلت من نافذتها ، ورأته يسير تحت نافذتها ـ فى أحدث حلة بيضاء ـ بخطوات خفيفة مرنة ، وفى كل حركة من حركاته رشاقة لدنة ، وليس ما ينم عن عماه سوى عصا من خيزران (ملقا) كان يحملها فى يده ، متلمسا بها الحاجز الاخضر أو جدار القصر .. ولم يكن بوسعها أن ترى سوى قمة رأسه الاسود الشعر ، تماما كما حدث حين أطلت عليه وهو فى شرفة قصر (شينستون) ، منذ ثلاث سنوات . وتاقت الى أن تناديه من النافذة : « حبيبى .. يا حبيبى ! عم صباحا .. بارك الله يومك ! » .. **آه ، ترى ما الذى يتمخض عنه هذا اليوم .. اليوم الذى يتلقى فيه اعترافها الكامل . وايضاحاتها ، وتوسلاتها كى يصفح ؟** ـ لقد كان فتى يافعا فى كثير من عاداته .. كان مرهف القلب ، موفور الحب ، ذا روح فنية ، شاعرية ، لا تقبل الضيم .. كان صغيرا رغم حبه العظيم . أما فيما يتعلق برجولته ، وحبه ، وحقه المطلق فى الاختيـار وفى البت ، وفى تمسكه بالرأى الذى يكونه بعد دراسة عميقة ، مطرحا عنه كل رأى للغير متى بدا له أقل قيمة .. كان فى كل هذا صلبا لا ينثنى . وكأنما كان الالم نفسه بردا وسلاما ، بل كان الالم يحوله من عاشق مصهور القلب ، الى قضيب من الصلب .

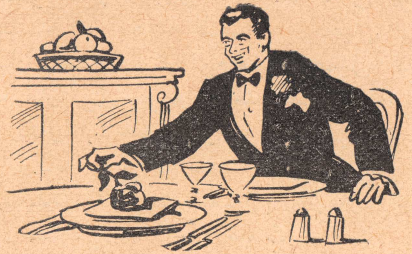
وعندما جثت « جين » أمام نافذتها ـ فى هذا الصباح ـ لم يكن ليدور بخلدها أو تدرك ما الذى سيتكشف عنه المساء .. هل ستكون فى طريقها الى (أبردين) ، لتستقل قطار الليل

الى الجنوب أو تستقر نهائيا فى مرفأ حب « جارث » ؟
وكان الصوت الحبيب لا يزال يغنى فى الحديقة :
« انما لى أن أسير فى ركابها ..
« وانفذ مشيئتها فى الفرح والالم ..
« واحرق على مذبحها بخور الحب الشذى ..
« واعبدها عن بعد فى خشوع » .

فهمست جين : « أواه أيها المحبوب ، ليس عن بعد اذا كنت تريدها .. وما عليك الا أن تناديها فتكون لك ، على اقرب ما يمكن للحب أن يقرب بين حبيبين . ولن يعود بينك وبينى أى بعد ! » . ثم — وبالطريقة العجيبة التى تقفز فيها الى العقل كلمات ذات قيمة قدسية ، فى غير مناسباتها الاصلية ، لتوحى بمعان تختلف تماما عن معانيها — هبطت الكلمات التالية على ذهن جين فنطقت بها : **« لانه هو سلامنا ، الذى جمع الاثنين فى واحد ، وهدم الجدار الفاصل بيننا .. عسى أن يصلح بيننا ، بفضل الصليب »** . واردفت هامسة : « يا يسوع الحبيب ! اذا كان صليبك قد فعل هذا لليهودى والوثنى ، أفلا يمكن للصليب الثقيل الذى حمله فتاى العزيز فى شجاعة ، أن يفعل ذلك له ولى ؟ .. وبذلك يتسنى لنا — أخيرا — أن « نقبل الصليب » معا ! »

ودوى ناقوس الفطور فى الدار ، فقد كان سمسون يحب نواقيس اعلان أوقات الوجبات ، ويعتبرها « تقليدا تاريخيا » ، فكان يصر على التمسك بها ! .. وهبطت المرضة « روزمارى » لتناول الفطـور . ووافاهـا جارث من الشرفة ، وهو يغمغم لحن : « ألف جمال أعرفها جيد المعرفة » . وكان فى أقصى حالات الغبطة والمزاج المنطلق ، وقد التقط من بين الزهـور برعوم وردة ذهبية اللون ، وغرسه فى عروة سترته ، بينما حمل فى يده وردة صـــفراء . وما ان دخل حتى قال لها : « سعدت صباحا يا آنسة روزمارى .. يا له من يوم جميل

من أيام الربيع .. لقد خرجت مع سمســـون حين غادرت الطيور أوكارها .. أليس كذلك يا سمسون ؟ .. مسكين سمسون ، فلقد أزعجه رنين جرسى الكهربائى فى حجرته ، فى الساعة الخامسة صباحا ، فاننى لم أحتمل البقاء طويلا فى الفراش .. لقد استيقظت وفى نفسى شعور بأن شيئا يوشك أن يحدث . وقد اعتادت « مارجرى » أن تقول ، عندما كنت أستيقظ بهذا الشعور فى صغرى : « انهض يا سيد جارث ، فكلما عجلت بالنهوض ، عجل الامر بالحدوث ! » . سلها يا سمسون تنبئك ! .. هل تنكرين يا آنسة جراى ، ذلك القول المشهور : « اذا استيقظت مبكرة ، فايقظينى ، ايقظينى يا أمى العزيزة ! » .. لقد اعتدت ان اكره الشابة صاحبة هذا القول ، اذ يخيل لى انها فى انفعالها كانت تستيقظ قبل أمها المسكينة التى كانت ولا بد مضناة مرهقة ! »



وانتظر سمسون حتى قاده الى مقعده بجوار المائدة ، ثم رفع الاغطية عن الصحاف ، وخرج . وما أن أغلق باب الحجرة خلفه ، حتى انحنى جارث فى مقعده ، وبدقة وضع الوردة المتفتحة على طبق الممرضة روزمارى وهو يقول لها : « الورد لروزمارى .. ثبتيها على صدرك اذا كنت واثقة من أن فتاك لا يعترض على ذلك . لقد شغل بالى بالتفكير فيه وفى العمة ، وتمنيت لو أنك دعوتهما للحضور الى هنا ، بدلا من السفر

اليهما يوم الخميس ، فكنا نقضي أبهج وقت حافل بالمرح الصاخب .. كنت ألعب مع العمة ، بينما تلهين أنت مع الشاب خارج الدار . ومن السهل أن أتحايل على حجز العمة من التسلل خلفكما فى الاركان والمخابىء ، بما أوتيت من موهبة السمع المرهف الذى يفوق سرعة نظرات العمات .. فاذا سمعت منك سعلة لطيفة ، سارعت الى التشبث بالعمة ، مصرا على أن تقودنى الى ركن آخر بعيدا عنكما . وقد أرافقها فى نزهة بالسيارة بينما تذهبين مع الشاب فى نزهة بالقارب . وبعد أن يقضيا معنا مدة ، نتم فيها تسوية كل الامور على أحسن وجه ، نحزم أمتعتهما ونودعهما ، ثم نعود معا الى هنا .. أواه يا آنسة جراى ، هلا كتبت لهما كى يحضرا بدلا من سفرك يوم الخميس ؟ »

فانحنت الممرضة روزمارى ، وقالت له فى لهجة مشبعة باللوم وقد لمست يده بحافة طبقها : « يخيل الى - يا سيد دالمين - ان هذا الصباح ، وهو يوم مايو الجميل ، قد أثر فى عقلك .. وسأطلب مارجرى فربما كانت تعرف الاعراض منذ القدم ! » . فقال لها جارث وقد انحنى بقامته الى الامام ، وأخذ يحدثها وكأنه يبوح لها بسر : « ليس الامر كما تخالين ، فان شيئا سيحدث اليوم يا صغيرتى روزمارى ، فما من مرة هفا بى هذا الاحساس الدافق الا حدث شىء ما .. وكانت أول مرة منذ خمسة وعشرين عاما ، اذ كان لى حصان متأرجح فى البهو الكبير ، أقفز عليه كلما نزلت الى البهو . ولست أنسى أول مرة امتطيت فيها هذا الحصان المتأرجح .. كنت أشعر بابتهاج يشوبه خوف كلما مال الى الوراء ، وكنت أخالنى أغوص فى الهواء كلما مال الى الامام ، وكنت أشعر بخيلاء كلما تمكنت من أن أكف عن التشبث بمقبضه الجلدى .. ومرة كدت أفتك بابن عمى لانه خلع ذيله ، فرحت أسوطه بالذيل .. وما أسخف ما فعلت ، فقد أتلفت الذيل فضلا عن اننى قد

آلمت ابن عمى . وفى مرة أخرى .. آه ولكننى أشعر بأننى قد ضايقتك « بثرثرتى » . فأجابته الممرضة روزمارى بكل لباقة : « أبدا .. كل ما أرجوه هو أن تتناول افطارك ، فسوف يصل البريد بعد لحظات ! »

* * *

• وبدا وجه جارث متألقا ، شديد السمرة .. يا لهذا الغلام المرح العزيز ، وقد تاه بربطة عنقه البنية المشوبة بظلال ذهبية ، وبوردة صفراء ثبتها على صدره . وشعرت جين بما انتابها من شحوب ، وبما كان فى صوتها من توجس حين قالت : « فسوف يصل البريد بعد لحظات » . ولكن جارث صاح : « آه ، دعك من البريد ، ولنقض يوما مرحا ، نستريح فيه من فض الخطابات أو تلاوتها .. ان اليوم « يوم مايو » ، وستقومين أنت بدور « ملكة مايو » ، ونجعل من مارجرى الام العجوز ، بينما أمثل أنا دور « روبين » ، ذى القلب الكسير ، الذى مال برأسه على حافة الجسر ، تحت شجرة البندق .. أما سمسون فسيقوم بدور الصبى الكبير .. ونذهب جميعا لنقطف الزهور والبراعم ونصنع منها أكاليل زاهية بهجة ! »

فأجابته الممرضة روزمارى ، وهى تضحك بالرغم مما كانت تحس به : « يا سيد دالمين ، يجب أن تعود الى رزانتك والا لجأت الى مارجرى لاستشيرها فى الامر ، فما عهدتك قبل اليوم فى مثل هذا المزاج » . فأجابها جارث : « لانك لم ترينى قبل اليوم فى يوم كنت أرتقب أن يحدث فيه أمر هام » . وصمتت الممرضة روزمارى ، ولم تحاول التضييق عليه أكثر من ذلك .

وبعد انتهاء الافطار ، ذهب « جارث » الى البيانو ، فعزف

بعض الالحان الراقصة الخفيفة ، التى سرت عدواها فى الجو ، حتى ان سمسون لم يتمالك نفسه ، فأخذت قدماه تخطوان فى انتظام موسيقى ، وهو ينظف أدوات المنضدة . أما الممرضة روزمارى ، فقد كانت فوق مقعدها شاحبة الوجه قلقة البال ، وأمامها حزمة من الخطابات شغلتها عن تحريك قدميها .. وحمل « سمسون » غطاء المنضدة ، وسار الى الباب – على نغمات الموسيقى – ثم خرج ، واغلق الباب خلفه .. ولم تكن الممرضة روزمارى قد تلقت جوابا عما ذكرته على مائدة الافطار عن حزمة الخطابات وفضها وتلاوتها . وما لبث ان انساب فى أرجاء الحجرة صوت البيانو وهو يعزف قطعة « تألقى أيتها الذبابة المضيئة الداكنة » ، كرنين أجراس من الفضة . واذا بالباب يفتح وتظهر مارجرى العجوز فى فراغه ، وعليها مرولة حريرية سوداء ، وقبعة زرقاء . وتقدمت نحو البيانو ، فوضعت يدها على ذراع جارث وقالت : « يا سيدى جارثى – فى هذا اليوم الجميل – أول مايو – هل لك يا سيد جارثى أن تصطحب مارجرى العجوز الى جولة فى الغابات ؟ » . فتوقف « جارث » عن عزف البيانو ، وقال لها : « طبعا ، سأفعل ذلك يا مارجرى .. وبهذه المناسبة يا مارجرى ، أخبرك أن شيئا ما سيحدث اليوم ! » . فقالت مارجرى العجوز بحنان ، ووجهها يشرق – وهى تنظر الى الوجه الاعمى الحبيب – بتعبير ملأ عيون « جين » بالدموع : « أعلم ذلك يا صغيرى ، فقد استيقظت اليوم وأنا أحس بذات الشعور يا سيدى جارثى .. والآن هيا بنا الى الغابات لنصغى الى صوت الارض والاشجار والزهور .. فانها جميعا ستنبئنا

عما اذا كان ما سيحدث اليوم أمر مفرح أو محزن .. هيا يا ولدى الحبيب ! »

ونهض جارث وكأنه فى حلم .. وبدا – رغم عماه – غض الشباب ، مفرط الجمال ، حتى أن قلب « جين » كاد يجمد ساكنا ، وهى تتأمله .. وعند النافذة ، توقف عن السير وهو يقول بلهجة مبهمة : « أين هى كاتمة السر تلك ؟ .. لقد كانت تلح على فى أن أبقى سجينا بين الجدران! » . فقالت له مارجرى العجوز ، وهى تومىء فى اعتذار نحو جين : « أعلم أنها فعلت ذلك يا بنى ، ولكنك تعلم بأنها لا تعرف شيئا عن اليوم الذى تستيقظ فيه شاعرا بأن شيئا ما يوشك أن يحدث ! »

وقالت « جين » لنفسها ، وهى تنفذ الى الشرفة : « أحقا هى لا تعرف ؟ » .. ثم اردفت : « ما دام حبيبى جارث قد فقد رأســه العزيز ، واسلم قياده الى مربيته لينطلقا الى الخارج ، فان « الشىء الذى سيحدث » لن يحدث بعد .. » . **ثم جلست جين الى البيانو – بعد خروج جارث ومارجرى – ومرت بأصابعها عليه ، موقعة لحن « المسبحة » . ثم ذهبت الى الشرفة ، وظللت عينيها بيدها ، حتى استوثقت من ان القوام المشوق الملتف فى ثياب بيضاء ، قد أوشك أن يبلغ قمة التل ، متأبطا ذراع المرأة القصيرة السمراء .. واذ ذاك ، عادت الى البيانو ، وبدأت تعزف « المسبحة » .**

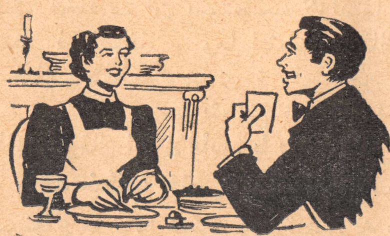
وخرجت – بعد ذلك – فى نزهة عنــد برك الماء ، ريثما استردت هدوء أعصابها بالسير بخطوات واسعة ، واستنشاق النسيم العليل بعمق .. وأعادت تلاوة البرقية – التى كانت فى جيبها – مرات ، ثم أسرعت الخطى الى جوف الغابة وهى تردد العبارة : « يسهل الحصول على ترخيص خاص » .. آه ، قد يكون الترخيص أمرا ميسورا ، ولكن .. ماذا عن الغفران؟

.. يجب الظفر به أولا . فلو أن الامر اقتصر على هذا الفتى العزيز ، فى ثيابه البيضاء ووروده الصفراء ، وهذا الجنون الذى بثه فى عروقه أول أيام مايو ، لجاز الحصول على ترخيص للزواج فورا ، ولامكن تحقيق كل رغباته فورا .. ولكن هذه الناحية من نواحى شخصية « جارث » ناحية عابرة . **ولكنها كانت مضطرة الى أن تعالج الامر مع الرجل صاحب الوجه الابيض الشاحب ، الذى قال فى عزم وتصميم : « سأحمل صليبى » ، وسار مغادرا كنيسة القرية ، وابتعد عنها طوال تلك السنوات .. ذلك الشخص الذى كان يحبها حبا ملأ قلبه ونفسه ، ولكنه ـ مع هذا الحب الجارف ـ تركها دون كلمة أو اشارة ، ثلاث سنوات طويلة ..** الى هذا الرجل يرفع الاعتراف ، وستكون كلمته هى القرار الحاسم .. وكيفما يكن الامر ، فانها لم تدهش عندما رأته جالسا الى المائدة ـ عند عودتهما لتناول الغداء ـ وقد تأخرت قليلا ! .

* * *

• **واذ** شعر بها تلج القاعة ، قال فى لهجة رصينة : « يجب أن أعتذر لك ـ يا آنسة جراى ـ عن مسلكى فى هذا الصباح ، فقد كنت « مسوقا وراء المجهول » .. ومارجرى تفهم تماما هذه النزعة ، وقد استمعنا ـ هى وأنا ـ الى أمنا الارض ، ولمسنا بأيدينا طراوتها الحنون ، وكاشفتنا بمكنون سرها .. ثم اضطجعت تحت أشجار الشربين ، واستسلمت الى نوم عميق ، استيقظت منه هادىء النفس ، موفور الصحة ، مستعدا لاستقبال ما يأتى به اليوم من احداث ، فلسوف يأتى اليوم بأمر ما ، وليس هذا بوهم ، فاليوم يوم أحداث جسام .. كل هذا تعرفه مارجرى هى الاخرى ! » . فأجابت

المرضة روزمارى : **((ربما .. وقد يكون فى بريد اليوم أنباء هامة))** . فقال جارث : ((آه ، فاتنى ذلك .. اننا لم نفض بريد اليوم ، فلنقم بذلك بعد الغداء مباشرة .. هل الخطابات كثيرة ؟)) .. فأجابته المرضة روزمارى : ((انها حزمة كبيرة !))



وبعد نصف ساعة ، جلس ((جارث)) فى مقعده فى هدوء وترقب ، موليا وجهه شطر كاتمة أسراره . وتناول خطاباته ، فتحسسها ، واذا بينها **خطاب مختوم بخاتم يحمل شارة القبعة والريشة وقناع حديدى .. ولمحت المرضة روزمارى وجهه يشحب لدى تحسسه الخاتم . ولم يبد أية ملاحظة .. ولكنه وضع الخطاب فى آخر الرسائل ، لكى يكون الاخير فى القراءة ..** فلما تم الاطلاع على الخطابات الاخرى ، أمسكت المرضة روزمارى بالخطاب المختوم ، فساد الحجرة سكون عميق .. وكانا وحيدين ، وطنين النحل ينبعث من الحديقة ، وعبير الزهور يتسلل من النافذة .. ولم يزعج وحدتهما أحد . ثم تناولت المرضة روزمارى الخطاب ، وقالت : ((هذا خطاب مختوم بالشمع الاحمر يا سيد دالمين ، وعلى الخاتم شعار قبعة وقناع و ..)) . فقاطعها جارث : ((أعرف كل هذا ،

فلا داعى لايضاح .. ألا تفضلت بفضه ؟ »

ففضت المرضة روزمارى الخطاب ، وقالت : « انه خطاب طويل جدا يا سيد دالمين » . فهتف : « حقا ؟! .. هل لك يا آنسة جراى أن تقرئيه على ! » .. وأعقبت ذلك لحظة من الصمت الممض ، ثم رفعت المرضة روزمارى الخطاب . غير أن صوتها أبى ــ فجأة ــ ان يستجيب لارادتها ، بينما كان « جارث » ينتظر فى اصغاء . وما لبثت أن قالت : « يلوح يا سيدى انه خطاب شخصى سرى ، وأرى من العسير على أن أقرأه عليك ! » . وادرك جارث من صوتها مدى حرجها ، فاتجه اليها بلطف ، وقال : **« لا بأس يا بنيتى العزيزة ، فليس هذا من شأنك . انه خطاب خاص بى ، ولكن وسيلتى لمعرفة فحواه ، هى استماع ما تراه عيناك وما تنطق به شفتاك . ثم أن السيدة صاحبة الشعار ذى القبعة والريشـــة ، لا تملك سرا خطيرا تبلغنى اياه ! »**

وقالت المرضة روزمارى ما يأتى فى صوت متهدج : « آه ، بل لديها ! » . فوجم جارث برهـــة ، ثم قال لها : « اذن ، فاقلبى الصـــفحة واقرئى التوقيع » . فكان جوابها : « ان الخطاب من صفحات عديدة » . وهنا قال فى حدة : « اقلبى كل الصفحات ، ولا تدعينى انتظر طويلا .. ما هو توقيع الخطاب؟ » . فأجابته المرضة روزمارى فى همس: **« زوجتك »!**

وشمل المكان صمت رهيب ، وكأنما أحالت الكلمة ــ التى همست بها المرضة ــ جارث الاعمى الى حجر صلد . وما لبث أن مد يده قائلا : « هـــل لك أن تعطينى هـــذا الخطاب يا آنسة جراى ؟ شكرا لك ! .. أحب أن أختلى بنفسى نحو ربع ساعة . وأكون ممتنا لو تفضلت بالانتظار فى قاعة الطعام ، على أن لا يزعجنى أحد .. وبعد انتهاء هذه البرهة أرجو أن

تعودى ! »

وكان يتكلم فى هدوء واتزان وجف لهما قلب جين، ولو انه أبدى شيئا من الانفعال ، لاطمأن بالها .. فهذا هو الرجل الذى أحنى رأسه ذا الشعر الاسود اللامع ، أمام صورة الصليب ـ على نافذة كنيسة القرية ـ قائلا : « اننى أتقبل الصليب » .. وهو الرجل الذى لم تتعثر خطواته حينما سار من عتبة الهيكل ، وتركها .. هذا هو الرجل الذى أوتى المقدرة ـ من ذلك الحين ـ على أن يعتبر تلك الفترة من علاقتهما منتهية ، فلا كلمة استعطاف ، ولا أثر للذكرى ، ولا اشارة لوم . هذا هو الرجل الذى وقعت خطابها له بكلمة : « زوجتك »

ولم تكن جين قد شعرت بخوف طوال حياتها ، ولكنها عرفته اذ ذاك . وعندما نهضت فى سكون وتركته ، اختلست نظرة الى وجهه ، فاذا به يجلس جامدا والخطاب منشور بين يديه . ولم يكن قد ولاها وجهه حين تسلم منها الخطاب ، فلاح المنظر الجانبى لوجهه كما لو كان تمثالا جميلا منحوتا من العاج الابيض . فلم تكن ثمة لمحة من لون فى وجهه .. مجرد عاج شاحب ، يتخلله أبنوس تمثل فى حاجبيه وشعره الاسود الناعم ! .. وفى رفق ، غادرت الحجرة ، واغلقت الباب خلفها .

* * *

• **ومرت** بها أطول خمس عشرة دقيقة فى حياتها .. كانت تعلم رهبة المعركة الهائلة التى تحتدم داخل تلك الحجرة الساكنة ، فقد كان جارث يسعى الى البت فى الامر ، دون أن يسمع أية حجة . **انه لم يسمع ـ فى اصراره الغريب، الرهيب ـ سوى كلمة واحدة من خطابها ، وهى عقدة الخطاب ..**

هى التى صيغ الخطاب كله بعناية ليفضى اليها . ولا بد أنها كشفت له – فورا – طابع الخطاب ، وهدف السيدة التى حررته !

وأخذت جين تذرع حجرة الطعام فى خطوات سريعة ، وفى هم وقنوط ، وهى تذكر الساعات التى قضتها فى التفكير وفى صوغ الجمل ، لتهيىء عقله – فى حذر – لما سيتكشف عنه التوقيع .

وفى غمرة اضطرابها الذهنى ، واتتها ذكرى حديث دار بين الممرضة روزمارى وبين جارث عن الصورتين . اذ تساءلت الاولى : « أهى زوجة ؟ » ، فأجابها جارث : « نعم » . فأدركت جين لتوها ما كان هذا الرد يكشفه ويتضمنه . **ذلك لان جارث كان قد استوثق من أنها له ، فى تلك اللحظات الرائعة التى قضياها فى شرفة قصر (شينستون) ، الى درجة أنه تطلع اليها ، وناداها : « يا زوجتى » ، لا بلهجة المستفسر ، وانما تقريرا لامر واقع قاطع .. وهو لا يزال يضعها فى هذا الموضع ، لا يحلها منه .. تماما كما لو أن قسا وكتابا وخاتما تضافروا على توحيد حياتهما بالزواج ! ..**

لقد كان اتحاد الروحين – فى رأيه – مقدما على ما عداه . فاذا تم هذا الاتحاد ، فكل ما يتبعه من اجراءات التوثيق ليست سوى مراسم تعزز أمرا تم فعلا . ولقد أدى خوفها ، وعدم اطمئنانها ، وتغرير أفكارها بها ، ان الاجراءات لم تعقب الاتحاد . فافترقت حياتاهما ، وذهبت كل منهما فى وجهة غير وجهة الاخرى . أما هو ، فقد اعتبر انه لا يعدو – فى نظرها – أن يكون مجرد فرد من معارفها . وكان خلال السنوات الثلاث يعتقد أن دورها فى ذلك القران الروحى – الذى عقداه فى تلك الليلة – لم يوجد الا فى خياله هو فقط ، فهو لا يقيدها

بشىء .. أما هو – جارث – فقد ثبت على عهده ، **لان الكلمات التى قالها فى تلك الليلة ، كانت من ناحيته حقيقة وصدقا ، ومن ثم فقد قالها .. ولانه قالها ، فقد أصبح يعتبر «جين» زوجته فى الحياة وما بعد الحياة .. وكان تفهم هذا المنطق – بالغريزة – هو الذى شجع جين على أن توقع الخطاب بتلك الكلمة ! .** ولكن ، كيف السبيل الى التوفيق بين ذلك التوقيع ، وبين الفكرة التى أوحى اليه بها تصرفها ، فلم تدع له أى أمل فى أى تحول ؟!

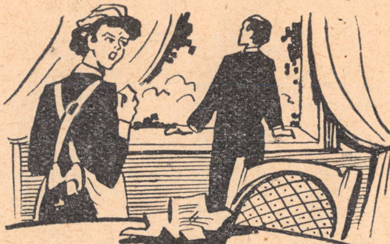
وتذكرت جين – اذ ذاك – بارتياح ، ذلك الالحاح الذى أبداه « الصدق » فلم تقو على مقاومته روح الفنان .. صدق الخطوط ، وصدق الالوان ، وصدق القيم والمقاييس .. وفى عالم الصوت ، صدق النغم ، والتوافق ، والترديد ، والغاية .. فلما وصفت الممرضة « روزمارى » صورة « الزوجة » بأنها نصر للفن ، أجابها جارث بقوله : « بل هى نصر للصدق والحقيقة ! » . وكان تعليق « جين » – فى نفسها – على النظرة التى استشفها فى وجهها ، هو : « أهذا حق ؟ .. أجل ، انه حق ! » . **فهل يعز عليه الآن أن يتبين صدق ذلك التوقيع . فاذا تبينه ، أفلا يفرح – فى وحدته – بأن تعود اليه زوجته ؟ .. ما لم يدفعه ما فى خطابها من اعترافات ، الى أن يقصيها عنه ، ولا يحسب لها حسابا ! !**

وفجأة تبادر الى ذهن جين أن هناك ميزة عظمى ، وهى أنه سيطلب ولا ريب سماع كل كلمة وردت فى خطابها ، فما كان علمه بختام الخطاب ليحول دون اطلاعه على فحواه . وعند ذلك تجلى لها أن يدأ علوية قد رتبت كل ذلك ، ثم قالت فى نفسها ، وهى تحصى الدقائق التى كانت تزحف فى بطء شديد : « لقد هدم الجدار الفاصل بيننا ! » ، فغشيتها طمأنينة

ناعمة ، واستكن السلام فى روحها .

ومر ربع الساعة .. واجتازت « جين » البهو بخطوات ثابتة صامتة ، ثم تمهلت قليلا خارج الباب ، ريثما استعادت حواسها ورباطة جأشها . وفتحت الباب ... وعادت الممرضة روزمارى الى المكتبة !

الفصل الرابع والثلاثون



◆ كان « جارث » واقفا أمام النافذة المفتوحة ـ حين عادت الممرضة روزمارى الى الحجرة ـ فتمهل قليلا قبل أن يعود الى مواجهتها .. وتفقدت الخطاب فى قلق ، فوجدته منشورا لها على المنضدة ، أمام مقعدها . وتبينت عليه آثار تغضن ضغط شديد ، وكأن يدا كورته وألقت به الى سلة المهملات، ثم أعيد نشره وسويت أوراقه بعناية ، ووضع حيث كان مجلسها .. وكانت تتجلى على وجه جارث ـ حين ارتد من النافذة الى مقعده ـ علامات صراع شديد ، وظهر كرجل يجاهد فى نضال ليرى ما أمامه ، رغم انه فاقد الابصار .. وقد اختفى الشحوب العاجى ، اذ احمر وجهه .. كما تشعث شعره الذى كان غزيرا ، يحيط بجبينه وأعلى صدغيه بعناية .. غير أن صوته كان متزنا حين التفت الى كاتمة سره قائلا : « أمامنا مهمة شاقة ، ياعزيزتى الآنسة جراى .. لقد تسلمت خطابا أرى من المحتم على أن أسمع فحواه ، وأنا مضطر الى أن أسألك أن تقرئيه علي .. اذ لا يمكنني بأى حال أن أعهد

الى شخص سواك بذلك · ولا يسعنى أن أنكر ان هذه المهمة ستكون قاسية وأليمة عليك ، اذ ستجدين نفسك وسيطة بين قلبين جريحين كسيرين · ولكى أيسر عليك احتمال المهمة يا فتاتى الصغيرة ، العزيزة ، أؤكد لك اننى لا أعرف فى العالم شخصا سواك أستطيع أن أسمع من شفتيه - باقل الم ممكن - ما سيتلى على ·· ولا توجد - بعد فقدانى بصرى - عينان غير عينيك أسمح لها بأن تلما بهذه السطور ، وأنا غير كاره ·· ولا يوجد عقل آخر غير عقلك ، أضع فيه كامل ثقتى - دون تردد - ليترفق فى الحكم على وعلى كاتبة الخطاب ، ثم ينسى فى اخلاص صادق ، كل ما لا يقبل كلانا أن يصل الى علم شخص ثالث ، مما جاء بهذا الخطاب ·

فأجابته الممرضة روزمارى : « شكرا لك ياسيد دالمين » ، واذ ذاك ، اضطجع « جارث » فى مقعده وقد حجب وجهه فى راحته ، وقال : « اذن ، فأرجو أن تشرعى » ·· وبدأت الممرضة روزمارى تقرأ فى وضوح وهدوء :

« عزيزى جارث : « أما وقد رفضت حضورى اليك ، لأدلى اليك - فيما بيننا ، على انفراد - بكل ما يجب أن يقال ، فانى أرانى مضطرة لأن أسطره لك ·· انها غلطتك يادال ، وها نحن نتحمل العقاب معا ، اذ كيف يمكننى أن أكتب لك بكل حرية ، وأنا أعرف انك اذ تنصت الى تلاوة هذا الخطاب ، ستتبين - عند كل كلمة أكتبها لك - اننى أقحم شخصا ثالثا على ما كان ينبغى أن يبقى سرا دفينا بينك وبينى وحدنا !·· ومع كل ، فلابد لى من أن أكتب لك بصراحة تامة ، وأن أجعلك تفهم كل الفهم ، لأن مستقبل حياتك وحياتى يتوقفان على ردك عن هذا الخطاب · سأكتب لك كما لو كنت ستأخذ الخطاب بين يديك وتقرأه بنفسك ولنفسك · ومن ثم ، فما لم يكن بوسعك أن تطمئن تماما الى كاتمة سرك ، وأن تأتمنها على أسرار قلبك وقلبى ، فاطلب منها أن تعيد الرسالة اليك قبل أن تتمكن من تلاوة الصفحة الأولى ، ودعنى أحضر بنفسى لأخبرك بكل شىء ·· »

وهنا قالت الممرضة روزمارى : « هذه نهاية الصفحة الاولى » · وظلت تنتظر ، فلم يحرك جارث يده ، بل قال : « انى أثق فى كاتمة سرى تمام الثقة ، ولا أريد حضورها هى ! » · فقلبت الممرضة روزمارى الورقة وبدأت تقرأ الورقة التالية :

« أحب أن تتذكر يا جارث ان كل كلمة أكتبها ، هى الحقيقة المجردة من

كل تنميق • ولو عدت بفكرك الى ما تذكره عنى ، فستسلم بأننى لست ــ بطبيعتى ــ كاذبة ، ولست منافقة مراوغة •• غير اننى كذبت عليك ــ يا جارث ــ مرة واحدة ، وهذا الاستثناء المشئوم يؤكد الالتزام التام للصدق ، وهو ما كان دائما رائدنا معا ، وما أضرع الى الله أن يبقى بيننا أبد الدهر • واعترافى الذى أسطره هنا ، خاص بتلك الأكذوبة الوحيدة •• ولا حاجة بى لأن أسألك أن تقدر ما فى اضطرارى الى أن أغصب رجلا رفض أن يتقبلنى صديقة زائرة ، على أن يسمع اعترافى ، من اذلال لكبريائى • ولابد انك تذكر اننى لست ذليلة بطبيعتى ، واننى على قدر كبير من الكبرياء الحق •• ولعلك تستطيع أن تتخذ من ضخامة الجهد الذى أبذله مقياسا لتعرف مدى حبى • فليساعدك الله فى هذا ياعزيزى •• ياحبيبى •• يافتاى الوحيد المسكين ! »

وتوقفت الممرضة روزمارى عن القراءة فجأة ، اذ أن جارث نهض من مكانه ــ لدى هذا الذكر المباغت للحب ، ولدى سماعه كلمات جين العاطفية ، غير المرتقبة ــ وخطا خطوتين نحو النافذة وكأنه يريد الفرار من شىء أضخم من أن يقوى على مواجهته • ولكنه تمالك نفسه ــ بعد لحظة ــ وعاد الى مقعده ، وغطى وجهه بيديه • ومضت الممرضة روزمارى فى تلاوة الخطاب :

« أواه •• يا للخطأ الجسيم الذى ارتكبته بالنسبة لك ولنفسى معا !•• هل تذكر تلك الأمسية التى التقينا فيها ، فى شرفة قصر (شيئستون) يا عزيزى ، وسألتنى « أن أكون ، بل دعوتنى •• فكنت •• زوجتك ؟ » •• ها أنذى يا جارث استبقى هذه العبارة الاخيرة كما هى ، بما حوته من محاولتين نحو بلوغ الصدق •• لن أحذفهما أو أعدلهما ، بل اتركهما ليقرآ عليك •• لأننى ــ كما ترى ياجارث •• قد وصلت الى ما أهدف اليه •• لقد كنت زوجتك ، ولم أدرك هذه الحقيقة وقتئذ ، اذ أن المفاجأة كانت شديدة ، وكنت جاهلة ــ الى درجة لا تصدق ــ بالمسائل العاطفية •• فأذهلنى فيض المشاعر الذى جرفنى ، وأوشك أن يحتوينى • ومع ذلك ، فقد أدركت ــ اذ ذاك ــ أن روحى قد هبت ونادت بك أليفا وسيدا • وعندما ضممتنى ، وأسندت رأسك المحبوب فوق قلبى ، عرفت ــ لأول مرة ــ معنى النشوة والافتتان •• وما كنت لأسأل السماء نعمة أكرم من أن تطول تلك اللحظات الى ساعات ! »

وتهدج فجأة صوت الممرضة روزمارى الهادىء ، فتوقفت عن القراءة ٠ وكان جارث يميل الى الأمام ، ورأسه دفين فى راحتيه ، وقد انبعثت من حلقه



شهقة ، خشنة ، فى ذات اللحظة التى تداعى فيها صوت الممرضة روزمارى ٠٠ على أن جارث كان الأسبق الى استرداد جأشه ٠ فبسط يده عبر المنضدة ، فى عطف وحنان ، وهتف دون أن يرفع رأسه : « يالك من مسكينة ! انى شديد الأسف ، فالأمر أقسى من أن تحتمليه ٠ ليت الخطاب قد وصل فى وجود براند هنا ٠ وان أسفى ليشتد اذ أضطر الى أن أطلب منك الاستمرار فى القراءة ٠٠ ولكن ، حاولى أن تقرئى الكلمات دون استيعاب معانيها ، ودعى هذا لى ! » ٠ فعاودت الممرضة روزمارى القراءة :

« عندما رفعت رأسك فى ضياء القمر وصوبت نظراتك ـ بشوق ولهفة ـ الى ٠ أواه ! يا لتلكما العينين !٠٠ لقد جعلتنى نظراتك أفطن الى نفسى فجأة ، فاجتاحنى ادراك لما أنا عليه من بساطة بالغة فى الملامح ، ولمدى ضآلة ماكانت تتطلع اليه تلكما العينان العزيزتان ٠٠ لم يكن فى وجهى ما يستحق النظرات الوالهة ! واجتاحنى الحياء ، فضممت رأسك ثانية الى حيث تحتجب عيناك ٠ وانى لأتبين الآن ذلك التأويل الذى أولت به هذه الحركة ٠٠ انى أؤكد لك ـ يا جارث ـ بأن المرة الأولى التى فطن فيها عقلى الى أن هذا الامر العجيب ـ الذى كان يجرى ـ انما يعنى « الزواج » ، وهى فى اللحظة التى رفعت فيها رأسك للمرة الثانية ، وقلت : « يا زوجتى ! » ٠ وانى لأعرف ان قولى يكاد يبدو بعيدا عن أن يقبله العقل ، بل وأجدر بأن يصدر من فتاة فى الثامنة عشرة ، وليس من امرأة فى الثلاثين ٠ ولكن عليك أن تذكر ان كل علاقاتى مع الرجال ـ حتى تلك الساعة ـ لم تتعد التحية ،

وهز اليدين ، والزمالة الخالصة القلبية ، أو ضربة على الكتف من حين الى آخر ٠٠ ولا تنس ــ يا أعز مليك لقلبى ــ انك ، الى ما قبل ذلك الحــدث بأسبوع واحد، كنت من الشبان الذين يطلقون على :« جين العجوز الطيبة » ، وكنت تنادينى فى أحاديثنا الخاصة بيا « صديقتى العزيزة » ٠٠ كما لا تنس اننى كنت أنظر اليك دائما على انك تصغرنى بعدة سنوات ٠ ومع ان رابطة عجيبة عذبة ، نمت بيننا ــ منذ ليلة الحفلة الموسيقية فى (أوفردين) ــ الا أنه لم يخطر ببالى لحظة ، أن هــذه الرابطة ٠٠ حب ! وانك لتذكر كيف سألتك مهلة لاثنتى عشرة ساعة ، لأتدبر الرد ٠ وقد رضخت أنت لهــذه الرغبة فورا ــ وما كان أنبل موقفك فى هذا الامر يا جارث ! ــ ثم تركتنى حين طلبت منك أن تتركنى وحيدة ٠٠ غادرتنى بحركة لم أنسها قط ، فقد كشفت عن الطريقة التى يسمو فيها حب الرجل بالمرأة التى ينصب عليها٠٠ لقد أصبح ذيل الثوب ــ الذى كنت أرتديه ــ مقدسا عندى منذ ذلك الحين ٠ وانى لآخذه معى أينما ذهبت ، ولكنى لا أرتديه قط ٠ وانى لآمل أن أروى لك يوما دقائق ما جرى فى الساعات التى أعقبت ذلك ــ يا حبيبى ــ فلست أقوى على كتابتها ٠

« ودعنى أسكب على الورق ، الواقع التعس الذى فرق بيننا ، بكل قبحه وبشاعته ، والذى أحال هناءنا المشرق الى أسى وخيبة أمل ٠٠ اننى لم أكن أعتقد ــ يا جارث ــ بأن حبك يقوى على محنة خلوى من الجمال ٠٠ كنت أعلم جيدا ما فطرت عليه من عبادة للجمال ، وكيف كنت تسعى دائما لأن تكون محوطا به فى كل أشكاله ٠٠ ولقد تصفحت مذكرتى اليومية ، حيث سجلت حرفا بحرف حديثا دار بينك وبينى عن القس الذى أشرق وجهــه بهاء ، بفضل الجلال القدسى الذى كان يغمر نفســه ٠ وكنت قد عقبت على القصة ، بأنك لم تعد تراه قبيح الشكل ، ولكنه سيظل دائما ذا وجه بسيط، خلو من الجمال ٠٠ وقلت انه لم يكن من الوجوه التى يرغب الانسان فى أن يراها أمامه دائما على مائدة الطعام ، وانه لم يكن مفروضا عليك أن تحتمل أمرا كهذا ، هو ــ بالنسبة اليك ــ ضرب من الاستشهاد !

« لقد اهتممت بتلك القصـــة عندما قصصتها على ، وعجبت لك وأنت تشرحها ببساطة ــ دون أن تفطن ــ لامرأة هى أشد معارفك من النساء بساطة فى الوجــه والملامح ٠ ولذلك سجلتها تفصــيلا فى مذكراتى اليومية ٠٠

ويا حسرتاه ! فلقد تصفحتها فى تلك الليلة الخطيرة ، وقرأت الكلمات التى جاءت على لسانك كلمة فكلمة ، مرات عـديدة ، حتى انطبعت على صفحة فكرى ، بصورة قاسية ٠ وعند ذاك ، استيقظت فى أعماقى غريزة الشعور بالنفس ، وهى الغريزة التى تتيقظ فى المرأة حين تعلم أنها محبوبة ومرغوبة٠ فأضأت جميع الأنوار المحيطة بمرآة الزينة ، وأخذت أفحص - بدقة ونقد - قسمات الوجه الذى ستضطر الى أن تراه أمامك كل يوم ، خلف قدح القهوة على مائدة الافطار ، لسنين طويلة ، اذا أنا أجبتك فى الصباح التالى بالقبول٠٠

« ياحبيبى ، اننى لم أنظر الى نفسى - اذ ذاك - بعينيك ، كمـا أصبحت أفعل ، ولله الحمد ٠٠ لذلك لم أطمئن الى أن حبك سيصمد للتجربة ، ولاح لى اننى - اذا تذرعت بالشجاعة ، وغضضت النظر عن السعادة الحـاضرة ، تفاديا لتعاسة مؤكدة - فسأنقذك وأنقذ نفسى من خيبة الأمل والشـقاء فى المستقبل ٠ وقد ترى - ياحبيبى - فى هذا تفكيرا متعنتا ، مهينا ، لا يتكافأ مع الحب العظيم الذى كنت تغدقه على ٠ ولكن تذكر ان جمالك البـاهر ، وبهاءك الشخصى ، ظلا سنوات ينبوع مسرة لى ٠ فكنت أتصورك وأنت تزف الى « بولين ليستر » - مثلا - فى بياضها الناصع وشبابها الناعم المتألق ٠ ومن ثم ، فان ضميرى القاسى هتف بى : « عجبا !٠٠ ايربط هذا الشاب الشبيه بأبولو ، الى خلقتى المجردة من الجمال ، فيزداد حسنا عاما بعد عام ، بينمـا أزداد كبرا وقبحا ؟ ٠٠ أواه ، أيها العزيز ٠٠ انه لمنطق يبدو الآن تافها ، بعد أن أدركنا عمق حبنا ٠٠ ولكن هذا المنطق كان ذا رنين سليم صحيح فى تلك الليلة ٠٠ وأخيرا ، استقر رأيى على الرفض ، وقلبى يتمزق ، وذراعاى تنضحان بالألم لحرمانهما من كل هذا الهناء ٠

« أواه ! الا صدقنى اذ أقول انه لم تكن لدى فكرة عما كان يعنى هـذا القرار لك ، بل خيل لى بأنك ستسارع بتوجيه رغبتك فورا الى هدف آخر ، فتحول حبك الى أخرى أقدر على أن تشبع حاجتك من كل النواحى ٠ وقسما - يا جارث - اننى ظننت ، حين اتخذت قرارى ، اننى الوحيدة التى ستترك للوحشة والحرمان !٠٠ ثم تعرضت لمسـألة أخرى : أى سبب أتمحـل به للرفض ؟٠٠ كنت أعرف بأنك ستجادلنى - اذا ذكرت لك السبب الحقيقى - حتى تثبت خطئى بكلماتك المعسولة البراقة ، التى ما كنت أملك أمامها الا الرضوخ ٠٠ فى حين اننى كنت قد عقدت العزم على أن لا أتركك تجازف فى

هذا السبيل ، وعلى أن لا أجازف أنا الاخرى ٠ ومن ثم رأيت أن أكذب عليك يا حبيبى ٠٠ عليك أنت يا من توجتك ملكا على قلبى ، وسيدا على ارادتى ، ورفعتك عاليا فى الحب وفى الحياة ٠٠ فقلت لك اننى لا أستطيع أن أتزوج من « مجرد غلام » ٠٠ أواه ، يا حبيبى ! لست أنتحل لنفسى عذرا ٠٠ ولست أدافع عن نفسى ، وانما أنا أعترف فحسب ، واضعة كل ثقتى فى كرمك ، لتقرنى على انه لم يكن ثمة جواب آخر ليردك عن رغبتك ٠٠ أواه ! وهكذا بقيت حبيبتك المسكينة جين وحيدة كئيبة ! ليتك رأيتها فى الكنيسة الصغيرة ، وهى تناديك فى لوعة ، وقد تراجعت عن قرارها ، وراحت تقطع على نفسها الوعود ، وترهف السمع عسى أن تلتقط خطواتك عائدا اليها ، وقد أضناها الحنين !٠٠ ولكن حبيبى جارث لم يخلق من طينة الرجال الذين يقفون عند عتبة الباب فى انتظار امرأة مترددة !

« ولقد حطمت أعصابى أولى سنوات الوحدة ، حتى أنذرني دريك بأننى أوشك أن أنهار ، وأمرني بالسفر الى الخارج ٠ قد سافرت – كما تعلم – ولقيت فى الاوساط القوية الحية التى أحاطت بى – أينما ذهبت – ما صحح نظرتى الى الحياة ٠

« وفى مصر – في شهر مارس الماضى – على قمة الهرم الاكبر ، استقر رأيى على اننى لم أعد أقوى على الحياة بدونك ولم أر اننى كنت على خطأ ، ولكننى صبوت الى حبك ، والى أن أقرنه بحبى – يا حبيبى – ومن ثم وطدت النفس على أن أقدم على المجازفة ، ودبرت أمرى بحيث أستقل الباخرة التالية ، عائدة الى الوطن ، فأكتب اليك وأستدعيك ٠ ثم ٠٠ أواه ، يافتاى !٠٠ ثم ، سمعت النبأ !٠٠ وكتبت اليك ، ولكنك لم تسمح لى بأن أزورك !

« وبعد ، فأنا أعلم تماما انك ستقول : « انها لم تطمئن الى وأنا مبصر ، أما وقد حرمت من الابصار ، فلم يعد لها ما تخشاه ! » ٠٠ قد تقول ذلك يا جارث ، ولكن ليس فى ذلك شىء من الصواب ٠٠ لقد توفرت لدى فى المدة الاخيرة كل الدلائل التى تثبت اننى كنت مخطئة ، وانه كان من الواجب أن أثق بك ثقة كاملة ٠٠ أما تلك الدلائل ، فسأطلعك عليها فيما بعد ٠٠ وكل ما يمكننى قوله الآن ، هو انه لو قدر لعينيك الحبيبتين البراقتين أن تبصرا ، لأبصرتا الآن امرأة هى ملك يمينك وكلها ثقة ويقين فيك ٠ واذا ساورتها الهواجس بشأن وجهها أو جسمها ، فسوف تقول ببساطة :

« لقد أعجب بهما من قبل ، وهما الآن ملك له ، فليس من حقى أن أنتقدهما .. واذا كان يريدهما فانهما ليسا ملكى ، وانما هما ملك له وحده ! » .. أيها الحبيب ، لا يسعنى أن أخبرك الآن كيف أمكننى الوصول الى هذا الرأى القاطع ، بل يكفى أن أذكر لك اننى أيقنت ـ بما توفر لدى من أدلة تفوق كل كلام ـ من صدق وفائك وحبك .

« ومن ثم تتبلور المسألة فى : هل تغفر لى ؟.. اذا استطعت أن تغفر ، فسأحضر اليك فورا .. أما اذا كان الأمر قد تجاوز الصفح ، فلابد لى من أن أقرر ان أعيش حياتى فى الخارج . ولكن ، أواه ياحبيبى الأوحد !.. ان الصدر الذى وسدته رأسك يوما ، يرقبك فى شوق مضن ، زادته سنوات الوحدة استعارا . فاذا كنت فى حاجة اليه ، فلا تصده عنك ! « أكتب لى كلمة واحدة بخط يدك : « صفحت » . هذا كل ما أطلبه . فاذا بلغتنى ، فسآتيك فورا . لا تمل خطابا على كاتمة سرك ، فلست أطيق ذلك ، وانما اكتب ـ اذا شئت حقا ـ كلمة : « صفحت » وابعث بها الى : زوجتك »

★ ★ ★

وساد الحجرة سكون رهيب ، بعد أن فرغت الممرضة روزمارى من تلاوة الخطاب ، ثم وضعته على المنضدة ، وانتظرت فى صمت ، وهى تفكر فى نفسها : أتسعى ـ دون أن تزعجه ـ لتحضر لنفسها قدحا من الماء ؟.. ولكنها قررت أن تنتظر بدون الماء .. وأخيرا رفع « جارث » رأسه ، وقال جارث وقد أضاءت وجهه ابتسامة خفيفة : « انها تسألنى ان أفعل مستحيلا ! » فضغطت جين صدرها بيديها معا ، وقالت بصوت متهدج : « ألا يمكنك أن تكتب كلمة : صفحت ؟ »

وأجاب جارث : « كلا .. لا يمكننى .. اعطنى ورقة وقلما يا صغيرتى ! » . فأسرعت الممرضة روزمارى بوضعهما بجوار يده . وأمسك جارث بالقلم ، وتلمس بيديه الورقة فتحقق من حدودها ، ووضعها بيده اليسرى ، ثم حدد وسطها بأصابعه ، وكتب كلمة واحدة بحروف كبيرة ثابتة .. ودفع الورقة الى الممرضة روزمارى سائلا : « هل هذا الخط مقروء ؟ » . فأجابته قائلة : « مقروء تماما ! » .. وقد نطقت بالكلمتين قبل أن تطمس دموعها الكلمة المكتوبة .. فان « جارث » كتب كلمة « محبوبة » ، بدلا من « صفحت » !

وسألها جارث بصوت خافت متلهف : « أيمكنك ارسالها بالبريد باسرع وسيلة ؟ .. أترينها ستأتى ؟ أواه يا الهى !.. ستأتى .. اذا أمكن ارسال الخطاب ببريد الليلة ، فقد تحضر الى هنا بعد باكر ! » . فتناولت الممرضة روزمارى الورقة ، وبعد أن بذلت جهدا جبارا لتتحكم فى أعصابها ، قالت : « ياسيد دالمين .. هناك تأشيرة ملحقة بالخطاب تقول : اكتب الى فندق بالاس بابردين » . فقفز جارث واقفا ، وقد دبت فى وجهه وكيانه روح متحمسة جديدة . وصاح : « فى ابردين ؟.. جين فى ابردين ؟.. أواه يا الهى ! .. اذا تسلمت هذه الورقة صباح باكر ، فقد تصل الى هنا فى أية ساعة من النهار . جين .. جين !.. أيتها العزيزة الصغيرة روزمارى ، هل تسمعين ؟.. ان جين ستحضر باكر .. هل تذكرين ما قصصته عليك من أنها لطمت الببغاء بقفازها ؟.. هل تعتقدين بأنها تميل الى لطم سمسون بقفازها ؟.. انهم يحبونها دائما ، هؤلاء القوم !.. أما قلت لك بأن شيئا ما سيحدث .. أنت وسمسون كنتما - بطبيعتكما - انجليزيين ، ولايمكنكما فهم ذلك . أما مارجرى فقد فهمت ، وقد أجابتنا الغابة بأن هناك فرحا قادما من خلال الألم !.. والآن هل يمكنك أن تبعثى بهذا الخطاب حالا يا آنسة جراى ؟ »

وعاوده ابتهاجه بأول أيام مايو .. وسطع وجهه بنور باهر .. «وتكهرب» جسمه بلهفة الانتظار . وجلست الممرضة روزمارى الى المنضدة تراقبه ، وقد أسندت ذقنها الى يديها ، وأشرقت على شفتيها ابتسامة رقيقة ، غمرت كل وجهها وكيانها بنور الارتقاب المظفر ، لحب ناضج كامل . ثم قالت : « سأذهب بنفسى الى مكتب البريد لأبعث بالرسالة ياسيد دالمين .. ولسوف أغتبط بهذه النزهة ، وأعود فى ميعاد تناول الشاى ! »

ولما بلغت مكتب البريد لم تبعث بالخطاب المكتوب بخط « جارث » ، وانما خبأته فى صدرها .. ثم بعثت ببرقيتين . وكانت الاولى الى الدوقة ميلدرم ، بفندق بالاس ، بأبردين : « تعالى الى هنا بقطار الخامسة والدقيقة الخمسين مساء الليلة ، دون ارجاء » . أما الثانية ، فكانت الى السير دريك براند ، شارع ويمبول بلندن : « كل شىء على ما يرام »

الفصل الخامس والثلاثون

◆ قالت الممرضة روزمارى ذلك فى الحاح صبور : « أرجو كل الرجاء

ـ ياسـيد دالمين ـ أن تجلس وتركز انتباهك فى مائدة الشـاى .. فكيف سيتسنى لك أن تذكر مكان كل شىء ، اذا ظللت تقفز وتحرك مقعـدك فى مختلف الاوضاع ؟.. لقد ظللت تدق المنضدة بقبضتك ـ فى المرة السالفة ـ لتجتذب انتباهى ـ وقد كان موجها اليك فى قلق ـ وكدت تقلب قدحك بما فيه ، كما انك أرقت كثيرا ممـا كان فى قدحى فى الطبق . وما لم تحسن التصرف ، فسأطلب الى مارجرى أن تأتيك بمرولة ، وتجلسك على مقعـد عال كالاطفال ! » . فمـد جارث قدميه أمامه ، وشبك ذراعيه خلف رأسـه ـ مستلقيا فى مقعده ـ وأخذ يضحك فى مرح ، ثم قال : « واذ ذلك أبكى مستعطفا : « أرجوك يامربيتى .. هل تسمحين لى بالنزول عن المقعد ؟ » .. يالك من صغيرة متمردة !.. لقد كنت من قبل مؤدبة الى درجة التزمت .. هل تعرفين قصـة : « يجب أن تتلو صـلاتك ياتومى » ..؟ » . فأجابت المرضة روزمارى فى ضجر : « لقد سمعتها منك مرتين فى الثمانى والاربعين ساعة الاخيرة » .. واذ ذاك هتف جارث : « يا للخسارة !.. وددت لو أقصها عليك . ولو انك كنت حقا سمحة الخلق ـ مثل السير دريك ـ لقلت : لا ، وكم أحب أن أسمعها ! »

فقالت المرضة روزمارى : « لا ، وكم أحب أن أسمعها ! »

ـ لقد فاتت الفرصة ، فقيمة مثل هـذا الرد فى أن يقـال توا .. وقد لا يكون حقيقيا ، ولكنه يجب أن يقال فى التو . وبهذه المناسبة ، أرانى أذكر : « أواه ، ياشعرى المستعار ! » . أتفهمين .. هـذا هو التعبير الذى اعتادت الدوقة أن تردده اذا راقت لها فكاهة .. وعندما تقول : « ياشعرى المستعار » ، يجب علينا أن لا ننظر الى شعرها ، فكثيرا مايكون منكوشا لأن طائرها « التوكان » يجذبه بمنقاره بين حين وآخر .. كم هو طائر جميل ! »

فقالت له الممرضة روزمارى : « الآن ، ناولنى الخبز المقدد والزبد ،وكفاك هزلا عن الدوقة ..كلا ، هذا الخبز مكسو بزبد خفيف . قلت لك بأنك تكاد تفقد اتزانك ! الخبز المقدد موجود فى طبق دافىء الى يمينك ..والآن ، هب اننى أنا الآنسة شامبيون، وناولنى الخبز بكل لباقة ورقة، وكأنك تناولها اياه فى مثل هذه الساعة من غد ! » . فقال جارث : « من السهل أن نتصور انك « جين » مادام لك هذا الصوت .. ومـع ذلك ، و ... لست أدرى ، فالحق اننى لم أحاول الجمع بينكما فى فكرى . فان جملة واحدة من الـكهل « روب » جعلتنى أباعد بينكما ، اذ قال لى ان شعرك هش متهدل وحريرى

ناعم ، فى حين أن جين لم تكن كذلك ٠ وأعتقد ان هـذه الجملة هى التى أنقذت الموقف ، والا فان صوتك كاد يدفعنى الى الجنون فى الايام الاولى من وصولك الى هنا ، وكثيرا ما وددت ابعاد صوتك عنى ٠ وها أنتذى قد فهمت السبب لذلك ٠ ومع كل ، فان صوتك يختلف عن صوتها بشكل ما ٠ ان صوتها أكثر عمقا ، وهى تتكلم عادة بشىء من التراخى المحبب الى النفس٠ وكثيرا ما تستعين بالكلمات الدارجـة ٠ أما أنت فعلى جانب عظيم من دقة التعبير ، ولك المام واسع بما يدعى ٠٠ « العبارة الصحيحة الـكاملة » ٠٠ ما أظرف ان أسمعك وجين تتكلمان معا ٠ ومع كل ، فـ ٠٠٠ لست أدرى ٠ اننى أنتظر هذه الفرصة فى قلق ! » ٠ فسألته : « ولماذا ؟ »

ـ أوجس خيفة من أن لا تميل احداكما الى الاخرى ٠٠ انك أصبحت ـ فى الواقع ، ومن ناحية معينة ـ أقرب الى من أى شخص فى الدنيا ٠ أما هى ، فانها دنياى ٠ ولهذا أخشى أن لا تدرك قيمتك على الوجـه الاكمل ، أو أن لا تفهميها أنت حق الفهم ٠ فان لها طريقة فريدة فى نوعهـا ، حين تقف، وترمق الشخص من أعلاه الى أسفله ٠٠ وأكثر النسـاء لا يرضين عن ذلك ، لا سيما الفتيات الجميلات المرهفات ، اذ يشعرن انها تحصى عليهن مايصدر منهن !

وهنا غمغمت الممرضة روزمارى قائلة : « أما أنا فلا يصدر منى شىء ما ، اللهم الا اذا أبى مريضى أن يستقر فى مقعده » ٠ بينما استأنف جارث حديثه بتلك الرنة المبتهجة التى تشوب صوته كلما سرد حـديثا به ذكر لجين : « حدث مرة أن كانت فى ضيافة قصر (أوفردين) سيدة على جانب كبير من السخافة والتفاهة ٠ وكنا حينذاك جميعا فى (أوفردين) ٠ ولم نكن ندرك ما يغرى الدوقة العزيزة بدعوتها الى حفلاتهـا الممتازة ، اللهم الا شغفهـا بكشف أخطاء تلك السيدة وتقليدها ٠ وما كنا لنتأكد من دقة التقليد ، لولا أننا رأينا الأصل !٠٠ وكانت السيدة على شىء من الحسن ، ذات شعر خفيف مجعد فى لفات كشعر الدمى المصنوعة من الشمع ٠ وكان من عاداتهـا أن لا تحضر كفرد عادى ، وأن لا تسمح للحاضرين بغض الطرف عنها ، بل كان دأبها أن تحاول اجتذاب الانظار ، فى كل جملة من حديثها ٠ ولما ضقنا ذرعا بها ، طلبنا الى « جين » ان تسكتها ، ولكن جين كانت تقول لنا : « انهـا لا تلحق بكم أذى يا أولاد ، وان مسلكها ليروق لها ، فدعوها وشأنها ! » ٠

اذ أن من مزايا جين انها مفرطة اللطف مع الناس الذين تلمس تآمرا بهم ليكونوا مبعث فكاهة للدوقة ، فيما بعد . وكانت جين تمقت مثل هذه الافعال ، ولكنها لم تكن تملك أن تجادل عمتها فى الامر . ومع ذلك ، فقد كنا نلزم جانب الحذر فى تحريضنا للدوقة ، اذا كان الحديث على مسمع من جين !

وفى احدى الأمسيات ، اجتمع فريق منا – بعد تناول الشاى – حول المدفأة ، فى البهو لنتحدث مع جين – وكان ذلك فى أيام عيد الميلاد – والنار عالية الأوار فى المدفأة ، وقد أسدلت الستائر الحمراء حتى حجبت باب الشرفة ونوافذها من الجهتين . وكان « تومى » كعادته جالسا على أرجوحته وسط الجماعة ، يتلهى بالحملقة فى رماد السجائر . وفى الخارج كان الثلج قد كسا كل شىء ، وساد الكون سكون بديع ، مما زاد من بهجة الحديث والضحك ، فى الداخل . انك تعرفين ذلك الصمت النفاذ ، عندما تكتسى الاشجار والحقول والطرقات بقدم من الثلج الناصع اللامع .. وكان يلذ لى أن أتطلع الى الشتاء لأحظى بمشهد أولى هذه المناظر .. وها أنذا لن يقدر لى أن أرى الثلج مرة أخرى !.. لا بأس ! فان فى ذلك حافزا لأن أذكر أشياء كنت أراها من قبل . كما اننى أستطيع الآن أسمع سكون الثلج فى وضوح أشد عن ذى قبل .

« والآن ، ماذا كنت أقول لك ؟ نعم ، كنت أذكر تلك السيدة المحبة للمظاهر .. حدث أن صعدت كل السيدات الى حجراتهن لارتداء ملابس السهرة ، عدا جين ، اذ أنها لم تكن فى حاجة لاكثر من نصف ساعة لذلك . فلما رأتنا تلك السيدة متجمعين فى البهو ، خيل لها الغرور اننا ما تجمعنا الا من أجلها ، فى حين اننا كنا ننتظر فرصة مواتية ، لنروى لجين أخبارا خاصة عن شاب فى الحرس – يدعى « بيللى » – قبض عليه لاحداثه بعض الشغب .. وكان رئيسه الكولونيل صديقا حميما لجين ، فرأينا انها قد تتوسط له لدى الكولونيل . وهكذا كانت السيدة بعيدة عن بالنا ، وان لم تدر . أما جين فكانت تجلس مولية ظهرها الينا جميعا ، وقدمها مسندة الى حاجز المدفأة ، وثوبها منحسر على ركبتيها .. وكان تحت ذلك الثوب ثوب آخر من الحرير الثمين ، له طبقات من الثنيات الدقيقة ، خيل الينا بأنه يصلح رداء خارجيا ، لجماله . غير أن طبيعة جين لم تكن تحبب اليها ابراز

أثمن ما لديها !

« وكانت السيدة المحبة للمظاهر ، تثرثر فى تلك الاثناء ـ وقد غاب عن بالها اننا كنا فى ضجر من حديثها ـ بينما انصرفت جين الى قراءة صحيفة المساء . بيد انها شعرت بأن جو البهو أمسى متوترا ، فقد أخذ ضيقنا يشتد مما كانت ترويه السيدة المغرورة عن اعجاب الرجال بها . وازداد تذمرنا وتململنا ونحن نرجو أن تبادر جين الى انقاذنا من هذه المحنة .. حتى « تومى » ـ فوق أرجوحته ـ بدا محنقا ، ملولا .. وأخذ يرفع مخلبه الى منقاره ويعيده ، محملقا فى السيدة بغيظ .. وأخيرا ، انتهز فرصة حديثها عن معجب من أبطال التجديف فى النهر ، فصاح : « ليرسلها اليه أحدكم ! » .. ولم نتمالك أنفسنا ، فانطلق ضحكنا جميعا فى قهقهة عاليـــة ، وهرج صاخب .. حتى « جين » ، أخفت وجهها فى صحيفتها وأخذت تهتز لشدة الضحك . وذهبت كل سجائرنا الى الببغاء مكافأة له اذ خلصنا من السيدة المغرورة .

« وقد كان لدينا وقت كاف للتهريج .. أما جين فقد ســـارعت لاعداد الخطاب الذى طلبناه منها لمساعدة « بيلى » ، لترسله فى بريد المساء . ومع ذلك فقد وافتنا فى ميعاد العشاء تماما ، وهى فى ثياب السهرة أشد رواء من غيرها اللائى قضين الساعات فى استكمال زينتهن .. ما كان أبدع تدخل « تومى » ! بيد ان جين طلبت منا أن لا نقص ما حدث على الدوقة ، فرحنـا نتململ من هذا الحرمان القاسى ، لأن كلا منا كان يتمنى أن يسبق الباقين فى رواية القصة للدوقة .. ولكن المرء لا يملك الا أن يصـدع بما تأمر به جين ! »

* * *

◆ وهنا تساءلت الممرضة روزمارى : « ولماذا ؟ » . فقال : « آه ، لست أدرى ، ولا يسعنى أن أشرح السبب . فلو انك كنت تعرفينها لما كنت فى حاجة الى التساؤل .. هل لك فى كعكة يا آنســـة جراى ؟ » . فأجابته : « شكرا .. سآخذ شيئا منها هذه المرة » . واذ ذاك ، هتف : « هكذا .. ان هذا التعبير يطابق ما كانت جين تعبر به .. « سآخذ شيئا منها هـذه المرة » .. أليس عجيبا أن أظل ـ بعد ان مرت علينا هذه الاسابيع ـ أشتبه فى صوتك وصوتهـا .. وباكر سأفكر فى الشبه العجيب بين صـــوتها وصوتك ! »

وأجابته الممرضة روزمارى : « كلا لن يحدث هذا ٠٠ فلن تشغل أفكارك بغيرها عندما تكون معك » ٠ فصاح جارث : « صحيح ، ولكننى سأشغل بك ، فلسوف أفتقدك كثيرا يا عزيزتى روزمارى الصغيرة ، اذ لن يتسنى لغيرك - ولا لها هى - أن يسد فراغك ٠٠ ولكن هل تعلمين ؟ » ٠٠ وانحنى الى الأمام وقد غامت على وجهه سحابة من القلق أخفت البهجة التى كانت تتفجر منه ، واستطرد قائلا : « لقد بدأت أشعر بانفعال وقلق من جراء هذا الامر ٠٠ انها لم ترنى منذ وقع لى الحادث ، وكم أحس بالرهبة مما قد يحدثه منظرى من صدمة لها ٠٠ هل تعتقدين أنها ستلمس تغيرا كبيرا فى شكلى ؟ »

ونظرت جين الى الوجه الفاقد الابصار ، الذى اتجه نحوها فى قلق ، فارتد فكرها الى ذلك الصباح الذى دخلت فيه غرفة المريض لاول مرة ، وقد ظن أن ليس بالغرفة سوى الدكتور روب ، فاعتدل فى جلسته ، بعد أن كان موليا وجهه شطر الحائط ليخفيه عن الانظار ٠٠ وذكرت كيف رأت وجهه لأول مرة ، وكيف أدارت وجهها نحو المدفأة حتى لا يلمح الدكتور روب الدموع التى انهمرت على وجنتيها ٠٠ ثم عاودت النظر الى « جارث » فتبدى لها جليا - لأول مرة - مبلغ التشويه الذى أحاق به ٠٠ وعند ذلك ، بحنان دافق يجتاح فؤادها ٠ وتطلعت الى الساعة ، ثم شعرت انها لن تقوى على الصمود طويلا !

وسألها جارث بصوت متهدج : « هل هو قبيح جدا ؟ » ٠ فأجابت الممرضة روزمارى : « لست أملك ان أجيب عن امرأة أخرى ، ولكننى أعتقد بأن وجهك - كما هو الآن - سيكون مصدر غبطة دائمة لها ! » ٠ فتوردت وجنتا « جارث » ، وبدا عليه السرور والانشراح ، مع قليل من الدهشة ٠٠ فقد استبان فى صوت الممرضة روزمارى رنة لم يستطع أن يدرى مأتاها ولا كنهها٠ وما لبث أن قال : « ولكن لا تنسى انها لن تكون مدربة على عادات الأعمى ، وأخشى أن أبدو عاجزا متخبطا ، فهى لم تذهب الى عالم العميان - كما هو الحال معك ومعى - وهى لا تدرى شيئا عن التدابير التى ابتكرناها بالأشرطة والعلامات وغيرها ٠٠ أواه ياصديقتى روزمارى ، عدينى بأن لا تتركينى باكر !٠٠ انى أريدها ، والله وحده يعلم عظيم شوقى اليها ٠٠ غير اننى قد بدأت أشعر بشيء من الخوف من جراء ذلك ٠٠ سيكون وجودها معي نعمة رائعة ، لما تشبعه من رغبات عظمي ٠ أما حاجاتى اليومية البسيطة،

التى يجعل لها الظلام قيمة ، فكم أحتاج اليك من أجلها يا دليلتى الرقيقة التى لا أبصرها .. كيف أقوى على الحياة بدونك ؟ لقد خيل الى - فى بداية الامر - ان من حسن الحظ انك دبرت أمرك للرحيل عند حضورها هى . أما الآن - وأنا أنتظر حضورها - فلست أحتمل أن أتركك ترحلين .. ان وجودها معى سيكون السعادة العظمى التى تعجز الكلمات عن وصفها ، ولكن هذا يختلف عن وجودك هنا معى ! »

وبذلك حصلت الممرضة روزمارى على المكافأة التى كانت جديرة بها ، ولاح انها وجدتها مثيرة لعواطفها . وما ان تمالكت نفسها ، حتى قالت له بكل لطف : « لا تزعج نفسك بالامر ياسيد دالمين .. صدقنى فيما أقول من انك لن تلبث أن تتبين - قبل أن تنقضى خمس دقائق على وجودها بجوارك - انها ستكون كما كنت أنا معك .. ومن أدراك انها لم تذهب مثلى الى عالم العميان . ان الممرضة قد تمارس ذلك بدافع من شغفها بمهنتها .. أما المرأة التى تحبك ، فانها تمارسه لأنها تحبك ! » . فأجابها جارث : « انها أهل لهذا ! » . ثم اضطجع فى مقعده ، وقد كست وجهه أمارات الرضى التام ، وهتف : « أواه ياجين ، ياجين !.. انها قادمة !.. انها قادمة ! »

وألقت الممرضة روزمارى نظرة على الساعة .. ورددت عبارته : « أجل ، انها قادمة ! » . ومع ان صوتها كان ثابتا ، فان يديها كانتا ترتعشان . وأردفت قائلة : « ولما كانت هذه آخر أمسية سنقضيها معا ، فهل تقبل اقتراحا منى ؟.. أريد ان أصعد الآن الى حجرتى ، لأبدأ فى اعداد حقيبتى ، وأقوم ببعض اجراءات أخرى . فهل لك أن ترتدى ثياب السهرة مبكرا ؟ .. وسأحذو حذوك . واذا أمكنك الاستعداد فى الساعة السادسة والنصف ، فقد تنفسح لنا الفرصة لنعزف شيئا من الموسيقى قبل العشاء ! » . فأجابها جارث : « فكرة حسنة !.. سأعمل برأيك فليس يهمنى أى وقت أرتدى ملابسى .. كما اننى أرحب بكل فرصة تتيح لى عزف الموسيقى .. ولكن اسمعى ! كم أود لو انك لاتبدئين اعداد حقائبك يا آنسة جراى ! » . فقالت : « لست أعتزم اعداد حقيبتى بالمعنى الكامل ، ولكنى سأجمع بعض الاشياء المتناثرة ! »

- يتساوى الامر عندى ، مادام لا يعنى سفرك .. واذكرى انك وعدتنى بأنك لن تذهبى قبل حضورها !

ـ لن أذهب قبل حضورها ٠
ـ وستطلعينها على كل شؤونى ، وكل ما لابد لها من معرفته ٠
ـ ستعلم بكل ما أعرفه ، مما سيضاعف من راحتك ٠
ـ ثم انك لن تتركينى حتى أشعر تماما بالراحة فى كل شئ ٠
ـ لن أتركك ما دمت فى حاجة الى ٠٠

وعاد جارث الى التفكير العميق فى طبيعة صوتها ، ثم نهض وسعى الى المكان الذى صدر منه صوتها ٠ وكانت واقفة ، فقال لها فى انفعال عاطفى : « هل تعلمين انك نادرة المثال ؟! » ٠ وبسط اليها كلتا يديه ، وقال : « ضعى يديك فى يدى ولو مرة ياصديقتى روزمارى ٠٠ فكم أود أن أحاول أن أوفيك حقك من الشكر ! » ٠ وسادهما الصمت برهة ، ثم امتدت يدان قويتان ٠٠ قويتان ، قديرتان ، وان لم تلبثا أن ارتجفتا وقد أوشكتا أن تتناولا يديه ٠٠ غير انها سحبتهما فى الوقت المناسب ، قبل أن تلمسا يديه ٠ فان موعد « جين » لم يحن بعد ٠٠ وهذه هى ساعة النصر والنجاح للممرضة روزمارى ، فيجب أن لا تضيعها عليها !٠٠ وقالت له فى نعومة : « سنتصافح الليلة ، بعد الموسيقى ٠ أما الآن فأرجوك ياسيدى أن تكون حريصا ، فقد ضللت ٠٠ تمهل ! هاك شريط الحديقة على يسارك ، فاذهب واستنشق قليلا من الهواء فى الشرفة ٠٠ وأعد انشاد الأغنية العذبة التى سمعتك تغنيها تحت نافذتى فى هذا الصباح ٠٠ أما الآن وقد اتضح ما سيحدث ، فان هذا المساء البديع سيفعم قلبك سعادة وغبطة ، استمتاعا بترقب سعادة مرموقة ٠ واستودعك الله ياسيدى الى ساعة فقط ! »

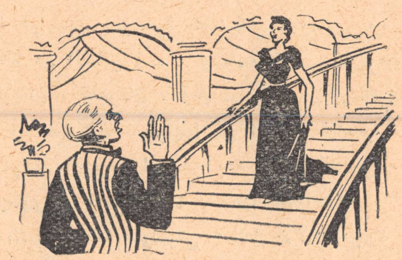
★ ★ ★

◆ ما الذى دهى الصغيرة روزمارى ؟٠٠ دار هذا التساؤل فى رأس جارث وهو يتحسس بحثا عن عصاه فى الركن المجاور للنافذة ٠ وقال لنفسه: « اننا لم نعد منسجمين كما كنا قبل ذهابها الى مكتب البريد ! » ٠٠ وسار الى الشرفة وقد ارتسمت على وجهه موجة من القلق ، ما لبثت أن تبخرت ، وجمد واقفا دون حراك ، ثم أغرق فى الضحك قائلا : « يا للغباء !٠٠ حقا اننى غبى ومغرور ٠٠ انها تفكر فى فتاها ، فلسوف تذهب اليه باكر ، ومن ثم فعقلها ملئ به ، كما أن عقلى ملئ بجين ٠٠ يا لروزمارى العزيزة ، الماهرة ،

الصغيرة ! أتمنى أن يكون جديرا بها !.. ولكن ، لا .. ليس بوسعه ! آمل أن يعرف انه غير جدير بها . هــذا التعبير أدق !.. وأرجو أن يلقاها بما تتوقع .. ومع ذلك ، فأنا أكره فكرة ذهابها اليه ! »

الفصل السادس والثلاثون

• كان سمسون يجتاز البهو الكبير ـ قبيل الساعة السادسة والنصف بدقائق ـ بعد أن أراح مخدومه فى حجرة المكتبة ،



وأذا به يسمع حفيف ثوب على السلم الخشبى ، فتطلع الى أعلى ، واذا بفتــاة طويلة القامة تهبط الدرجات .. وجمــد سمسون مبهوتا . وما تأثر بثوب السهرة الحريرى الاسود ، ذى الافواف العديدة و « الدانتيلا » التى تكسو الصدر ، قدر ما تأثر بما لاح على الوجــه الهادىء ـ الذى كان يعلو هــذا الثوب ـ من امارات الاعتداد والسلطان !

وقالت له جين : « سمسون .. ان عمتى ذوقة ميلدرم ، ووصيفتها ووصيفها وقدرا كبيرا من الامتعة ، سيصلون فى منتصف الثامنة من هذا المساء ، من (أبردين) . والسيدة جرايم (مارجرى) تعلم كل ما يختص باعــداد الغرف لهم ، كما اننى أصدر التعليمات لجيمس كى ينتظرهم فى المحطة ،

وكى يعد للدوقة مركبة لانها لا تحب ركوب السيارات . وعليك أن تقودها الى حجرة المكتبة لدى وصولها ، وسنتناول العشاء فى قاعة المائدة فى الثامنة والربع ، وحتى ذلك الوقت، فان السيد دالمين وأنا مشغولان فى حجرة المكتبة ، ولا نريد أن يزعجنا أحد ، مهما تكن الاسباب .. أتفهم جيدا ما أقول؟» . فقال سمسون متلعثما : « نعم يا آنسة .. يا ليدى » . فقد قضى سنوات صباه فى قصور الدوقات ، وتعلم أن من الواجب احناء الرأس لبنات اخوة الدوقات ! . ولكن جين ابتسمت وقالت : « بل آنسة وكفى يا سمسون » . ثم أسرعت الى حجرة المكتبة .

وسمعها « جارث » وهى تدخل وتغلق الباب . كما سمع بأذنيه المرهفتين حفيف ثوبها ، فقال : « أهلا بالآنسة جراى .. هل حزمت رداء العمل ؟ » . فقالت له جين : « نعم .. فقد أعددت أمتعتى ، كما أخبرتك » . ثم سارت فى تأن وعبرت الحجرة ووقفت فوق بساط المدفأة ، وهى تمعن النظر فيه . اذ كان مرتديا ملابس السهرة كاملة ، مما أعاد الى ذهنها ليلة سهرة قصر (شيننستون) .. وكان جالسا فى مقعده الكبير ، وقد وضع احدى ركبتيه فوق الاخرى . ولمحت طرفا من الجورب الاحمر الحريرى الذى كان يفضل ارتداءه مع ملابس السهرة . وظلت « جين » برهة تتأمله .. لقد أزفت ساعتها أخيرا .. ولكن الامر كان يقتضى الحرص والصبر — حتى فى هذه اللحظة — مراعاة لمصلحته وخيره . وقالت له : « لم اسمع الانشودة » .

— كلا ، فقد شغلت عن ذلك فى البداية .. وعندما تذكرت ، شغل فكرى بأمور أخرى . ومع كل ذلك .. آه يا آنسة جراى،

ليس بوسعى أن أغنى الليلة ، فان الحنين قد أخرس روحى !

وأجابته جين بكل رقة : « اننى أدرك هذا ، فدعنى أغنى لك ! » . فارتسمت على وجه جارث دهشة خفيفة ، وقال : « أتغنين ؟ .. اذن ، فلم لم تغنى لى قبل اليوم ؟ » . فقالت له جين : « لقد سألنى الدكتور روب – عند وصولي – عما اذا كنت أعزف الموسيقى ، فقلت له : « اننى أعزف قليلا » . وقد استنتج من ذلك اننى لا أجيد العزف ، ولا الغناء . فأشار على بأن لا أعزف ولا أغنى ، حتى لا نسوقك الى الجنون !» » .

فانفجر جارث ضاحكا وهو يقول : « تماما .. هذه أخلاق روبى الكهل . ومع ذلك ، فهل تنتوين المجازفة الليلة ، بأن تغنى لى قليلا ؟ » . وكان جواب جين : **« لن تكون مجازفة .. سأغنى لك الليلة أغنية واحدة . هاك الشريط الاصفر على بمينك ، ولا شىء فى طريقك الى البيانو .. فاذا أردت أن أكف عن متابعة الغناء ، فتعال الى ! »** .

ثم خطت نحو البيانو وجلست .. ولمحته – من خلف البيانو – وقد اضطجع فى مقعده ، ولاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة تفيض بالغبطة والسرور .. ولعله كان لا يزال متأثرا بما روته عن الدكتور روب !

* * *

• **وكانت** قطعة « المسبحة » تبدأ بدقة واحدة . وقد دقتها « جين » وعيناها تحدقان فى وجهه ، فرأته يستوى فجأة فى جلسته ، وقد تجمعت على سيمائه امارات العجب والترقب والحيرة .. ثم بدأت الاغنية بصوتها العميق الغنى ، منخفضا متهدجا مع الموسيقى الخافتة الناعمة :

« ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز ..

« هى عندى بمثابة عقد من اللآلىء ..
« أحصيها مرات .. كل حبة على حدة ..
« مسبحتى .. مسبحتى .. لكل ساعة لؤلؤة » ..

ثم توقفت جين عن الاستمرار ، اذ انتفض « جارث » واقفا . ولم تنبس شفتاه بكلمة واحدة ، ولكنه اقبل فى عماه نحو البيانو . فدارت على مقعد البيانو ، وبسطت ذراعيها للقياه .. وها هو ذا قد بلغ المعزف .. ولمست يده أصابع البيانو .. ثم وصل اليها هى .. واذا به يجثو على ركبتيه ، واذا بذراعيه تلتفان حول خصرها ، واذا بذراعيها تلتفان حوله بكل ما احتبسته طيلة المدة السابقة من شوق وحنان وظمأ !

ثم رفع اليها وجهه ، ونظر اليها برهة ، بعينيه اللتين لم تكونا تبصران ، ثم هتف : « أهذه أنت ؟ أنت طوال الوقت ؟ ». ثم دفن وجهه بين ثنايا « الدانتيلا » ، فوق صدرها .. ولم تتمالك جين عواطفها بل ضمت رأسه المحبوب بقوة الى صدرها فى حنان ، وهى تقول له : « أواه يا فتاى .. يا حبيبى! أجل ، أنا طيلة الوقت .. طيلة الوقت بجواره ، فى وحدته وآلامه .. أفكان بوسعى أن أظل بعيدة عنه .. ولكن ، أواه يا جارث ! أية معجزة مكنتنى أخيرا من أن أضمك ، وأتحسسك ، وأحس بك ! .. نعم ، أنا هى . أواه أيها المحبوب ، ألست واثقا ؟ .. من التى تستطيع أن تحتضنك هكذا ؟ حذار يا حبيبى ! تعال الى الاريكة الكبيرة ، واجلس بجانبى ! »

ونهض جارث ورفعها من فوق مقعدها فلم يفلتها ، بينما تولت هى ارشاده الى الاريكة . وهناك عاد يجثو أمامها وقد لف ذراعيه حول خصرها وخبأ وجهه فى أحضانها ، فهتفت جين بصوت ناعم خافت : « أواه يا حبيبى ، يا حبيبى ! » ..

ثم التفت يداها خلف رأسه تحميه فى حنو صامت .. وعادت تقول : « لقد أيقنت ان احلى أيامى هى التى أقوم فيها بخدمة فتاى ، وأساعده فى دياجير ظلمته ، وأحميه ما أستطعت من أى ألم لا داعى له ، وابقى بجواره دائما لأؤدى كل حاجاته . ولكنى لم أكن أملك أن آتى بنفسى، ما لم يعرف هو، ويفهم ويصفح ..

ولكن لا .. ليس ليصفح ، وانما ليدرك ثم .. يعلن حبه .. وها هو ذا قد فهم .. وها هو ذا قد صفح .. أواه يا جارث!

.. اصمت يا حبيبى ! .. لن أتركك بعد الآن أبدا ، أبدا !..

ألا تدرك ما أقول يا محبوبى ! اذن فسأزيدك صراحة . أيها الحبيب ، اصبر قليلا وانصت .. سنبقى هكذا لبضعة أيام ، كما كنا فى الايام التى قضيتها بجانبك ، فلا يعلم سوى فتاى ان التى بقربه هى أنا ! ولسوف تحضر العمة « جينا » هذا المساء ، فتكون هنا بعد نصف ساعة . وسنحصل فى أقرب فرصـــة ممكنة على ترخيـص خاص بالزواج ، ثم نتزوج يا جارث .. واذ ذاك .. » . وتوقفت جين وهى تنظر الى الرجل الجاثى أمامها وقد حبس أنفاسه لينصت الى كل كلماتها .. وما لبثت أن استطردت فى صوت رقيق خافت جمع فى أعماقه معجزة مقدسة ، دون أن يهتز : **« واذ ذاك ، ستكون أسمى هناءة لى ، أن أبقى مع زوجى ليلا ونهارا ! »**

مرت لحظة صمت عذبة ، وهمدت العاصـــفة العاطفية الجياشة التى كانت بين ذراعى جين ، فصارت طمأنينة وراحة .. ثم همس صوت الحب الازلى الكامل : « ويدوم السلام » . ثم سادتهما سكينة شاملة !

وأخيرا رفع جارث رأسه وقال : « دائما .. دائما معا .. نعم ، وسيكون ذلك هو النور الدائم ! »

* * *

• **وعندما** فتح سمسون الباب وأعلن مقدم « صاحبة الفخامة الدوقة ميلدرم » ، كانت جين جالسة الى البيانو تعزف أنغاما خفيفة حالمة .. وكان ثمة شاب نحيل ، يرتدى ملابس السهرة ، قد تقدم فى شوق وحفاوة ، ليستقبل الدوقة .. ولم تر هذه – أو لعلها تجاهلت – الشريط الذى كان يهتدى به ، فأخذت يده الممدودة بين راحتيها بحرارة ، وهى تهتف : « يا اله السماء ! يا عزيزى دال .. انك تدهشنى .. ظننت باننى سالقى شخصا أعمى ، واذا بك تتهادى من مكان الى آخر كما كنت بذاتك المتألقة الجميلة ! » . فأجابها جارث : « أهلا بك يا عزيزتى الدوقة ! » . ثم انحنى ولثم اليدين الرقيقتين وهما لا تزالان تقبضان على يده .. واستطرد يقول: « لست أراك ، وآسف اذ أقول ذلك .. غير اننى لا أشعر – الليلة – بأننى أعمى تماما .. ان ظلمتى قد تبددت بأشعة فرح بالغ يفوق كل تعبير ! »

– أوه .. أو هكذا تتطور الامور ؟! .. نبئنى الآن ، أيهما ستتزوج : الممرضة التى بلغنى أنها شخصية شابة محترمة ، يطنبون فى امتداحها .. أم تلك السليطة «جين» ، التى أمرت عمتها المسكينة – فى غير اشفاق – بتجشم مشاق السفر من أول المملكة الى آخرها ، اشباعا لنزواتها ؟

وعند ذلك اقبلت جين من مقعد البيانو ، وعقدت ذراعها فى ذراع حبيبها ثم قالت : « انك لتقرين يا عزيزتى العمة جينا ، بأنك كنت شديدة الرغبة فى الحضور .. لانك تستطيبين القصص الغامضة ، والمعجزات التى يرسلها الله فى الوقت المناسب . ولسوف يجمع « جارث » بين الفتاتين –

المرضة وابنة أخيك ـ لان كلا منهما تحبه حبا لا يدعها تفارقه ثانية .. ويبدو أنه يرى ان ليس بوسعه الاستغناء عن أى منهما ! »

ونظرت الدوقة الى الوجهين المتألقين .. احدهما وجه رجل لا يبصر ، والآخر يوفر له الابصار فى زهو واغتباط .. ثم أغرورقت عيناها بالدموع . وهتفت فى دعابة : « أجـل ، لقد كنا نوقن دائما من أن فتاة واحـدة لا تكفى لدال ، فهو يصبو الى نواحى الكمال التى لا تتوفر الا فى عدد من الفتيات .. ولكنه ـ على ما يبدو ـ قد وجدها .. باركهما الله معا ، يا أسخف سعيدين .. وسأباركهما أنا الاخرى .. ولكنى أريد ـ قبل ذلك ـ أن أتناول العشاء .. هيا استدعيا رئيس الخدم العصبى ، ذا السوالف المسدلة على صدغيه ، واخبراه بأننى فى حاجة الى وصيفتى وحجرتى ، كما أريد أن أعرف أين قد وضعوا طائرى « التوكان » العزيز ، فقد اضطررت الى أن اصطحبه يا جين .. انه عصفور عزيز ومحب جدا ! »

الفصل السابع والثلاثون

• **كانت** أعمدة الاجتماعيات فى الصحف ، خليقة بأن تصف حفل قران جارث وجين ـ عندما تم بعد أيام قلائل ، فى الكنيسة الصغيرة القائمة بين التلال ـ بأنه « قران هادىء جدا » . ولعله كان ـ فى رأى من شاهدوا الحفل ـ « غير عادى » أكثر منه « هادئا » . على ان كل ما كان يهم « جارث » و « جين » فى الامر ، هو ان يتزوجا ، وان يتركا معا دون ما كثير أرجاء . فلم يفلح أحد فى اغرائهما على الاستماع الى التفصيلات التى كانت تؤدى الى هذه الغاية المنشودة . **فقد وكلت جين الى**

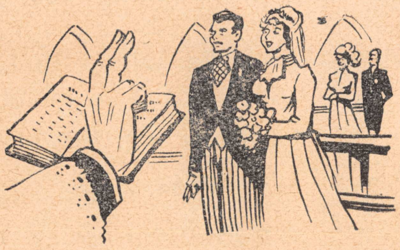
الدكتور دريك بكل ذلك ، قائلة : ((كل ما أرجو أن يتحقق يا دريك هو أن يكون عقد الزواج صحيحا من الناحية القانونية .. وارسل الينا قائمة الحساب !))

أما الدوقة ـ وهى مثال السيدة المحافظة على التقاليد القديمة ـ فقد أثارت زوابع من النقاش حول اعداد خمار العروس ، وزهر البرتقال ، والحرير الابيض الناصع ، فى حين كانت جين ترفض كل ذلك بقولها : ((يا عمتى العزيزة .. تصورى منظرى وأنا أضع زهرة البرتقال ، كأننى احدى دمى عيد الميلاد .. كما اننى خلقت أنفر دائما من الخمار .. أما الحرير الابيض، فهو الذى درجت على أن أتحاشى أن ارتديه !)) . فصاحت الدوقة : ((اذن ، فما الذى ترغبين فى أن ترتدى فى حفلة زفافك ، أيتها الفتاة الشاذة ؟ !)) . فأجابتها جين وهى تعقد خيطا من الحرير الاحمر كانت تحبكه : ((أى ثوب يحلو لى أن أرتديه فى ذلك الصباح)) . وكانت عيناها تنظران خارج النافذة ، الى حيث جلس ((جارث)) فى الشرفة يدخن سيجارته . فما كان من الدوقة الا أن نهضت قائلة فى لهجة الوعيد : ((ألديك دليل بمواعيد القطارات ؟ وهل لك أن تعملى على وصولى الى المحطة بعد ظهر اليوم ؟))

وأجابت جين ، وهى منهمكة فى عملها : ((نحن دائما على استعداد لراحة كل من يريد السفر ، فى اللحظة التى يطلب فيها ذلك . ولكن ، الى أين أنت ذاهبة ، أيتها العمة العزيزة جينا ؟ .. انك تعلمين أن دريك وفلاور سيصلان الليلة !)) . فقالت الدوقة ساخطة : ((اننى انفض يدى من أمرك ، وأريد العودة الى الجنوب)) .. وجنحت جين الى الملاطفة قائلة : ((لا تفعلى شيئا من ذلك يا عزيزتى .. لقد نفضت يدك منى

مرات كثيرة ، ولكننى مثل دم الملك دنكان ـ ملك اسكتلندا ـ الذى يبقى دواما عالقا باليدين ! » .. **ثم رفعت صوتها قائلة : « جارث ، اذا أردت أن تتريض لفترة وجيزة ، فنادنى . اننى هنا ، أبحث مع عمتى الدوقة شئون جهازى ! » . وواتاها رد جارث متسائلا فى مرح : « وما هو الجهاز ؟ » . فأجابته : « شىء ترتديه لتتزوج ! » . فصاح جارث بحماسة شديدة : « اذن ، فلنسارع الى ارتدائه ! »**

وعند ذلك قالت جين : « يا عمتى العزيزة .. تعالى نتفق على أمر سواء بيننا . لدى فى حجرتى بعض الثياب البديعة ، ومنها ما هو من حياكة أشهر الحائكين .. فاطلبى من وصيفتك ان تلقى نظرة على كل ثيابى ، واختارى ما ترينه منها ، ولتعده هى لارتديه فى صبيحة زواجى .. وأعدك بأننى لن استبدله بغيره » .



وكانت نتيجة هذا الجدل ، ان ظهرت « جين » فى الكنيسة فى ثوب أزرق طويل ، ومعطف من لونه مزركش بالذهب ، يتناسق مع جسمها السمهرى الى درجة الكمال ، وقد تمنطقت بحزام أصفر داكن ، من الحرير الثمين .. وأحاطت عنقها ومعصميها

بدانتيلا قديمة ثمينة ! .. وبقدر ما كانت « جين » غير مكترثة بلباسها ، كان «جارث» يتقد تحمسا لبلوغ أقصى درجات الاناقة . ولما كان كثيرا ما دعى لان يقف شبينا فى حفلات الزواج فى لندن ، فان سمســـون اكتسب دراية بكل ما يرتبط بهذه المناسبة ، فلم يجد صعوبة فى تمكين مخدومه من أن يظهر فى أقصى آيات الاناقة .

وما كان ابهاه وهو يقف على عتبة المذبح ، فى انتظار عروسه ! ولم يكن يراها ، ولكنه ظل ينصت الى وقع خطواتها ، حتى اذا جاءت مســـتندة الى ذراع الدكتور دريك ، أمال جارث رأسه قليلا نحوها وابتسم !

أما الدوقة ، فقد اختالت فى ثوب حـريرى أحمـر ، محلى بالفراء ، بينما ازدانت قبعتها بالريش الابيض ، وقد تدلى منها كثير من السلاسل المرصعة بالجواهر ، والتى كانت تحدث صلصلة ورنينا وسط سكون الكنيسة ، كلما تحركت الدوقة التى جلست فى مقعد خاص بالصف الامامى ، فى انتظار ابنة أخيها لتسلمها الى زوجها .. وفى مقعد مقابل — من الجانب الآخر — جلست « مارجرى جرايم » فى أقرب مكان للعريس ، مرتدية ثوبا من الحرير الاسود ، وقبعة صغيرة من الحرير المطرز ومنديلا أبيض استقر عند قلبها الكبير المخلص الذى ظل يخفق — فى حنان بالغ — لجارث منذ طفولته .. وكانت تلتفت فى قلق كلما انبعث الصـليل من الدوقة ، وفيما عدا ذلك ، فان عينيها لم تحيدا عن متابعة المراسم الدينية لعقد القران ، وفى يدها كتاب صلاة .

وكان الدكتور « روب » هو الاعزب الوحيد الذى استطاع

أن يحتل مركز الشبين (١) . وقد أصرت جين على أن لا يعهد اليه بالاحتفاظ بالخاتم ، فان ما لاحظته عليه من قبل ، جعلها توجس خوفا من أن يضع الخاتم حول اصبعه وهو ساه ، ثم يروح يبحث عنه - عندما يطلب منه - فى كل جيوبه وجيوب جارث وجيوب الحاضرين ، وقد يقلب أبسطة الكنيسة قبل أن يفكر فى البحث عنه حول اصبعه !! .. وهكذا وضع الخاتم فى جيب صدرية جارث وظل به منذ احضرته « جين » من (أبردين) . وقد اضطلع الدكتور روب بدفع أجور الكاتب والمسجل وقارعى الاجراس ، وكل خدم الكنيسة .. ووضع النقود التى عهد بها اليه « جارث » لذلك - فى سخاء - فى جيوبه ، وأخذ يصلصل بها عندما بدأ القس يوجه الوصايا الى العروسين . وقد بلغت به حماسة الفرح حدا تعددت عنده هفواته ، دون أن يفطن الى ما كان يفعل . **وبذلك عمل هو من ناحيـة ، والدوقة من ناحيـة ، وراحا يتناوبان الرنين والصلصلة .. وكل منهما ينزعج مما كان يصدر عن الآخر ، دون أن يفطن الى ما كان يصدر منه . فأخذت الدوقة تحملق فى الدكتور روب ، والدكتور روب يعبس فى وجه الدوقة .. بينما كانت مارجرى ترمقهما معا بعينين دامعتين !**

أما « دريك براند » ، فكان أطول الحاضرين فى الكنيسة ، وقد زان قوامه الممشوق حلة سوداء ذات صدرية من الحرير اللامع ، أعدتها اللادى براند واصرت على أن يرتديها فى هـذه المناسبة . وبعد أن قاد « جين » الى جانب « جارث » ، عاد

---

(١) ذكر الدكتور روب - فى فصل سابق - ان له زوجة وفية ، لا تكلفه نفقات ما ، ولا تطالبه بأزياء ، ومع ذلك فهى شـديدة الوفاء .. وكان يرمز بذلك الى كلبه !

الى مقعده بجوار زوجته ، خلف مقعـــد مارجرى .. فلمـا سحبت جين يدها من ذراعه ، أدارت وجهها اليه ، وافتر ثغرها عن ابتسامة شكر .. وفى النظرة السريعـــة التى تبادلاها ، تجمعت كل ذكرياتهما الماضية ، وكل ما كان متبادلا بينهما من ثقة وعواطف طوال السنين التى مرت عليهما . وثبتت الليدى براند عينيها على كتاب الصــلاة الابيض الانيق .. فما كان للغيرة ظل فى حياتها الزوجية ، لان الطبيب لم يدع فرصة لهذا الشعور كى يتسلل الى قلبها ، وكان بهاء زهرته (وهو المعنى الحرفى لاسمها .. فلاور) هو وحده مصدر سعادته ، وماكانت الحسان الاخريات ـ فى نظره ـ سوى كائنات حية لا يهتم بها الا من الناحية العلمية فحسب . على أن ((فلاور)) لم تستطع أن تصل الى أعمق أغوار الصــداقة التى نمت بين ((جين)) و ((دريك)) منذ الطفولة ، وزمالتهما فى شــبابهما ، يعزز دعائمها تشابه عجيب فى الخصال والاخلاق ، ما كان ليســاعد على زواجهما ، ولكنه صار الى ود وزمالة كانت لكليهما خـير مشجع . وقد حاولت فلاور ـ فى الســنوات الاخـيرة ـ أن تشاركهما مودتهما صادقة ، ولكنها عجزت عن أن تسبر عمقها تماما . وبدأت الصلاة .. وكان القس قصير النظر ، عصبى المزاج ، زاد من انفعاله ما لابس هذا القران الهام من ظروف لم يعتدها : فمن ترخيص خاص ، الى ((عــريس)) أعمى ، الى وجود دوقة فى الحفل .. كل هـــذه الامور زادت من توتر أعصابه ، فراح يقرأ بسرعة فائقة ، وبصوت خافت لم تتمكن العجوز مارجرى من تتبعه ، مع ما بذلته من جهد . ولما فطن القس الى ارتباكه ، بدأ يتريث فى التلاوة ، ويمط فى النطــق بالالفاظ ، ويتوقف طويلا عند آخر كل جملة ، فتوترت أعصاب الحضور .. فوق ما تخلل ذلك من صلصلة سلاسل الدوقة

ورنين النقود فى جيوب الدكتور روب !

وسارت المراسم على هذا النحو ، حتى بلغت نهايتها بالاستفهام عما اذا كان هناك معترض على صحة زواج العروسين وشرعيته .. وطال انتظار الرد ، مما ضاعف من توتر الاعصاب ، فما لبثت العجوز مارجرى أن هبت صائحة : « كلا ، ثم شهقت فى انفعال عصبى ، فأدار « العريس » رأسه نحو مصدر الصوت وابتسم ، بينما وضع الدكتور دريك يده على كتف العجوز مارجرى وهى ترتجف ، وهمس قائلا لها : « تجلدى يا صديقتى ، فكل شىء على ما يرام ! »

وما لبثت « جين » أن وجدت يدها اليمنى مشتبكة بيد جارث بقوة . وما كان لاى اجراء من اجراءات الكنيسة أن يفسد روعة الكلمات الكنسية التى وجهت الى « جارث » للاستيثاق من قبوله « جين » زوجة له .. ورد « جارث » – ومعه العجوز مارجرى – بالايجاب ، فى عاطفة حارة متحمسة . ثم سئلت جين بدورها ، وكأنما كانت الكنيسة تبغى – ولو بطريقة ايحائية مترفقة – أن تنبهها الى أنها تقبل الزواج منه وهو أعمى . فأجابت جين : « نعم أقبل ! » .. وانبعث الصوت العميق العطوف كما كان ينبعث منفوما فى أنشودة « المسبحة » . وما أن نطقت جين بالرد ، حتى رفع جارث اليد التى كان ممسكا بها ، ولثمها بكل احترام . ولم تكن هذه الحركة الاخيرة مدونة فى الطقوس الكنسية ، مما ادخل فى روع القس شيئا من الحيرة . ثم رفع رأسه فجأة سائلا : « من منكم يمنح هذه المرأة زوجة لهذا الرجل ؟ » .. ولما مرت لحظة لم يسمع ردا ، أعاد السؤال بحدة ، وهو يحملق بنظره فى أرجاء الكنيسة . واذ ذاك فطنت الدوقة الى ان دورها قد حان ،

فنهضت عن مقعدها الكبير ، وتقدمت الى عتبة المذبح ، وقالت للقس : « أيها الرجل العزيز الطيب ، أقرر بأننى أمنح ابنة أخى لهذا الرجل ، وقد قدمت الى الشمال ، متحملة متاعب السفر من أجل هذا الغرض » . وكان السأم – لطول الاجراءات – قد أودى بأعصابها ، فهتفت : « والآن ، استمر .. ما الذى ستفعله بعد ذلك ؟ » . وهنا انفجر الدكتور روب ضاحكا ، فرفعت الدوقة منظارها وراحت ترمقه !

* * *

• **ولم** يكن بين الحضور – على تباين اشتداد سأمهم – من لم يحفل بالاجراءات ، قدر العروسين نفسيهما . لقد فاز كل منهما بصاحبه ، أمام الله وأمام الناس ، فانصرف كل منهما الى الآخر بكل نفسه ، وقد وقفا أمام الله .. أما « أمام الناس » فهذا ما لم يكترثا له كثيرا . وكانت « جين » قد قالت لجارث من قبل : « كل الناس يتصرفون تصرفات غريبة فى حفلات الزفاف ، ولن تشذ حفلة زفافنا عن القاعدة . وما علينا سوى أن نغلق عيوننا ونقف معا فى « الارض التى لا أبصار فيها » ، تاركين لدريك أمر مراعاة كل الاصول المتبعة وقانون الزواج ، حتى لا تشوب زواجنا أية شائبة ! » . فأجابها جارث : **« ليس فى الارض التى لا ابصار فيها يا محبوبتى .. ولكن فى عالم لا حاجة فيه للشموع ولا لاشعة الشمس .. وأينما وكيفما أتخذك زوجة ، فاننى سأصبح فى ذروة سماء الله ! »**

وبذلك وقفا معا ، وقد بدا لهما – فى سكينتهما – أنهما محوطان بصمت شامل . واستمرت المراسم الكنسية .. ورأى القس فى حيرة ، انه لا يدرى كيف يقوى على فك يديهما ،

بعد أن انتهى الموقف الذى كان يقتضي اشتباكهما . ولكن اللحظة التالية كانت تتطلب أن يضعا أيديهما معا ، رمزا لانها تسلمه نفسها ولانه يتسلمها . وهكذا ظلت يدا العروسين متماسكتين، فى شعور عميق رصين محتشم .. وفى حنان أخذ كل منهما الآخر أمام الله ، طبق حكمته وأوامره المقدسة !

وعندما فرغت المراسم ، أخذت جين ذراعه ، ومالت عليها ليشعر باعتمادها عليه ، وقادته سائرين الى داخل الهيكل .. حتى اذا استقلا سيارتهما - بعد ذلك - وأحسا لاول مرة بلذة الانفراد معا كزوج وزوجته ، التفت جارث الى جين بشوق فطرى ألهب قلبها بنشوة تفوق ما تحدثه الكلمات أو الخطب المنمقة . فلم يقل لها « يا زوجتى » لان تلك الكلمة قد توجت اللحظة التى سبحا فيها من ثلاث سنوات فى سحر شامل .. وقال لها : « يا أعز شىء لدى ، متى سيرحلون ؟ .. متى نصبح فى خلوة تامة ؟ ولم لم يستقلوا القطار عقب خروجهم من الكنيسة ؟ » . فألقت جين نظرة على الساعة ، وقالت له : « لان من الواجب أن يتناولوا طعام الغداء على مائدتنا ياعزيزى .. ويكفى أن تفكر فيما قاموا به جميعا لنا ، فلا يحق لنا ان نبدأ حياتنا الزوجية بالتقصير فى اكرام ضيوفنا .. الساعة الآن الواحدة ، وقد حددنا للغداء الساعة الواحدة والنصف ، وسيبرح قطارهم المحطة فى الساعة الرابعة والنصف .. ثم نصبح يا جارث وحيدين تماما ، بعد نحو ثلاث ساعات ! »

وصاح جارث فى فرح صبيانى : « وهل سأقوى على الاحتفاظ بحسن السلوك واللياقة لمدة ثلاث ساعات ؟ » فأجابته جين : « **بل يجب عليك ، والا أحضرت لك الممرضة روزمارى !** » . واذ ذاك هتف : « آه ، حذار ، فان كل حديث فى هذا اليوم أثمن من ان يتناول هزلا .. يا جين ! » . ثم

التفت لها فجأة ، ووضع يده على يدها قائلا : « جين ، هل تعلمين أنك الآن قد صرت زوجتى فعلا ؟ » . فأمسكت جين بيده ، وضغطت بها قلبها وهى تحاول أن تهدىء خفقانه ، وقالت له : « يا حبيبى .. اننى لا أعلم فحسب ، ولكنى أفهم تماما ولله الحمد انه أصبح حقيقة واقعة ! »

الفصل الثامن والثلاثون

كان وصول فخامة دوقة « ميلدرم » الى قصر (جلينيش) حدثا كبيرا أوجد به الكثير من الحركات غير العادية . فقد هان على « سمسون » كل انزعاج، وكل انفعالات، أمام الزهو الذى لم يكن يحلم به يوما.. الزهو بوجود دوقة تخرج وتدخل وتدب فى القصر . أما « مارجرى » ، فان حادث وصول الدوقة لم يشعرها بشىء من الزهو ، بل قابلت فخامة الدوقة كما لو قابلت زوجة القس ، وأدت لها ذات التحية التقليدية التى أدتها لبقية الناس.. احترام فى غير تذلل ، وتودد دون ألفة .. بل ان تساؤلا طارئا دار بمخيلتها عن السبب الذى كان يستدعى حضور دوقة الى (جلينيش) ، غير أنها لم تتساءل مرة عما استدعى حضور زوجة القس مثلا . ولم يطل بمارجرى التساؤل عما جاء بالدوقة ، بل سرعان ما أكبرتها - رغم ما سببه وجودها من متاعب - حين علمت أن وجودها كان ضروريا لاستكمال المراسم والمظاهر المطلوبة لحفلة الزواج ، مما يبعث البهجة فى قلب ابنها المحبوب ..

أما تابع الدوقة ، فكان شابا طيب الخلق ، لا يعيبه سوى عجزه عن أن يتولى حراسة فمه بنفسه ، فتكلفت مارجرى بالحراسة اللازمة ، فكان التابع اذا أراد أن يسترسل فى سرد قصصه اللاذعة عن أفعال الدوقة فى قصر (أوفردين) - أو أى مكان آخر - لجأ الى غرفة « سمسون » ، واطمأن الى أن الأبواب موصدة ! .. أما الوصيفة ، فقد رأت مارجرى أنها فتاة مسكينة ليست من الغباء بالدرجة التى تتجلى عليها ، بل كانت على شىء من الذكاء واللطف ، فمنحتها صداقتها .. فى حين أنها وصفت طائر « التوكان » - منذ النظرة الأولى - بأنه « طائر نحس من الطيور الكاسرة » . فلم تسمح لأحد

من الخدم بأن يشير اليه فى حديثه ، وكلما أصدرت الدوقة أوامرها باعداد اناء مملوء بالأرز المسلوق مع الزبيب - فى أية ساعة من ساعات النهار - كانت مارجرى توافيها بفضلة من الأرز الذى كانت تعده لجارث ، وهى تقول لسمسون : « هذا لأجل القفص الذى يحلو لصاحبة الفخامة أن يكون معها فى أسفارها ! » . ثم تقول للخادمة ماجى على انفراد : « يا لذنب أولئك الذين لم يتركوا هذا المخلوق فى أعماق غاباته البدائية ! »» .

أما جين ، فقد كسبت منزلتها فى أعماق قلب مارجرى قبل أن تتجلى شخصيتها الحقيقية . وقد قالت مارجرى لجارث ، وهى تحدثه - فيما بعد - عن الممرضة روزمارى : « لم يطل كثيرا اقتناعى بأنها ممرضة ، فقد كانت تبالغ فى الظهور كممرضة محترفة - فى أيامها الأولى - فى كل شىء عدا عينيها ، اذ لا سبيل فى تمويههما بزى الممرضات .. والعينان نافذتان تطل منهما على قلب المرأة ، وقلما نظرت فيهما دون أن أتيقن من أن القلب الكامن فى صدرها ، ملك - بأكمله - لولدى المحبوب . ولما عصبتهما أياما لتعيش فى الظلام من أجله ، أدركت عظمة قلبها ، واطمأننت الى أنه فى رعاية المرأة التى تحبه ، فلم أشأ أن أعرف مزيدا ، الى أن يقال لى ما قد يكون هناك ! »» .
وهكذا ظفرت جين بطريقها الى قلب العجوز بتفانيها . ولم يبق من مصدر للحرج - فى تلك الأيام السعيدة - سوى الدوقة ، اذ شاءت أن تتدخل فى تعديل نظام القصر . وكان هذا مجالا لاصطدامات بينها وبين مارجرى ، هددت خلالها الدوقة - أكثر من مرة - بأن تبادر بالرحيل الى الجنوب . ولكن جين كانت تتدخل بحكمتها ولباقتها ، فتفض الاشكال الذى أدى الى النزاع ..

* * *

◆ ومع ذلك فعقب انتهاء حفلة الزفاف استولى على مارجرى ارتياح بالغ ، اذ أيقنت بأن قصر (جلينيش) لن يلبث أن يتحرر من نزوات دوقة ميلدرم !
وفى حفلة الغداء الذى أعد بعد الزفاف ، حدثت جملة تعديلات بسبب طائر « التوكان » .. اذ ان الدوقة شهدت آخر هذه النزوات ، اذ أجريت تعديلات فى نظام المائدة ، بسبب الطائر « التوكان » . فان الدوقة أصرت على اخراجه

من قفصه ووضعه على ظهر مقعد الى يسارها ، كان معدا لجلوس الدكتور « روب » ، واقتضى ذلك أن يتحول الدكتور روب الى مقعد آخر مواجه له ٠٠ وقد أتاح هذا التعديل تسلية كبرى للدكتور روب ـ حين شرع سمسون فى تقديم صحاف الأطعمة للدوقة ـ اذ راح يشاهد ذراع سمسون وهى تمر بين الدوقة والطائر ، حاملة صحاف الطعام ٠ وكانت الدوقة ـ كعادتها ـ تضع منظارها فوق عينيها متأملة محتويات كل صحفة من ناحيتها ، فيقفز الطائر ويميل برأسه الى جانب ، ويتأمل الطعام من الناحية الأخرى ٠وكانت الدوقة اذا نظرت الى سمسون مستفسرة عن نوع الطعام ، رفع « توكان » رأسه ناظرا الى سمسون فى صمت ٠٠ وكان لصمته على سمسون تأثير أشد

رهبة من سؤال الدوقة المفاجىء ٠ ولقد امتقع وجه سمسون مرة ، والجم لسانه ، وغاب عنه ذكر اسم الطعام ، كما عجز عن تركيب جملة يرد بها على سؤال الدوقة ٠٠ وأخذته الحيرة ، خشية أن يؤدى ارتباكه الى احتمال سقوط الصحفة من يده ، وما فى ذلك من خطورة اسقاط الطعام على ملابس دوقة ٠٠ فبادر الدكتور براند الى انقاذ الموقف ـ وقد كان جالسا الى يمين الدوقة ـ فقدم لها قائمة الطعام ، وشرح لها الصنف الذى كان يقدم لها ٠٠ وعند ذلك تناولت الدوقة قسطا من الصنف ، راعت فيه أن يكفيها ويكفى الطائر الذى كانت ترفع اليه قطع الطعام على طرف الشوكة ، فيبادر الى اختطافها بمهارة ، ويبتلعها بحلقومه الكبير ٠

وكان الدكتور روب مشغوفا ـ بسليقته ـ بكل غريب ، فانصرف الى مراقبة ماكان يجرى أمامه ، وهو يكاد يصيح طربا ٠ ولاحظت الدوقة سرور الدكتور روب بحركات الطائر ، فقالت له : « أراك معجبا به ! ٠٠ انه على جانب كبير من الذكاء ، فهو يدرك دواما ما يريده ، واذا حزم أمره على شىء رفض كل ما عداه مهما يكن أفضل منه ٠٠ أنظر اليه الآن ، انه يحملق فى قطع الطماطم الصغيرة المتبقية فى أناء السلطة ، ولن يقنع حتى يحصل عليها ٠٠

انظر ! » ٠ واتجهت أنظار كل من على المائدة ، ووضعت جين يدها على ركبة جارث وهمست له بما كان يجرى ٠ وأمسكت الدوقة بقرن من الموز فأزالت قشره ، وقدمت الى الطائر طرفا كان نضوجه قد تجاوز المقبول ٠ فتناوله بمنقاره الكبير ، ثم لاح عليه الاشمئزاز ، وسارع بالقاء الموز فوق المقعد ! فصاحت الدوقة : « انظروا ! ٠٠ ماذا قلت لكم عنه ؟ » ٠ ثم أمسكت

بحبة عنب حمراء كبيرة ، وقدمتها للتوكان فأبدى اغتباطا ، حتى اذا هم بالتقاطها ، ردتها الدوقة ٠ وقدمت له قطعة خبز ٠ فاختطفها منها وقذف بها الدكتور روب !

وأبرقت عينا الطبيب الزرقاوان تحت حاجبيه الكثيفين ومال الى الأمام فى تأثر وقال : « بل انه أكثر من ماهر ٠٠ فهو لا يقتصر على معرفة ما يريد ـ وقليلون منا يفعلون ذلك ـ بل يتجاوزها الى معرفة كيف يحصل على مايريد ٠٠ ان هذا الطير قد لقننى درسا ٠٠ فلو اننى كنت مثله ، لما اضطررت الى شرب « الشمبانيا » على غير رغبتى ، لأننى عندما جلست طلبت «ويسكى» و «صودا» ٠٠ غير أن الشمبانيا قدمت لى ، فتقبلتها فى تسامح وخجل ٠ وقد علمنى هذا الطائر الحكيم ، ما كان ينبغى أن أفعل ! »

وصاحت الدوقة وقد فاض بها السرور : « ها هو ذا رجل يصادف هوى من قلبى ٠ فليعطه أحدكم ويسكى ! » ٠

وكان قد ثبت فى ذهن سمسون أنه المقصود بكلمة الدوقة « أحدكم » كلما قالتها ، فسارع الى قنينة الويسكى ، ووضعها فى متناول يد الدكتور روب ، بينما كانت الليدى براند تقول : « اننى قلقة بشأن قطعة الموز التى سقطت على المقعد ٠٠ لنفترض أن أحدنا قد جلس فوقها عفوا ! » ٠ فصاحت الدوقة : « ليرفعها أحدكم ! » ٠ وسارع سمسون وفى يده ملعقة ومنشفة ٠

وصوب الدكتور روب كرة من الخبز الى ناحية أشار للطائر نحوها ، فاذا الطائر يلتقطها ، ثم يرفع بها منقاره ويبتلعها ، فأفعم قلب الدوقة بالفرح لهذا المنظر ٠٠ وكانت قد اعتزمت ـ وهى فى الكنيسة ـ أن تدعو الدكتور روب الى (أوفردين) فى حفلاتها العادية ، ولكنها ـ بعد هذا العمل ـ قررت ترقيته ودعوته الى حفلاتها الممتازة ٠ وأخذ الجميع يلقون كرات الخبز والطائر يتلقفها واحدة تلو الأخرى ٠ ثم ألقت جين اليه بحبة من العنب ـ وهى فى آخر المائدة ـ فتلقفها وابتلعها ٠٠ ولم تكن « فلاور » ماهرة فى الرماية ، ولا كانت تميل لمثل هذه الألعاب ، ولكنها خشيت أن تتهم بالشذوذ ، وحاولت أن تلقى بدورها بحبة من العنب الى الطائر ٠ ولكنها للاسف أصابت بها الدوقة !

وكان لهذا الخطأ من الأثر ما أوقف الملعبة ، فشغل المدعوون بمسائل أخرى الى حين ، كما شغل جارث وجين بالحديث الى « فلاور » عن « ديكى » الصغير ، ابنها ٠٠ وهتف جارث : « آه ، ان ديكى هو أبدع صبى عرفته ، وقد جمع

أعظم خصال والده وأجمل حسنات أمه فى شخصه البديع ٠٠ ويسرنى الحديث مع ديكى أكثر منه مع أى شخص آخر من معارفى ٠ وكم أشعر باعتزاز عندما يقول لى : « ياسيد دالمين وددت كثيرا أن أتحدث اليك ! » ٠٠ وأبدع جارث فى تعبيره ، حتى توردت وجنتا أم «ديكى» سرورا ، ورشقت مضيفها بابتسامة امتنان ٠ ثم أدركت ـ مع الحسرة ـ أن الابتسامة لا تجـدى فى اطلاعه على شعورها ٠ ولم تنتبه الى أن جين همست فى أذنه : « ان سرور فلاور قد بلغ غايته يا حبيبى ، وكان هذا جميلا منك ! »

وهنا راق للدوقة أن تستأنف حديثها مع الدكتور روب عن الطيور ، فقالت له : « عندما تحضر الى قصرى فى (أوفردين) ستسمع « تومى » ٠٠ وهـو ببغائى الأحمر ٠٠ أتتصور ما يقول حينما أهبط درجات السلم وعلى رأسى قبعة الحديقة ؟ » ٠٠ وهنا قال جارث لجين متسائلا فى صوت خافت : « أتعرفين قصة تومى عندما قيل له : يجب أن تقول يا صاحبة الفخامة ٠٠ ؟ » ٠ وتذكرت « جين » المرة التى روى فيها « جارث » تلك القصة للممرضة روزمارى ، فبادرت قائلة : « كلا ٠٠ وكم أحب أن أسمعها ! » ٠٠ فغمغم جارث : « أما أنا فأرفض أن أقصها ! ٠٠ والآن هل لك أن تنظرى الى ساعتك وتخبرينى بالوقت تماما دون ما خطأ ؟ »

وأجابت جين : « كلا ياعزيزى٠٠فلست أجرؤ على اخراج ساعتى والا أحرجت الضيوف » ٠ فسألها : « ولماذا ساد هذا الصمت ؟ » فقالت : « لقـد انتهت قصة صاحبة الفخامة ٠٠ وبدأ الطائر يشرب جرعات من الشمبانيا التى تقدمها له الدوقة فى كأسها ! » ٠٠ وهنا قالت ليدى براند : « أعتقد أن أكبر خطيئة هى أن يعطى طائر برىء شيئا من الشمبانيا » ٠٠ فصـاح جارث : « أواه ، يا ليدى براند ! ٠٠ طائر برىء ؟! ليس بين طيور الدوقة أى طائر برىء ، فان « تومى » ـ مثلا ـ عجوز سليط ٠٠ هل سمعت عن ميزان الحرارة ؟ » ٠

وهنا كانت الشمبانيا قد أحدثت مفعولها فى الطائر ، فأخذ يصرخ ويصيح فى ضوضاء ، ثم قفز على كتف الدوقة وأخذ ينبش شعرها ٠ وراحت الدوقة تلطمه وتصده عنها بمنظارها ، فكان يتفادى لطماتها ،ثم يعاود المحاولة ، حتى فك جميع خصلات شعرها ، فتهدلت ٠٠ وصرخت الدوقة قائلة : « ليأخذه أحدكم ! » ٠ غير أن سمسون تغافل ـ فى هذه المرة ـ عن النداء ، وتسلل خلف احدى الستائر ليرقب ما كان يجرى ٠ فنهض الدكتـور دريك ، وجاء

خلف الدوقة ، وقبض بيديه على الطائر ، واجتهد فى تخليص شعر الدوقة من منقاره ، بأن وضع أصبعه داخل فكى الطائر بحرص شديد ، ولكن الطائر أطبق بفكيه على أصبع الدكتور ، مما دفع فلاور لأن ترسل صرخة قوية .

وبينما كان الدكتور ينقل الطائر المهتاج الى قفصه ، أخذ يضحك وهو يقول: « لا ضرر .. فان هذا المنقار الكبير لا يلحق ضررا اذا دفعت باصبعك الى الداخل .. أما اذا تركت الاصبع عند حافة المنقار ، فهنا الخطر ! » .. وتذكرت « جين » اذ ذاك أنها السيدة المضيفة ، فقالت للحضور : « ألا توافقون على أن ننتقل الى الحديقة ، فلا تزال هناك ساعة ، قبل اعداد العربات .. أما أنت يا فلاور فأود أن أرافقك فى نزهة قصيرة الى الرابية العالية .. فهل ترغبين فى تناول القهوة فى الشرفة يا عمتى جينا ؟ .. وأنت يا دكتور روب ؟ .. أما أنت يا دريك فان جارث يود أن يتمتع بجولة معك ! »

.. ..

وبعد نصف ساعة ، كانت جين تجلس فى الشرفة ، خارج حجرة المكتبة ـ بين الدوقة وفلاور ـ واذا بالدكتور يأتى باحثا عنها ، قائلا : « جانيث .. هل أطمع فى ربع ساعة من وقتك ؟ » . فنهضت جين لفورها قائلة : « نعم أيها العزيز ، لك أن تطلب ما تشاء ، فهذا أقل ما نملك لكى نوفيك حقك ! »

الفصل التاسع والثلاثون

• **بدأ** الدكتور براند حديثه مع جين قائلا : « تعالى نصعد الى الممر المنحنى ، لنبلغ البقعة العارية بين الاشجار ، حيث قضيت ـ منذ أيام ـ وقتا حرجا بين اثنين لا يبصران ! » . فهتفت جين : « آه ، يا له من يوم ! .. ولكن ، هل صارحته يا ديكى بمدى ما كنت تعلم من الحقيقة اذ ذاك ؟ »

ـ أجل يا عزيزتى ، وقد برأنا من أن نكون خدعناه ، وقال انه يذكر كل كلمة من كل حديث ، ويرى اننا التزمنا جادة الصدق .. ان لم يكن فى مرمى الكلام ، ففى معناه الظاهرى ،

له الشبه بينك وبين الوصف الذى كتبته للممرضة روزمارى !

واذ بلغا البقعة العارية ، جلسا على جذع الشجرة الذى كانت جين تجلس عليه معصوبة العينين، عندما وقع عود الثقاب على يدها . ثم سادهما الصمت .. **كان لا بد للثقة والمودة ــ اللتين ربطتا بينهما سنوات طويلة ، واللتين اجتازتا كثيرا من المحن والتجارب ــ أن تجتازا تجربة اليوم ، فهى ــ فى حساب الطبيب ــ أقسى وأمر مما كان يخال ! وكان لديه حديث لا بد من أن يفضى به الى جين ، لكى يفارقها ــ فى هذه المناسبة ــ وهو مرتاح الفؤاد !** لذلك شرع يقول بصوت عميق ثابت النبرات : « جانيت .. هل تذكرين حالى فى الصباح التالى للحديث الذى دار بينى وبين دالمين ؟ .. كنت شرسا ، سريع الغضب ، فى حين أنك كنت ــ يا فتاتى المسكينة ــ معصوبة العينين ، تجلسين فى الظلام بلا حول ولا قوة ! »

وابتسمت جين ، وحاولت أن تخفف عنه ولكنه قال: « اننى لم أكن مطلق النزاهة معك ، حين جعلتك تظنين اننى كنت مهموما من أجل متاعبك ومتاعبه فحسب . ولكن دالمين ذكر شيئا عنك ، جعل عقلى يلتوى فى غير الاتجاه الصحيح ، فأفسد على يومى ! .. ولم يكن بوسعى أن أذكر لك ــ اذ ذاك ــ ما قال، ولكننى ــ كذلك ــ لم أستطع أن أنساه ! » . وغالبت جين عواطفها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ، بينما تضرجت وجنتاها ، وقالت :« ما الذى قاله لك .. زوجى ، عنى ؟ » . فقد كانت هذه أول مرة تذكر فيها « جارث » بهذا اللقب .. وتأمل الطبيب وجهها ، ثم قال :

ــ كان يتكلم عنك بوصفك « المرأة الوحيدة » ، دون أن يفصح عن شخصيتك ، معتقدا اننى لا أعرف من التى كان

يعنيها . وبدأ كأنما كان يظن انه يعرف كل ما يمكن معرفته عنك ، وقال انه كان موقنا من انك لم تحبى حقا أو تعرفى الحب ، حتى تلك الامسية التى ضمتكما فى شرفة قصر (شينستون) ..

ولكنه كان يعتقد أن ثمة شابا جعلت أنت منه مثلك الاعلى ، سنين طويلة .. جعلته معدلا تقيسين به الرجال . وان هذا المعدل كان خليقا بأن يفوز – كما فاز بك دالمين اليوم – لو لم يكن أعمى حقا ! .. ولست أصدق هذا يا جانيت ، لانه لو كان ثمة رجل قد ظفر بحبك – على أى احتمال كان – لما تجاوزه دون أن يفطن اليه !

وتفصد العرق من جبينه ، فضحكت جين فجأة – فى انبساط صادق – ووضعت يدها اليسرى ، التى زانها خاتم الزواج من جارث ، على يده ، وقالت : « أواه ، أيها العزيز ، الساذج القلب ! .. لقد بدأت أرى النور ، وسأكون صريحة معك ، حتى لا تعكر صفو صداقتنا غمامة ، فى السنوات المقبلة ، المشرقة بالهناء ! .. لقد كان جارث على حق ! .. كان ثمة رجل جعلته – ولا أزال – مثلا أعلى ، حتى اذا كان شرسا – وهو ما لم يحدث قط – وحتى اذا كان أحمق ، وهو ما لم يكنه سوى هذه المرة ، فى كل حياته المتسمة بالحكمة ! .. ولكنه لم يسبب لقلبى أوجاعا قط ، اللهم الا حين كنت أراه لم يبلغ من السعادة ما يستحق . **ولو انه سألنى أن أتزوجه لفعلت ، لا لشىء الا لاننى لم أفكر يوما فى أن أرفض له أمرا ، أو أتريب فى رجاحة رأيه .. فضلا عن اننى لم أكن – اذ ذاك – أعرف شيئا عن الحب الحقيقى . ولكن زواجنا لم يكن كفيلا بأن يسعده ويسعدنى ، لاننا كنا من التشابه فى كل شىء ، بحيث لا يمكن أن يكمل أحدنا الآخر على الوجه الذى يعنيه الزواج !..**

وكنت خليقة بأن أقضى نصف الوقت أصر على أن يجعلنى ممسحة لقدميه ، ثم أقضى النصف الآخر فى شجار معه ، لانه جعلنى كذلك ! .. ان المادة التى تخلق صداقة رائعة ، لا تصلح بالضرورة لان تخلق زواجا ناجحا ! .. أواه ، يا فتاى ! لا تتعب رأسك العزيز فى التفكير فى الحمقى العميان الذين يحتمل أن يكونوا قد غفلوا عنى فى الماضى ، فما غفل عنى أحد . **ولكنى أحمد الله اذ وهبنى مثلا أعلى للرجولة ، صاننى من كل رجل ناقص ، وقادنى — سليمة ، مرتاحة الضمير ، لم يمسسنى بشر — خلال سنى الصبا والمراهقة والشباب ، الى المعجزة العجيبة التى حظيت بها اليوم ! »**

فتأمل الخاتم الذهبى ، الذى زان يدها القوية ، النبيلة ، وقال : « شكرا لك ! » . ثم اردف فجأة : « ولو اننى كنت اتمنى لو أن صاحب المعجزة لم يكن أعمى ! » . فهتفت بصوت خافت : « آه ، صه ! انك تخطو على أرض مقدســـة ، وقد نسيت أن تخلع حذاءيك . ان من أحلى ما يربط بينى وبين زوجى اليوم ، اننا تعلمنا أن نلثم ذلك الصليب ! » .. ونهضت فسرحت بصرها خلال المروج والتلال ، ثم التفتت الى الطبيب ، ووضعت يديها فى يديه قائلة : « وداعا يا عزيزى ديكى ! لكم أحبك لانك جعلتنى أصارحك بما قلت ! انه الشىء الذى ما كان أحد سواك ليقدم عليه . فلعل جارث يطلعنى يوما على ما قاله لك ، ومن المحتمل اننى كنت سأقضى فترة تعسة ، خشية أن تكون قد أسأت فهم ما يعنى ! .. **لذلك فاذكر دائما انك كنت طيلة هذه السنين الطويلة نعمة وعونا ، ولم تكن يوما سببا فى أن يخفق قلبى بألم وحسرة ! »**

واذ أشرفا على القصر ، قال الطبيب : « هــذا يوم زفافك

يا جانيت ، وانك لتعلمين ان على العروس ـ فى هذه المناسبة ـ أن تجود بامتيازات كثيرة .. فهل تسمحين لى ـ اذا ما اجتمعنا فى البهو مع فلاور وزوجك ـ بأن أقبلك .. قبلة الوداع ؟! » .
فهتفت جين : « ما أجمل ما تطلب يا ديكى العزيز ، ولكنى أؤثر أن لا تفعل ، اذا لم يسؤك هذا : أولا لاننى درجت طيلة عمرى على أن أكره التقبيل .. وثانيا لان هذا يفسد بهاء ما قلته لى فى غرفة الاستشارة بعيادتك ـ فى آخر مرة ـ من انك لم ترنى أفعل طوال عمرى ما لا داعى له ، وما لا جدوى منه . وثالثا .. » ، وهنا خفت صوتها وشاعت فيه رقة ، وهى تقول : **« لا أرى بأســـا من أن أقول لك اننى أريد أن أخبر جارث صادقة ـ اذا سألنى ـ بأنه ما من رجل فى الدنيا قبلنى .. سواه ! »**

وارتسمت على شفتى الطبيب ابتسامة غريبة ، فلقد عرف كل ما كان يرجو ، بل وأكثر .. وألقى نظرة على الوردة البيضاء التى كانت تزين عروة سترته ، فاذا هى لم تذبل ، بل اكتمل تفتحها وبهاؤها .. ومضى يبحث ـ وهو مرتاح القلب ـ عن زوجته الحبيبة « فلاور » ، وانطلق معها مسافرين الى لندن !

الفصل الاربعون

• **أشعة** القمر تفيض على الشرفة ، فضـية ، بيضـاء ، صافية .. وقد خرج جارث وجين ليستمتعا بضيائها وبهائها .. كما استطابا فى الليل دفئه وسكونه ، وجلسا مستمتعين بالراحة والانسجام !

كانت عزلتهما تامة ، والاستجمام والراحة كاملين . وما لبث جارث أن تناول احدى وسائد مقعده ، فطرحها على

أرض الشرفة ، وجلس تحت قدمى زوجته ، واسند رأسه الى ركبتيها ، بينما أخذت هى تربت شعره وجبينه فى نعومه وحدب . وكان بين لحظة وأخرى يرفع يده ليقرب يدها الى شفتيه ويلثم الخاتم الذى لم تكتحل برؤيته عيناه .. وطالت فترات من الصمت الحانى بينهما !

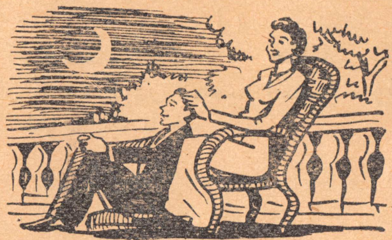
وبينما كانا يسـبحان فى لجج الخيال والهيام ، اذا بلبل يغرد بين الاحراش ، وكأنه يردد : « نشوة .. عذبة ، عذبة ، عذبة ! » . فقالت جين : « يا حبيبى ، ان هذا التغريد يذكرنى بلحن أود لو تعيد غناءه لى .. لست أدرى اسم الاغنية ، ولكنى أعتقد انك تذكرها .. فى ليلة الاثنين الماضى ، بعد أن رأيت أنا الصورتين ، وشرعت الممرضة روزمارى فى وصفهما لك .. كان قلبانا ـ اذ ذاك ـ يتعذبان . وصعدت مبكرة الى حجرتى ، لاكتب خطاب اعترافى لك ، بينما أمرت أنت سمسون بأن لا يوافيك قبل الساعة الحادية عشرة .. وبينما كنت أسطر اعترافى ـ فى الحجـرة التى تعلو المكتبة ـ تناهت الى سمعى أنغام البيانو تحت أصابعك .. وبعد عدة مقطوعات معروفة ، تسلل الى أذنى ـ فجأة ـ لحن لم أسمعه من قبل ، وقد فاض السحر من أنغامه .. اذ ذاك وضعت قلمى ورحت أنصت ، وأنت تكرر العزف مع بعض تعديلات بسبطة ، وكأنك كنت تستذكر اللحن . ومما زاد بهجتى وفرحى أنك بدأت تغنى الانشودة ، ففتحت النافذة على مصراعيها واتكأت على حافتها ، فاستطعت أن التقط بوضوح بعض كلماتها .. وقد انطبع فى ذاكرتى كلمات قلائل فيها عاطفة وحزن ينفذان الى الاعماق ، مما طاح بصوابى ، وكدت أهرع اليك ! »

فلثم جارث راحتها فى حنان ، وقال : « وما هذه الكلمات ؟ »

فقالت : ((**اهدنا يا يسوع – حين ينفض عنا الجميع – الى موطن الامـــان !**)) . ثم اردفت : ((أواه يا حبيبى ! أية شجون أثارتها عبارة : ((**حين ينفض عنا الجميع !**)) .. لا بد ان مؤلف الانشودة قاسى عذابا كذلك الذى قاسيناه .. ثم توالى اللحن والانشودة ، فردا الامل والغبطة الى نفسي ، وجددا شجاعتى فعدت الى قلمى ، وواصلت الكتابة . ومرة أخرى ، انطبعت فى ذاكرتى هذه العبارة : ((**حيث أنت يا نور الانوار الازلى .. يا رب الجميع !**)) . فما هذه الانشودة يا جارث ؟ وهل لك أن تنشدها لى الآن يا حبيبى ؟ .. الآن ، وهنا ، فان بى رغبة مباغتة الى سماعها منك ، ولست أطيق انتظارا !))

واعتدل جارث فى جلسته ، وهو يطلق ضحكة قصيرة هانئة ثم قال : ((يلذ لى يا جين أن اسمعك تقولين : ((لست أطيق انتظارا)) ، فما هذا من شيمك ، وأنت الموفورة الجلد والصبر ! .. أما الانشـــودة فقد عثرت على كلماتها فى كتاب ترانيم كاتدرائية (ورسيستر) ، فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، وشعرت بما فيها من جمال يفوق كل ما صادفت من قبل .. فكتبت كلماتها فى مذكرتى ، ثم حفظتها وطبعتها على صفحة ذاكرتى ، لحسن الحظ . ولسوف أنشدها لك الآن ، بلا شك ، ما دمت ترغبين . ولكنى أخشى أن لا يستقيم اللحن تماما بدون موسيقى . غير انه ما من قوة فى الارض تستطيع أن تغرينى بالتحرك من هنا فى الحال !))

وهكذا جلس فى ضوء القمر وظهره نحو ((جين)) ، ووجهه الى السـماء ، ويداه تضمان ركبتيه . وشرع يغنى . وكان المران المتوالى قد زاد من رخامة صوته ومرونته ، فاستطاع



أن يؤدى اللحن بدقة .. واصغت اليه ((جين)) بقلب جياش :

((انقضى الصباح الوضاء ، واستنفد سريعا مكنونات مخزنه الذهبى ..

((وبدأت ظلال النهار المرتحل .. تزحف من جديد ..

((ما حياتنا سوى فجر يولى الادبار ..

((لا يلبث ضحاه الوهاج أن ينقضى سراعا ..

((فاهدنا يا يسوع — حين ينفض عنا الجميع — الى موطن الامان ، أخيراً ،

((حيث يتشح الملائكة ببياض لا شائبة فيه ،

((ولا تهبط ظلال الغروب أبدا .. حيث أنت ،

((يا نور الانوار الازلى .. يا رب الجميع !))

★ ★ ★

• **وسرى** الخشوع الذى فى العبارة الاخيرة ، فى سكون الليل ، ثم تلاشى ورفع ((جارث)) يديه عن ركبتيه ، ومال برأسه الى ركبة زوجته ، وهو يتنهد فى ارتياح بالغ .

وما لبثت ((جين)) أن هتفت : ((جميل! جميل يا جارثى ! .. لعل ذلك راجع الى أنك أنشدتها .. وفى هذه الليلة بالذات

.. ولكنها تبدو أجمل ما سمعت . آه ، ما أكثر ما تنطبق على حالنا ، فى هذا اليوم بالذات ! » . فبسط جارث ساقيه ، وقال : « آه ، لست أدرى ! .. حقا اننى أشعر بأننى بلغت موطن الامان » .. لا لان الجميع انفضوا ، وانما لاننى ظفرت بالجميع اذ ظفرت بك يا جين ! »

فانحنت جين والصقت وجنتها برأسه ، وقالت : « يا فتاى .. لك منى كل ما أملك أن أعطى .. كل شىء ! ولكن اذكر يا حبيبى ان كل شىء بدا فى تلك الايام السوداء — التى ولت وانقضت — وقد انفض عنا . خيل لكلينا بأن الجميع قد ذهبوا عنا نحن الاثنين « اهدنا يا يسوع ! » .. فهو الذى قادنا بسلام خلال الظلام ، الى ما نحن فيه الآن .. وأحب شىء الى نفسى يا جارث هو أن أدرك أنه رب الجميع .. رب مسراتنا ، رب حيننا ، رب حياتنا .. حياتنا الزوجية ، يا زوجى ! .. فما كنا لنصبح معا فى سلامة وهناءة ، ما لم نكن قد غدونا واحدا .. فيه . أتشعر — أنت الآخر — بهذا الشعور يا جارث ؟ »

وتحسس جارث يدها اليسرى حتى أمسك بها ، ورفعها الى مستوى وجهه ، والصق وجنته بها . ثم لف الخاتم حول اصبعها ليقبل كل جزء منه .. وقال : « أجل يا زوجتى .. أحمد الله اذ أستطيع أن أقول فى كل الامور : أنت يا نور الانوار الازلى ، رب الجميع ! »

وما لبثت جين ان قالت : « آه ، والموسيقى يا جارثى .. من الذى وضعها ؟ »

فضحك جارث فى سرور واستحياء ، وقال : « ما أسعدنى اذ تبدين اعجابك بها يا جين .. وها أنذا أعترف بادانتى ! ..

فان الموسيقى من وضعى ! ذلك لاننى لم أسمع ترنيمتها ، فى حين أن كتاب الترانيم لم يحتو الا على الكلمات .. **وفى تلك الليلة القاسية ، حين مست الصغيرة روزمارى الجراح بقسوة ، بحديثها عن السيدة صاحبة الصورة ، وعما يمكن أن يكون عليه حبها ، اذا الماضى يرتد الى ذهنى وتمثلت .. « الزوجة » ، ثم « الـ .. » ، أعنى الصورة الثانية .. وشعرت عقب ذلك بأننى مهيض الجناح ، كسير القلب ، وحيد .. فلمعت فى ذاكرتى تلك الترنيمة المشجعة ، التى تقول : « اهدنا يا يسوع – حين ينفض عنا الجميع – الى موطن الامان » .. ولاح لى – فى تلك الليلة – بأن الجميع قد ذهبوا حقيقة عنا ، ولم أستبن أمامى موطنا أتطلع اليه فى هذه الدنيا .. »**

ثم نهض فعدل من جلسته ، والقى برأسه على صدرها ، وقال : « وأخيرا بلغنا موطن الامان ! »

ثم هدأ ساكنا لفترة استأنف بعدها الحديث : « وهكذا عادت تلك الكلمات الى ذهنى ، فرحت أرددها لاتخلص من براثن اليأس ، وأنا أمر بأصابعى على البيانو .. وخيل الى أن الكلمات والنغمات تتحول الى صور كتلك التى كانت تطوف بذهنى حين أهم برسم لوحة .. وشعرت فى أطراف أصابعى بذات الوخز الذى أحس به كلما هبط على الهام الرسم .. وبدلا من أن أمسك بالفرجون لارسم ، رحت أوقع على البيانو ، وكأننى أرفع صلاة حارة ، فاذا بكل مقطع من مقاطع الترنيمة يبعث فى نفسى ما اكتنزته كلماته من مشاعر ، حتى جاء المقطع الاخير ، فاذا هو تعبير صادق لليقين والعبادة والامان .. **وهكذا ترين اننى لم أكن أكرر الانشودة من قبيل التدريب ، وانما كنت أصور مقاطعها بالنغم ، ثم أربط بعضها الى بعض ..**

لكم أنا مغتبط لاعجابك بها يا جين .. آه ، هل المطر يتساقط؟ .. لقد هبطت قطرة على وجهى ، وأخرى على يدى .. »

ولم تحر « جين » جوابا ، ولكنه أحس بأنفاسها المتهدجة ، فأدرك أنها تبكى . وقفز مستويا على ركبتيه هاتفا : « جين ! ماذا جرى يا حبيبتى ؟ .. لماذا ؟ .. يا الهى ! لماذا لا أقوى على رؤيتها ؟ » . واذ ذاك سيطرت جين على عواطفها ، ورفعت «جارث» فأجلسته الى جانبها ، وهى تهمس: « صه يا حبيبى ! ليس بى من شىء سوى اننى بلغت أوج الغبطة ! .. انك وضعت لحنا من أروع الالحان ، ولا تصبو الى ترديده زوجتك الفخورة وحدها ، بل كل امرأة على دراية بالغناء ! .. أتدرك يا جارثى قيمة ذلك ؟ .. **ان ملكة الابتكار لديك قوية ، فلما تعذر عليها أن تجد منفذا خلال العين واليد – كما كان شأنها وأنت تبصر وتمارس الرسم – اتجهت الى الاذن واليد .. أواه ، تأمل معنى هذا يا جارث !.. ان العالم ينبسط أمامك من جديد !..»**

وطوقته بذراعيها فى طرب واعتزاز ، وقالت : « الحمد لله .. اننى أعرف ما يكفى لكى أسطر العلامات الموسيقية لالحانك .. تصور يا « جارث » اننا سنذهب يوما الى الكاتدرائيات الفخمة ونستمع الى ترانيمك .. وان أعظم الاصوات ستتنافس على غناء ألحانك ! .. وتصور القلوب النابضة الخافقة والنفوس التى تهزها الصور النغمية .. تماما كما كنت فى الماضى توقظ فى نفوس الجميع – بصورك الرائعة الناطقة – فيض التقدير والفهم الكامل للجمال »

فرفع جارث رأسه ، وقال : « أحقا ما تقولين ، يا جين ؟.. هل بلغ اللحن هذا الحد من الجمال ؟ » .. كم أنا مغتبط بذلك

.. والآن دعينا نطرق حديثا آخر . آه ، دعينى أفضى اليك بسريرة نفسى .. ان الحاضر أروع من أن يدع مجالا للتفكير فى المستقبل .. فلنتحدث عن حاضرنا ! »

وافتر ثغر « جين » عن ابتسامة ، هى ابتسامة « الزوجة » .. عميقة ، رحيمة ، رقيقة ، تحمل كل معانى الاستسلام ، وانحنت نحوه ، واسندت وجنتها الى رأسه ، وقالت : « نعم ، يا حبيبى ، لنتحدث عن الساعة التى نحن فيها ، اذا حلا لك ذلك . فابدأ أنت ! »

ـ تأملى دارنا يا جين ، وصفيها لى كما تبدو لعينيك فى ضوء القمر !

ـ لونها رمادى ، هادىء ، مريح للنظر .. يبعث الشعور بالموئل المريح يا جارثى . وأنوار حجرة المكتبة لا تزال كما تركناها ، والنافذة الفرنسـية مفتوحة على مصراعيها .. والمصباح ـ الذى يعلو الحامل ـ يبدو من هنا بديع المنظر ، تحت ظلته القرمزية ، فهو يسكب أشعة دافئة حمراء فى الداخل .. كما انى أرى شمعة واحدة فى حجرة المائدة ، واعتقد أن سمسون منهمك فى اعادة الادوات الفضية لاماكنها .. ثم ، هناك نور فى الحجرة الوسطى . وأرى مارجرى رائحة غادية ، تضع أمتعتى فى صوانات الحجرة ، وتنمق العاديات والاوانى الصغيرة بذوقها وعنايتها .. كما انى أرى ضوءا فى حجرتك المجاورة لحجرتى .. ها هى ذى مارجرى قد ولجتها .. وها أنذى أراها تتفقد كل شىء لتتأكد من أنه فى مكانه الصحيح ..

يا للعجوز المخلصة الطيبة القلب ! جارث ، ما أحلى أن نكون اليوم فى دارنا ، يحيط بنا ـ ويقوم على خدمتنا ـ أفراد يتفانون فى حبهم الصادق لنا !

فقال لها جارث : « ما أعظم سعادتى اذ ألمس فيك هذا الشعور ، فقد كدت أخشى أن ينتابك بعض الحسرة اذ تشتهين أن تستمتعى بشهر عسل ، كما يفعل سوانا .. ولكن حاشاك ، فانى لموقن من أن كل ما كانت تصبو اليه نفوسنا هو أن يضمنا سقف واحد ، ونصبح جسما وروحا واحدة .. أليس كذلك يا زوجتى ؟ » . فأكدت « جين » قوله !

* * *

• **وسمعا** ساعة داخل الدار تدق التاسعة ، فقال «جارث» بصوت خافت : « يا للساعة القديمة العزيزة .. لقد اعتدت أن أسمعها تدق التاسعة ، منذ كنت طفلا فى مهدى .. حين كنت أجهد نفسى فى أن أبقى مستيقظا حتى ارى امى تسير فى ثوبها الفضفاض ، ذاهبة الى حجرتها . وكان المتبع أن يترك الباب الذى يفصل بين حجرتينا مفتوحا على مصراعيه ، فكنت ألمح منه الشمعة المضيئة فى حجرتها ، وهى ترسل شعاعا من نورها على سقف حجرتى .. **وما أن أرى خط النور فوقى ، حتى كنت استغرق فى نوم عميق ، اذ كانت راحتى وسعادتى فى أن أحس بوجودها بجوارى ، وانها لن تعود الى الدور السفلى .** هل أعجبتك الحجرة يا جين ؟ .. ما رأيك فيها ؟ »

ــ لكم أعجبتنى يا عزيزى .. انها حجرة جميلة ، ولها جلالها القدسى لانها كانت حجرة تلك الروح الغالية .. أمك ! هل علمت أن العمة « جورجينا » قد أصرت على أن تتفقدها ، وأشارت بضرورة اعادة طلائها باللون الابيض وكساء الجدران بالورق ؟ .. ولكنى لم أقر رغبتها ، وأبيت تنفيذها ، لان السقف القديم كان ثمينا .. كان منقوشا باليد ، وكذلك

الجدران .. ولا بد أنك شغفت فى صغرك بالصور التى رسمت فيها .. أنك لا تزال تذكرها حتى الآن ..

ــ ان فنانا فرنسيا قضى هنا مدة طويلة ، فأفرغ فيها فنه، اذ رسم مناظر المياه والازهار والطيور المائية البديعة وقد وقفت وسيقانها فى المياه .. **يخيل لى يا جين أننى أستطيع التنقل فى الحجرة وأنا معصوب العينين .. أقصد بحالتى الحاضرة ، وأن أشير بيدى ــ بكل دقة ــ الى كل بقعة رسم فيها أحد تلك الطيور !**

وقالت جين فى حنان بالغ ، وقد اعتصر قلبها ما كانت تسمعه منه أحيانا من زلات اللسان التى تنم عن أنه كان ينسى انه فاقد البصر : « ستفعل ذلك يا حبيبى .. ومع الوقت ، يجب أن تخبرنى بكل شىء كنت تفعله أو تحبه فى صغرك ، فانى أود معرفتها كلها .. وهل احتفظت بذات الحجرة التى تجاور حجرة أمك ؟ » . فأجابها جارث : « منذ وعيت ذاكرتى، ظل الباب الذى يصل الحجرتين مفتوحا دائما .. **أما بعد موت أمى فقد أغلقت ذلك الباب ، اللهم الا فى ليالى عيد ميلادى ، فكنت أتركه مفتوحا ، حتى اذا ما استيقظت فى ساعة مبكرة ولمحت الباب ، قفزت من فراشى مهرولا الى حجرتها .. وكنت أتخيل دائما وجودها فى الحجرة لاحظى من شخصها العزيز بالتحية والتهنئة بعيد ميلادى !** .. وبطريقة ما ، كشفت مارجرى الامر ، فلما كان عيد ميلادى التالى ، وضعت ورقة كبيرة على الوسادة ، كتبت فيها بخطها المنمق : « أعاد الله عليك العيد فى أحسن الاحوال يا سيد جارثى » .. وكانت هذه

اللفتة مؤثرة جدا ، ولكنها أفسدت الخيال اللذيذ .. فبقى الباب بعد ذلك موصدا ! »

ثم سادهما صمت طويل ، لم يكن يقطعه سوى بلبلان راحا يتناوبان الشدو ، بين الاشجار البعيدة .. وعاد جارث يلف الخاتم حول أصبع جين ، وسألها وفمه ملتصق به : « قلت انك رأيت مارجرى تدخل من حجرة الى أخرى ، فهل الباب مفتوح بينهما الليلة ؟ » .. فعقدت جين يديها خلف رأسه .. يدان قويتان ثابتتان رغم ما اعتراهما فى اللحظة من ارتجاف . **ثم ألصقت وجهه بوجهها ، كما فعلت ليلة الشرفة بقصر (شنستون) ، منذ ثلاث سنوات ، وقالت : « نعم يا حبيبى .. أنهما متصلتان الليلة »**

فصاح جارث : « جين .. أواه يا جين ! » . ثم أفلت من يديها ، ورفع وجهه الولهان الى وجهها ، فتداعى جلد جين ، وهتفت : « أواه يا حبيبى .. خذنى بعيدا عن ضياء القمر الرهيب ، فانى لم أعد أحتمل أن اراه .. انه يذكرنى بشنستون ، وبالضرر الذى ألحقته بك .. كأنه حجاب يفصل بينك وبينى .. هذا الضياء المتألق الذى لا يمكنك أن تراه ! » وانهمرت دموعها فوق وجهه المتجه اليها .

* * *

• **عند ذلك** نهض جارث واقفا ، وقد دبت فيه غريزة الرجولة والسيادة ، وحق السيطرة ، ومتعة التملك .. كل هذه المشاعر هبت فى داخله ، **فاذا به الطرف الاقوى – فى الزواج – رغم عماه ! .. وكان على جين أن تركن اليه فى كثير من الضروريات ، حتى وهو عديم الحيلة ! .. وما لبث أن**

جذبها بيديه ـ بكل حنان ورقة ـ فأوقفها وأحاطها بذراعيه .
ووقف أمامها ونور حبه العارم يضىء وجهه بسناه الباهر ، ثم قال لها : « يا زوجتى المحبوبة .. يا أحلى شىء فى الحياة ، لن يقوى نور ولا ظلام على التفريق بينك وبينى . وما كان نور القمر الهادىء ليقوى على انتزاعك ، ولكن شعورك بأنك لى سيزداد اكتمالا فى الظلام الساكن الناعم ، لانه لا يضم شيئا لا نملك أن نتقاسمه ! .. تعالى معى الى حجرة المكتبة .. حيث نبعد الاضواء ونسدل الستائر . وستجلسين على المقعد المجاور للبيانو ، حيث كنت جالسة فى تلك الليلة الرائعة التى وجدتك فيها .. **تعالى يا معبودتى ، وسأقوم ـ أنا الذى أرى فى الظلام بعين الوضوح الذى يرى به فى النور ـ بعزف « المسبحة » لك ، ثم ترنيمة « تعالى أيتها الروح الخالقة » ، وسأغنى لك الشطرة التى كانت موردا خفيا للسلام والطمأنينة ، وكانت قوة صانت كل حياتى النفسية طوال سنين الفراق القاسية ! »**
وشد جارث يدها حول ذراعه ، وسارا معا وهما ينشدان فى خفوت :

« أنح بنورك الدائم الازلى قوة لظلمة أبصارنا العمياء
« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة .. واملأنا فرحا بفيض مجدك
« وابعد عنا أعداءنا ، وهب السلام وطننا
« وحيث تكون مرشدنا ، فلن يكون ثمة سوء »

. . . .

وهكذا سارت جين معتمدة على ذراع زوجها ، بينما كانت تقوده وهى مستندة اليه .. سارت الى السعادة الدائمة ، الكاملة فى بيت الزوجية !

« تمت »

أسف واعتذار

يأسف قسم التصحيح بمطبوعات كتابي لوقوع بعض الاخطاء المطبعية بالجزء الاول من هذه القصـــة نتيجة اللبس هو الآن موضع التحقيق ، واذ نرجو أن لا تكون مواضع الاخطاء قد غابت عن فطنـــة القـــارىء نـكرر الاسف والاعتذار .

محتويات الكتاب



عزيزى القارئ ..

فى الجزء الأول من هذه القصة الخالدة ، رأيت كيف تعقدت خيوط المأساة التى ربطت مصائر بطلى القصة فترة من الزمن ، ثم فرقت بينهما ... حتى وقعت الكارثة التى أصابتهما فى غير رحمة !

قربان الحب

وفى هذا الجزء الثانى والأخير من

المسبحة

تبلغ هذه المأساة الإنسانية ذروتها ، وتصل الأزمات النفسيّة التى عصفت بعواطف بطليها إلى عنفوان حدتها وعنفها ، فيهز قلم المؤلفة الساحر مشاعرك ، ويحرك كوامن أشجان كل قلب أحبّ ، فعرف جنة الحب وجحيمه !



شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩